جمعية أولي العزم الدينية
لجنة الدعوة و التراث

اسرار القران

الجزء السادس

الامام ابى العزائم

تفسير اسرار القران
الجزء السادس

قوله تعالى : **"لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا"**(148).

بعد أن بين الله تعالى فى الآيات السابقة صفات المنافقين ، وحكمة بخلودهم فى أسفل سافلين . ثم نهى عبادة المؤمنين به وبملائكته ورسله عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، مبينا أن ذلك هو عين النفاق، وكما بين محبوباته التى يحبها ومكروهاته التي يكرهها من عباده فى دائرة النيات والأعمال ، ناسب أن يبين لهم أيضا ما يحبه وما يكرهه فى دائرة الكلمات والأقوال.

فقال جل من قائل : **"لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ"** أى أن الله يكره الجهر بالأقوال التى تسئ إلى عباده ، لأن كل ما لا يحب يدخل فيما يبغض ويكره . وقوله سبحانه **"إِلَّا مَنْ ظُلِمَ"** فيه استثناء لمن وقع عليه ظلم من ظالم فيجوز له أن يتظلم من ظالمة مما يقتضي أن يتلفظ بالقول السوء الذى أساءه.

قوله تعالى : **"وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا"** أى وكان الله سميعا ولم يزل متصفا بالسمع الذى ليس كسمعنا . وعليما متصفا بالعلم المنزه عن حدود إدراكنا.

قوله تعالى : **"إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا"**(149).

أي أن تظهروا خيرا بالقول والفعل علنا أو تكتموه فى طي السر والخفاء **"أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ"** أي تتجاوزوا عما أصابكم من سوء بالعفو عمن أساء إليكم **"فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا"** أي كان الله ولا يزال متصفا بالعفو والقدرة فيعفو عفوا أكبر عمن أتصف بصفة العفو من عباده فعفى عمن أساء إليه وترك أمره إلى الله تعالي.

ويستخلص من الآيتين بعض الإشارات ، وهى أن جميع الصفات الظاهرة والباطنة هى صفات فرعية جزئية صادرة من صفات أصلية كلية ، لأن كل صفة من صفات الخلق فهى أما فرع من صفات الحق أو جزء من قضائه وقدره سبحانه.

ولنضرب لذلك مثلا بصفتي الحب والكره المذكورتين فى قوله تعالى **"لَا يُحِبُّ"** فصفه الحب المذكورة صراحة هى من صفات الله تعالى ، وكل أنواع الحب فى الوجود كله مصدره إرادة الله ومحبته الرحمانية والرحيمية ، وإلا فمن أين للطين والماء المهين هذه العاطفة النبيلة المتجلية بأجلى معانيا فى محبة الأمهات لفلذات أكبادهن.

وكذلك صفة الكره المذكورة فى الآية ضمنا هى صفة الهية ، وإلا فمن أين للمخلوق – وقد كان قبل خلقه عدم بحت – أن يكره أو يبغض ، وإنما هى إرادة الخالق تجلى بها على مخلوقاته حسب سابق علمه وعلو حكمته وله سبحانه الحجة البالغة على خلقه.

وإشارة التظلم أيضا تنقسم قسمين.

الأول : تظلم العبد المظلوم إلى العبيد من الحكام وغيرهم وهذا جائز له بصريح قوله تعالى **"إِلَّا مَنْ ظُلِمَ"**.

والثاني : تظلم العبد إلى الله تعالى وشكواه إليه لتحققه من قوله الله فى ختام الآية **"وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا"**.

وكأنما يقول الله تعالى : يا عبادى أنا لا أحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم منكم فقد أبحت له الاستغاثة وشكوى ظالمة إلى ذوا العدل من الحكام وغيرهم من أهل القدرة على رد الظلم ، ومن اشتكي إلى ولم يركن إلى أحد من عبادى فأنا سميع عليم أسمع شكايته وأعلم حقيقة نيته فمن أظهر الخير للخلق أو أخفاه عنهم فأنا العليم بالسرائر المطلع على الضمائر . فمن التجأ إلى جنابي لزم أن يتصف بأوصافى فيعفو عن ظالمة فيكون معى وعندي أجازيه بما أنا أهل له من عون وقدرة.

قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا"**(150).

قوله تعالى : **"أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا"**(151).

سبب نزول الآيتين أن أهل الكتاب الذين يؤمنون بالرسل السابقين عندما دعوا إلى الإيمان برسول الله محمد بن عبد الله أنكروه وأبوا أن يؤمنوا به . فمنهم قوم قالوا نحن نؤمن بموسى ولا نؤمن بعيسى وهذا لا يضرنا بشئ . وقوم قالوا نحن نؤمن بموسى وعيسى ولا نؤمن بمحمد وهذا لن يضرنا بشئ . فناسب أن يوضح الله لعباده أن هذا ليس سبيل الحق والإيمان وإنما هو سبيل الباطل والكفر . .

قال تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ"** أى أن الذين يأخذون من الدين حسب أهواء نفوسهم وأغراض مصالحهم الدنيوية **"وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ"** فيؤمنون بالله ولا يؤمنون بالرسل فقد اتخذوا جانب الكفر وتلونوا بلون من ألوانه . **"وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ"** وهم طائفة اليهود الذين يؤمنون بموسى ومن قبله ويكفرون بعيسى محمد . وطائفة النصارى الذين يؤمنون بعيسى ومن قبله ويكفرون بمحمد **"وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا"** أى يريدون أن يضعوا فى الدين طريقا بين الكفر والإيمان يناسب أهواءهم . .

وقوله تعالى **"أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا"** أى أعلم يا محمد أن هؤلاء جميعا هم الكافرون بغير شك ولا ريب لأن من صدقك فى خبر وكذبك فى خبر ، أو صدقك فى جميع أخبارك وكذبك فى خبر واحد كان كمن كذبك فى جميع أخبارك فلا فرق فى التكذيب بين وجوهه الثلاثة لأنها عين الكفر بالله ورسله جميعا.

قوله تعالى : **"وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا"** أى وقد أوجدنا وهيأنا لهؤلاء الكفار عقابا مهينا شديد العذاب بالغ الإهانة ولا مفر منه يوم القيامة.

وفى هاتين الآيتين بعض الإشارات:

منها ان التكذيب والكفر صورة واحدة وأن تعددت ألوانه وتنوعت أحجامه . لأن من تجرأ على تكذيب أحد رسل الله فقد كذب وتنوعت أحجامه . ومن تجرأ على تكذيب رسل الله يكون كمن كذب الله تعالى ومن دفعته الجرأة على تكذيب الله فى خبر واحد صار مستعدا لتكذيب كل ما لا يستحسنه أو لا يتفق مع مصالحه . ولهذا سوى الله تعالى بين المكذبين والكافرين فى الظلم فقال سبحانه **"فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ"**[1]

([1]) سورة الزمر : 32.

وقد لعن الله الظالمين فى قوله تعالى " **أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**"[1] كما لعن الكافرين فى قوله جل جلاله "**إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا**"[2].

وإشارة أخرى تقول أن الظلم والكفر وهما نتيجة التكذيب صورة من صور الظلام . ورسالات الرسل نور فمن جاءه هذا النور ولم يره ينور الإيمان كان أعمي القلب فاقدا لنور البصيرة . ومن فقد نور الإيمان كان كافرا حقا . قال تعالى "**وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**"[3].

قوله تعالى : "**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**"(125).

لما كان من سنة الله فى كتابه الكريم أن يجمع بين آيات الكفر وآيات الإيمان ، ويذكر الثواب مع العقاب ، لكى تتضح معاني الآيات ، وتصير أقوي تأثيرا فى النفوس ، لأن الأشياء إنما تعرف بأضدادها ، لذلك أعقب الآية السابقة المشيرة إلى الكفر بالله والتفريق بين رسله بقوله سبحانه "**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ**" أي والذين صدقوا بالله تصديقا لا تشوبه شائبة تشبيه أو مثيل وإنما تصديق تنزيه وتقديس وآمنوا برسله السابقين جميعا وبخاتم النبيين محمد الأمين عليهم صلوات الله أجمعين "**وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**" أي ولم يقولوا أن هذا صادق وهذا كاذب . وهذا بن الله وهذا جاء لنا وهذا جاء لغيرنا كما أدعت اليهود والنصارى أن محمد رسول للعرب ، ولكل قوم رسول إلى آخر هذه الاعتقادات الباطلة . ولكن الإيمان الحق هو الاعتقاد بأن الرسل جميعا رسل الله ، دينهم واحد ، وربهم واحد ، ورسالتهم واحدة، ومقصدهم الواحد الأحد لا شريك له سبحانه تعالى عما يشركون.

قوله تعالى "**أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ**" أي أن هؤلاء المؤمنين بالله تعالى الذين يعتقدون أن الرسل جميعا هم رسول الله ولا يفرقون بين أحد منهم سوف يثيبهم الله أجرا عظيما فى الدنيا والآخرة . فى الدنيا يرزقهم الله حلاوة الإيمان فى قلوبهم . وراحة الاطمئنان فى نفوسهم . وفى الآخرة نعيم مقيم فى جنات الرضوان.

قوله تعالى "**وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**" أى وكان الله فى أزليته ، ولم يزل فى سرمديته ،ولن يزل فى أبديته إلها غفورا يغفر ذنوب عباده المؤمنين به وبرسله الإيمان المذكور فى هذه الآية الكريمة ورحيما بهم رحمة خاصة فوق رحمانيته العامة بالخلق أجمعين.

وفى هذه الآية إشارة تبين سر الوحدة الإيمانية فى كل الأطوار الإنسانية ، لأن الإيمان لون واحد والمؤمنون صنف واحد وأن تعددت صورهم ، وتباعدت أوقاتهم وأماكنهم ، فالمؤمن هو المؤمن من أول البداية الإنسانية إلى النهاية الحتمية مهما تباعد الزمان وتغير المكان وجدت أحوال وظهرت اختراعات واكتشفت علوم لأن الإيمان نابع من داخل الإنسان وليس وقفا على وظيفة معينة أو لقب من الألقاب أو بيئة مؤثرة أو زمن من الأزمنة المتقدمة أو المتأخرة . وإنما المؤمنون يتفاضلون رغم وحدة إيمانهم كما يتفضل الرسل رغم وحدة رسالاتهم لتفاوت درجاتهم وتباين مقاماتهم كما هو واضح فى قول العليم الحكيم سبحانه "**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ**" ، وقال تعالى فى أهل الإيمان "**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**".

---

(1) سورة هود : 18.
(2) سورة الأحزاب : 64.
(3) سورة النور : 40.

ومثل المؤمنين فى عصرنا هذا كالمصابيح الكهربائية ، يضئ كل مصباح حسب استعداده وسعة طاقته رغم وحدة المصدر الممد لهم جميعا . كذلك المؤمن الصادق فى إيمانه يقوم مقام الرسل فى دعوته وتبليغ رسالته حسب درجة عقيدته ومبلغ همته . ومع ذلك فهم جميعا فى معية واحدة سر قول الله تعالى **"فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا"**.

قوله تعالى : **"يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا"**(153).

قوله تعالى : **"وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا"**(154).

قوله تعالى : **"فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا"**(155).

قوله تعالى : **"وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا"**(156).

قوله تعالى : **"وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا"**(157).

قوله تعالى : **"بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا"**(158).

هذه ست آيات متوالية تبين أعمال اليهود مع رسول الله موسى عليه السلام من عناد وتكذيب ونقضهم للمواثيق وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ثم محاربتهم لرسول الله وخاتم النبيين وكفرهم به.

وسبب نزولها ما رواه بن جرير عن محمد بن كعب القرطبي قال جاء بعض اليهود إلى رسول اللهε فقالوا أن موسى جاءنا بالألواح من عند الله فأننا بمثل ماء آتانا حتى نصدقك فأنزل الله تعالى هذه الآيات الست تبين أحوال اليهود مع موسى وعيسى وجميع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعا.

قوله تعالى **"يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ"** أى اليهود الذين جاءهم موسى بالتوراة يسألونك يا محمد **"أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ"** يريدون أن تأتيهم بكتاب مكتوب ينزل عليك جملة واحدة . وهذا طلب المتعنتين المكذبين فلا تعجب من طلبهم هذا ولا تستغربه منهم **"فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ"** فقد طلبوا منه عليه السلام أعجب وأغرب طلب بل كان سؤالهم لنبيهم أعظم من سؤالهم لك.

قوله تعالى **"فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً"** أى أنهم أبناء من سألوا موسى أن يريهم الله بعيون رؤوسهم ظاهرا عيانا محسوسا ملموسا مثل الأعيان الكونية.

قوله تعالى **"فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ"** أى فأهلكتهم الصاعقة السماوية بتعديهم حدود الأدب فى طلبهم هذا مع علمهم بأن الله تعالى لا يرى بالجوارح الجسمانية ولا يمثل بالكائنات المخلوقة.

قوله تعالى **"ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ"** أى تشبهوا بالفراعنة فى مصر وصنعوا لأنفسهم عجلا عبدوه من دون الله من بعد أن أكرمهم الله على يد رسوله موسى وأنقذهم من فرعون وجنوده.

قوله تعالى **"مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ"** أي من بعد ما رأوا بعيدون رؤوسهم كل المعجزات الخارقة التى جاءهم بها نبي الله موسى مثل العصا واليد البيضاء وشق البحر وغير ذلك من الأدلة

التى تؤيد موسى فى دعواه من انه رسول مرسل من الله الواحد القدير الذى لا شريك له ولا إله سواه.

قوله تعالى **"فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ"** أى فسامحناهم وعفونا عن زلاتهم رحمة منا ولم نهلكهم فلم نجعل الصاعقة تستأصل شأفتهم لما كفروا بآياتنا التى أرسلنا بها موسى.

قوله تعالى **"وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا"** أى وجعلنا لرسولنا موسى تأثيرا ظاهرا تخضع له نفوسهم لدرجة قتل أنفسهم توبة إلى الله تعالى امتثالا منهم لأمره عليه السلام.

قوله سبحانه **"وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ"** أى وكان ذلك عندما طلب منهم موسى أن يواثقوه ويعاهدوه على أن لا يشركوا بالله شيئا ولا يعصوا لله أمرا فأبوا أن يبايعوه على هذا الميثاق ، فأمر الله موسى أن يشير إلى جبل الطور ليرتفع فوق رؤوسهم يكاد أن يطبق عليهم ، فأطاعوه وأعطوه ميثاقهم خوفا ورعبا.

قوله تعالى **"وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا"** أى وأمرناهم بعد أخذ ميثاقهم أن يدخلوا من باب القرية فى انحناء الخاضعين يحبون على أيديهم فى هيئة الساجدين فأطاعوا وفعلوا.

قوله تعالى **"وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ"** أى وأمرناهم أن لا يتعدوا الحدود التى وضعناها لهم والتى من مقتضاها عدم صيدهم للسمك فى يوم السبت من كل أسبوع.

قوله تعالى **"وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا"** أى وعاهدناهم على ذلك وأخذنا عليهم ميثاقا عظيما ، فلم يراعوا عهدا ولم يطيعوا أمرا وتفضوا الميثاق بالتحايل الماكر الدال على خبث نفوسهم التى لا تستجيب إلا تحت القهر والبطش.

قوله جل جلاله **"فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا"**.

يبين الله لنا فى هذه الآية أربع كبائر أرتكبها اليهود فاستحقوا بسببها الذلة واللعنة فى الدنيا والغضب والحرمان من رحمة الله فى الآخرة . ولهذا نراهم دائما أبدا يعتريهم الخوف والقلق مهما علوا فى الأرض وملكوا من أموالها ومتاعها.

1- والكبيرة الأولى : هى نقضهم للميثاق الذى واثقهم به الله تعالى فصار هذا طبعهم والصفة التى اتصفوا بها إلى يوم القيامة.

2- والكبيرة الثانية : هي كفرهم بآيات الله التى جاءهم بها موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، ودام كفرهم هذا رغم تقدم الزمان ، وكشف بعض أسرار الأكوان ، التى تؤيد تلك الآيات وتظهرها للعيان.

3- والكبيرة الثالثة : هى قتلهم الأنبياء بغير حق أى ظلما وعدوانا بغير حجة ولا برهان . ولا يزالون يحاربون رسالاتهم إلى الآن وفى كل زمان ومكان.

4- والكبيرة الرابعة : هى قول أجدادهم لرسول اللهε قلوبنا غلف لا تعي كلامك وآذاننا صم لا تسمع قرانك ، فطبع الله على قلوبهم وختم على أسماعهم فلا ترى أحد منهم ولا من أبنائهم يؤمن برسالة محمد إلا في القليل النادر ، وذلك خلاف النصارى الذين ترى كثيرا منهم مؤمنين بمعظم رسالة محمد ويحفظون قرأنه.

قولـه تعـالى **"وَبِكُفْـرِهِمْ"** أيضـا بآيـة مـيلاد عيسـى عليـه السـلام **"وَقَـوْلِهِمْ عَلَـى مَـرْيَمَ بُهْتَانًـا عَظِيمًا"** إذ رموها بالزنا كذبا وزورا ، وهذا بهتـان عظيم وفحش كبير ولا يزالون يقولون بـه حتـى الآن . .

قوله تعالى **"وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ"** فقولهم هذا كذب ومنكر وكفر بآيات الله وبيناته التى أنزلها على رسوله وخاتم أنبيائهε يبين فيها أن قولهم هذا زعم باطل مبنى علي ظن لا حقيقة له ، ولهذا وذاك كتبنا عليهم الذلة فى الحياة الدنيا . والعذاب المهين فى الآخرة.

قوله تعالى **"وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ"** وهذا تكذيب من الله تعالى لقولهم ورد على افتراءاتهم وبيان من الله وهو أصدق القائلين بأن الذى قتل وصلب هو صاحبهم وعميلهم الذى خان المسيح ودلهم على مكانه.

وقد رفع الله المسيح إلى السماء وإلقى شبهه على وجه خائنه فقبض عليه الجنود ظنا منهم أنه المسيح وصلبوه ، وبذلك نال يهوذا الأسخريوطى جزاء خيانته.

قوله تعالى **"وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ"** أى أن اليهود أعداء المسيح اختلفوا في حقيقة المصلوب ، ففريق يقول أنه المسيح بذاته ويدللون على ذلك بالشبة الذى يعرفونه وسبق لهم رؤيته مرارا وتكرارا ، والفريق الآخر يقول أن هذا المصلوب ليس فيه من المسيح شئ سوى هذا الشبه الذى على وجهه أما باقي جسده فهو لصاحبنا يهوذا ، ويدللون على صدق رأيهم متسائلين . وإلا فأين يهوذا الأسخريوطى ؟ ؟ ! لقد بحثنا عنه فى كل مكان فلم نجد له أثرا . .

وكما اختلف أعداء المسيح اختلف أنصاره وأتباعه أيضا. وبذلك أحاط الشك والريب بواقعة صلب المسيح ، والشك نوع من الظن . والظن لا يبين الحقيقة لأنه ليس يقينا مؤكدا.

وفى كل أنواع الظن يغلب جيش الهوى ، جيش العقل ، وهؤلاء الذين غلب عليهم مقتضى الجسم والحس ، وقادتهم النفس الأمارة بالسوء كالأنعام السائمة والحيوانات الهائمة ، التى لا تعقل من الخير إلا خدمة جسمها ، وهناك ظن هو إدراك الطرف الراجح بعد النظر والاستدلال ، وهو القياس الشرعي الذى هو خطر على غير أهل العلم بعد الاجتهاد بشروطه المبينة فى مظانه ، قال تعالى : **"إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ"** ولم يقل أن كل الظن إثم ، وقال تعالى : **"وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ"** وعلى ذلك : فالمنكرون للقياس ضيقوا ما وسعه الله لنا ، والقياس إنما يكون فى العبادات والمعاملات والأخلاق رجوعا إلى الوسط لا فى العقائد ولا فى الأحكام الصريحة الجلية فإن القياس فيها يقدم بين يدى الله ورسولهε والله تعالى نهانا عنه قال تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"** فالظن فى قوله تعالى **"إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ"** دعا إليه الهوى والحرص على ما يزول استهانة بالآخرة ونعيمها ، **"وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا"** هذه الآية الشريفة كذبت كل فرق النصارى واليهود تكذيبا لا يحتمل التأويل بوجه من الوجوه حتى تأويل الشاطحين من غلاة النصارى الذين يقولون أن الله قدر عليه القتل ليخلص آدم من كبيره لعجزه عن قبول توبة آدم إلا بقتل ابنه الوحيد الذى هو المسيح ، ففهموا أن الذى قتله ى الحقيقة هو الله بدليل قوله تعالى : **"فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ"**.

نفى الله تعالى هذا التأويل بقوله تعالى "يقينا" وبقوله تعالى **"بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا"** ، ورفع الله المسيح إليه مقبولا عقلا وشرعا بروحه وجسمه ، ومن تأول الرفع للروح كما يظن ذلك بعض من جهل عجائب قدرة الله وغرائب حكمته ممن يزعمون العلم ولم تتصور

نفوسهم رسوم المعلوم ، فهم كاليهود فى الجهالة ، فأن الأرواح من كل أهلها ترفع إلى عليين ، والأجسام تحفظ فى الأرض ، وتكون الآية عبثا إذا تأولنا رفع المسيح بروحه كما فهم النسطورية من غلاة النصارى ، ومنكروا رفع المسيح بروحه وجسمه حيا ن أدعياء العلم ، ينكرون الإسراء والمعراج أيضا ، ومن أنكر معلوما من الدين بالضرورة مرق منه كما يمرق السهم من الرمية , ما على أهل العلم الراسخين فيه الذين تصوروا رسوم المعلوم إلا أن يقولوا آمنا به كل من عند ربنا الذى خلق الأجواء والأرجاء ، وخلق السماء وما فوقها ، وأتقن كل شئ خلقه ، وقدر الأقدار أزلا وأبرزها فى أناتها بتدبير وحكمة ، سبحانه لا يعجزه شئ ولا يشغله شأن عن شأن . قال تعالى : **"وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ"** ، فى ذات ولا اسم ولا صفة ولا فعل ، وأهل الإيمان يرون بنور قلوبهم ما لا يراه أهل الجهالة ، والقرآن هو الحجة التى هى عندهم فوق المحسوس الملموس ، بل وفوق ما يحكم به العقل بعد الحس واللمس من اليقينيات كلها ، وليس للعقل أن يحكم على الخلاق العظيم ، وله أن يحكم على ما سخره له القادر الحكيم وإنما تحصيل العلم للعمل به لا للإشراف على غيب الربوبية والحكم على الغيب المصون بالمشهود بالعيون قال تعالى : **"وَاتَّقُوا اللَّهَ"** بما تعلمتم من أحكامه وآدابه يهدكم الله تعالى سبله **"وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ"** ما لم تكونوا تعلمونه بتحصيل العلوم وتلقيها ، فإن الغيب المصون فوق أن تصوره العبارة أو تبينه الإشارة قال تعالى : **"الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ . . خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ"** وقالε : "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم".

فالواجب علينا أن نعمل بما علمنا ، والله يعلمنا ما لم نكن نعلم بالتعليم من غيره ، ولنصرف الأوقات بعد العمل بما علمنا من الشريعة فيما أمرنا الله تعالى به من السعى فى مناكب الأرض لفتح كنوزها بالعقل ، وننوع ما فيها من المعادن والنباتات بعلوم الصناعات والفنون نفعا للأمة ، أو نصرف الأوقات فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإصلاح ذات البين ن أما صرف الأوقات فى علم الجدل والمناظرة والسياسات المفسدة للأخلاق التى منها إلقاء العداوة والتفرقة بين المسلمين ، والسعى وراء الوظائف والمراتب والجاه ونفاق الأمراء والوزراء ، والتودد إلى أعداء الله من الكفار فذلك ليس بعلم ن وإنما هو الجهل الذى يضر بالإنسان فى الدنيا والآخرة ، قوله تعالى:

"وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" ينفذ إرادته بقدرة وقوة فلا يعجزه شئ ن والعزة هى كمال القدرة ، والحكمة هى تنفيذه ما شاء أن يقدره بعلم سابق وتدبير وإرادة ، فالحكمة هى كمال العلم بما قدر أزلا لتظهر معالى صفاته جلية للعقول ، وتتجلى أسماؤه لتتعلق بمعانيها ، وهو الظاهر فلا تدركه الأبصار، وهو الباطن جل جلاله فلا تتمثله الأرواح ، وهو اللطيف الخبير.

قوله تعالى : **"وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا"**(159).

أن هنا نافيه – بمعنى ما – وتكون المعنى وما من أحد من أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا ليؤمن به ، وفى رواية ليؤمن به "بضم النون" الأولى بمعنى الجمع مع حذف وأو الجماعة لنون التوكيد ، وتأوله بعض العلماء أن اليهودي والنصراني عند موتهما يشهدهما الله تعالى مشهدا يثبت لليهودي افتراءه على المسيح برميه أنه ابن زنا ، ويشهد النصراني افتراءه عليه بزعمه أنه ابن الله ، فيؤمنان به ولا ينفعهما إيمانهما ، وهذا تأويل أن صح أنه عن رسول الله يكون إيمانا بعجائب قدرة الله تعالى وحكمته سبحانه.

وظاهر هذه الآية الشريفة يدل على نزول المسيح فى آخر الزمان من السماء ، ولا يمنع هذا الإيمان بأن محمداε خاتم الأنبياء . فإن المسيح ينزل من السماء آخر الزمان تابعا لهε وقد ورد أنه

يقتل المسيح الدجال ويحكم بالشرع الإسلامي ويقيم الحجة علي اليهود والنصارى حتى يؤمنوا به قهرا ، ويكون تأويل الآية **"وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ"** اليهود والنصارى إلا ليؤمن به عند نزوله من السماء إذا أدركوه أحياء ، وليس الخبر عن اليهود والنصارى الذين يموتون قبل نزوله من السماء.

قوله تعالى أى قبل موت المسيح بعد نزوله من السماء **"وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا"** يعنى أن المسيح يشهد على اليهود بتكذيبهم له ، وعلى النصارى بافترائهم عليه ، وذلك ظاهر بأن الله تعالى يجعل كل نبي شهيد على أمته.

قوله تعالى : **"فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا"**(160).

أي بظلمهم لأنفسهم الذى بينه الله لنا فى الآيات السابقة ، بنقضهم ميثاقهم ، وقتلهم الأنبياء ، وافترائهم الكذب على الله ورسله عليهم السلام ، وتعديهم فى السبت.

"فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا" والذين هادوا هم اليهود – **"حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ"** أي حكم الله عليهم بحرمانهم من إباحة طيبات ألفوها وقد بينها الله تعالى فى آية أخري . .

هذا دليل على تشديد الله تعالى عليهم فى الدنيا انتقاما منهم وعدلا منه تعالى ، وهذا التشديد سيكون فى الآخرة أنكى بخلودهم فى نار جهنم ، ولو أراد الله بهم خيرا لآمنوا بعيسى عليه السلام وبخاتم الأنبياء صلوات الله عليه، فإن إيمانهم نسخ لتلك التشديدات التى أوقعهم فيها ظلمهم فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات.

"وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا" أي بصدهم أنفسهم وغيرهم عن إتباع الأنبياء الذين أرسلهم الله بعد موسى لافترائهم الكذب على الله تعالى ، وقيام كهانتهم وأحبارهم فى وجوه العامة تارة بالتأويلات الباطلة ، وآونة بالتهديد وإيقاع الفتن حتى يصدوا العامة عن إتباع الحق حرصا على الرياسة وجمع حطام الدنيا الفانية ، وقد أثرت فتنتهم فصدوا كثيرا ممن لم يقع بهم العلم على عين اليقين وحرموا من القابل عن الله تعالى شريعته.

قوله تعالى : **"وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا"**(161).

"وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ"

والربا معلوم تقدم بيانه ، واليهود شر الخلق فى سلب ثروة العالم باستعمال الربا "وقد نهوا عنه" أى حرمه الله عليهم لأن المرابي لص يسرق الفقير المضطر ، ولا يأكل الربا إلا وحش مسلوب الرحمة يمتص دم الإنسان ، أو شيطان يؤثر نفسه بمرافق الحياة حسدا من نفسه أن يرى النعمة فى يد غيره ، وأكل الربا كالقاتل الذى أكل دم مقتولة.

"وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ" وأكل أموال الناس بالباطل هو أخذ الولاة والقضاة والحكام الرشوة من بعض المتخاصمين ليحكم بالباطل ، ومن أكل أموال الناس بالباطل كتابتهم ما يريدون ثم يدعون أنها من عند الله ويبيعونها للناس بأموال باطلة وليست من عند الله ، ولكنها من أباطيلهم وأكاذيبهم ليستعبدوا العامة ، وكل ذلك بالباطل أى بغير الحق.

"وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" وهم الذين أنكروا أو غيروا ما أخبرهم الله به من صفات خاتم الرسل فى التوراة والإنجيل وجحدوا بعثتهε ، فحكم على من لم يؤمن بمحمدε بالكفر وأعد لهم يوم القيامة عذابا مؤلما خالدين فيها ، وفى قوله تعالى "منهم" إشارة إلى أن كفرهم بخاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه أشد من كفر غيرهم ، لأنهم يعلمون ما لا يعلمه غيرهم من

المشركين بما بينه الله فى التوراة ووصايا الخليل والكليم وداوود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام.

قوله تعالى : **"لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا"**(162).

لما أخبرنا سبحانه وتعالى عما جبل عليه اليهود من الكفر بالله ومحاربة رسله صلوات الله عليهم وافترائهم الكب وحكم عليهم بما حكم من التشديد عليهم بتحريم الطيبات ناسب أن يبين لنا سبحانه وتعالى حال من سبقت لهم الحسنى ممن منحهم سبحانه اليقين الذى لا يشوبه شك.

قوله تعالى : **"لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ"** الذين منحهم الله القابل ففقهوا عن الله تعالى علم الشرائع والأحكام ، وفى قوله تعالى الراسخون فى العلم ، إشارة إلى العلماء بالله.

والعلماء أربع أنواع : -

النوع الأول : عالم بالله تعالى وبأيامه وأحكامه وحكمة أحكامه وهم العلماء الربانيون الراسخون فى العلم ، وهم كمل ورثة رسول اللهε الذين يقومون لله بالحجة ويوضحون بما أتاهم الله المحجة.

النوع الثاني : عالم بالله فقط وهم الذين جذبهم الله تعالى فأشهدهم جماله الظاهر الجلي فى مكوناته فخشعت قلوبهم وجوارحهم فجملهم الله بالأدب لحضرته وأن لم يعلموا شيئا من أحكامه.

النوع الثالث : عالم بأيام الله وهو الزهاد الورعون الذين شهدوا بعيون قلوبهم ما أخبرنا الله عن نعيم وعذاب يوم القيامة ، فهانت الدنيا عليهم وفروا بكليتهم إلى القيام بما أوجبه الله عليهم ليفوزوا بنعيم يوم القيامة وينجو من عذابه.

النوع الرابع : هم العلماء بأحكام الله الجهلاء بالله وبأيامه ، وهم لصوص الأمة ويجب الاحتراس منهم ، لأن من جهل أيام الله تعالى كيف يتوقى الوقوع فى المعاصي الموبقة فى نار جهنم ، وتلك الأنواع بينها الله فى هذه الآية فقال "الراسخون فى العلم" أي العالمون بالله وبأيامه "منهم" أى من بني إسرائيل كعبد الله ابن سلام وأبى الدرداء وغيرهما وكعب الأحبار وغيرهم ممن وفقهم الله للإيمان برسوله محمدε "والمؤمنون" أى والذين آمنوا بمحمد صلوات الله وسلامه عليه وآله ، "ويؤمنون" الجملة خير للمبتدأ ليتم الكلام ، ويجوز قطع الصفة كما سيأتي.

"بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ" يعنى بالقرآن المجيد **"وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ"** أى بما بينه القرآن من الكتب السماوية والرسل والملائكة واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى ، وهم العلماء الربانيون الذين فازوا بالعلم بالله وبأيام الله وبكتبه ورسله واليوم الآخر.

"وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ" جاز أن يكون تأويلها ، والراسخون فى العلم منهم ومن المقيمين الصلاة فتكون مجرورة . وجائز أن تكون منصوبة على المدح وقد وردت فى قراءة المقيمون الصلاة.

وهذان التأويلان السابقان على فرض تمام الكلام بجعل يؤمنون خبر المبتدأ ، وإذا كان الكلام لم يتم والخبر الجملة بقوله تعالى "أولئك" فيكون تأويل والمقيمين الصلاة على رعاية الشرع أولى ، أو على تقدير ومن المقيمين الصلاة بحذف الجار وجائز أن يكون التأويل والمؤمنون يؤمنون بالله وبما أنزل إليك وما أنزل من قبلك "وبالمقيمين الصلاة" فتكون الكلمة معطوفة على قوله تعالى "بما أنزل إليك" فتكون فى محل جر بالباء وعطفا على ما قبلها.

قوله تعالى : **"الْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ"** معطوفة على الراسخون ، وإيتاء الزكاة هو إخراج زكاة الأموال فى وقتها بشروطها لمستحقيها ، والزكاة هى الطهرة ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة برهان على العلم بأحكام الله ، فيكون قوله سبحانه وتعالى والراسخون فى العلم العلماء بالله ذاتا واسما وصفة وفعلا المصدقون نبوة الرسل جميعا ، وبما أنزل عليهم من عند الله بدليل قوله تعالى : **"يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ"** فيكون المقيمون الصلاة المؤتون الزكاة دليل العلم بأحكام الله تعالى ، ويكون قوله تعالى والمؤمنون بالله واليوم الآخر بمعنى والمصدقون بما بينه الله لذاته ولأسمائه وصفاته من الكمال والجمال والجلال ، والمصدقون بما أخبرنا الله به مما أعده لأهل الإيمان به من النعيم والمسرات الباقية ، وما أعده للمنافقين والكفار من العذاب الأليم والانتقام الشديد ، وفى هذه الآية بيان عن العلماء بأيام الله تعالى ، وأيام الله تعالى فوق أن تحيط بها العقول ، منها يوم ألست بربكم ، ويوم بدء الخلق ، ويوم آدم وإبليس ، ويوم الكون ، ويوم البرزخ ، ويوم القيامة ، ويوم الإعادة ويوم الحساب بعد النشر والحشر ، ويوم الجنة أو النار وغيرها ، والذين وصفهم الله تعالى بالرسوخ فى العلم وبالإيمان بما أنزل على رسله وبالعلم بأحكام الله بدليل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وبالعلم بأيام الله بدليل الإيمان باليوم الآخر بلغوا أرقى المقامات من التوحيد واليقين وفازوا بأشرف العطايا ، وليس فوق ذلك إلا الفوز بالقرة الكبرى آنسا على بساط مواجهة الله تعالى حيث تقف العقول عن إدراك ما أعده الله لمن اصطفاهم قال تعالى : **"فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ"**[1] أسأل الله تعالى أن يمن علينا بالغفران والرضوان.

قوله : **"أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا"** تعنى هذه الآية أن هؤلاء الذين بينت صفاتهم سنؤتيهم أجرا عظيما يوم القيامة ، وجملة أولئك خبر للمبتدأ الذى هو الراسخون فى العلم وما بعدها على تأويل احتياج الجملة إلى خبر كما قدمت ، والأجر العظيم هو الفوز بالنظر لوجه الله العلي العظيم.

قوله تعالى : **"إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا"**(163).

الوحي هو الإعلام على سبيل الخفاء قال تعالى : **"وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ" "وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى" " فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا"** أى إشارة إليهم وهذا النوع من الوحي هو الإلهام لأن الوحي عشرة أنواع : منها أنواع عامة للرسل وغيرهم من المؤمنين ، ومنها أنواع خاصة بالرسل بينها الحديث الشريف رواية الإمام البخاري.

وسبب نزول هذه الآية أن اليهود سألوا رسول اللهε كتاب من السماء كما أنزلت التوراة في الألواح مرة واحدة ، وذلك بعد أن قامت المعجزة القاصمة للظهور على صدق رسالتهε حتى لم تبق شبهة توجب الشك ن ولكن قبح الله اليهود لأنهم فطروا على الرجوع إلى الباطل كما أخبرنا الله تعالى ، ومن غيهم زعمهم أن الله لم ينزل شئ فأخبرهم الله تعالى بقوله **"إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا . ."** إلى آخر الآية.

يعنى أن سنتنا فى خلقنا أن نقيم فيهم رجالا منهم نصطفيهم لنا ليتلقوا منا ويبلغوا عنا ،وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان مثلما خلق كل الأنواع الموجودة فى الملك والملكوت ، فجمعنا فى الإنسان قو الأرواح العالية وقوى الأجسام السافلة ، وجعلنا له عقلا يعقل آياتنا المنطوية فى الكائنات

([1]) سورة السجدة : 17.

المحسوسة له ، وأسرارنا التى فوق الكون إذا ذكر بها على لسان رسول اللهε الذى نصطفيه لنا ، وليس للعقل أن ينفذ من أقطار السموات والأرض حتى يشرف على حظائر القدس الأعلى ، ولكنه إذا ذكر بتلك الأسرار وبينت له بالبرهان المقبول لديه قبل وأقبل إذا سبقت له الحسنى من الله ، ومن هوى إلى الحضيض الأسفل أنكر وأدبر إذا سبقت له السوئى ، لتلك الحكمة كان لابد من بعث الرسل لإصلاح حال المجتمع الإنساني ولتقوم الحجة على من أنكروا رسلهم ، وما أرسل الله الرسل عبثا قال تعالى : **"وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا"** وعلى ذلك فأهل الفترة ناجون ، ولما كانت شبهة اليهود أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة كما نزلت التوراة ، فقد ذكر الله تعالى أنه أنزل كتبا على الرسل الذين ذكرهم الله فى هذه الآية أسفارا متوالية سفرا بعد سفر، وما أنزل على رسول كتابا مرة واحدة إلا موسى عليه السلام ، ولذلك لم يذكره فى هذه الآية لأن الآية سيقت للاستدلال على كذب اليهود ، لأن من سنة الله الماضية فى خلقه أن ينزل كتبه على رسله نجوما بحسب المقتضيات.

ومع تلك الحجج فإن القرآن الكريم أنزل على خاتم الرسل الذى لا نبى بعده , وكان القوم قبله فى جاهلية عمياء صماء والله تعالى أرحم الراحمين وأعلم بعباده منهم بأنفسهم ، فأنزل الكتاب نجوما على حسب الأحداث الزمنية ليكون أدعى لحفظ الأحكام لمناسبة الأحداث التى دعت إليها ، ومن ذلك حكم التيمم الذى أنزله عند فقط الماء وهم فى سفر حتى يكون عالقا بالذهن بسبب حادثته التاريخية التى يرويها من شهدها لمن غاب عنها ، لأن كتاب خاتم الرسل أكمل الله لنا به ديننا وأتم به النعمة علينا ، فكان مهيمنا على الكتب قبله وجامعا لأحكام الأحداث التى تحدث بعد أن لم تكن إلى يوم القيامة.

وتأويل الآية الشريفة : أنا أعلمناك بالوحى علما خاصا لك ، نال القبول منا لتبلغه إلى عبادنا وليس هذا الإعلام بعجب لأنه مسبوق بوحى إلى من كان قبلك من الرسل ، والمنكرون عليك كعدى ابن ثابت ومن معه حين قالوا يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شئ بعد موسى ، فأنزل الله قوله : **"إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ"** الآية ، وقول آخر بين للذين قالوا لما أنزل الله الآيات التى قبل هذا فى ذكرهم **"مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ"** ولا على موسى ولا على عيس ، فأنزل الله **"وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ"** ، وبسند الإمام بن جرير الطبرى قال محمد ابن كعب القرطبى أنزل الله : **"يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ"** إلى قوله تعالى : **"وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا"** فلما تلاها على اليهود أخبرهم بأعمالهم الخبيثة جحدوا كل ما أنزل الله وقالوا : **"مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ"** لا على موسى ولا على عيسى وما أنزل الله على نبي من شئ.

"كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ" أفتتح الآية بذكر نوع لأنه أول نبي أنزل عليه الكتاب ، وأمره بالتبليغ ودعا أمته ألف سنة إلا خمسين عاما ، وهو القدوة الحسنة فى الصبر على نكبات الدعوة إلى الله تعالى ، وتفصيل سيرته وسيره بينها القرآن ، وسنشرح ما ورد فيه أن شاء الله تعالى عند ذكره.

"وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ" ذكرهم أجمال ثم خص بعضهم بالذكر تعظيما لقدرهم عليهم الصلاة والسلام بقوله تعالى : **"وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا"** ذكر سبحانه إبراهيم بعد نوح لأنه أول رسول أكرمه الله تعالى بالخلة ، وأشهده ملكوته الأعلى ، وابتلاه بالكلمات وبالنار وذبح ابنه وهو من أولى العزم وأبو الأنبياء ، وبشر بسيدنا محمدε ودعا الله ودعا الله تعالى أن يبعث من ذرية إسماعيل عليه السلام رسولا منهم يتلوا عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، فاستجاب الله له عليه

السلام ، وهو الذى سمانا بالمسلمين قال الله تعالى : **"مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ"**.

"وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ" أما إسماعيل فهو الابن الأول للخليل عليه السلام وأمه هاجر ، وبصبر الخليل على إطاعة أمر الله فى قتل إسماعيل ولده الوحيد أكرم الله الخليل بفدية إسماعيل بكبش عظيم وزاده إكراما بقوله تعالى : **"وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ"** ، ثم قصم ظهور اليهود بحجة دامغة هو أن الذبيح إسماعيل عليه السلام ولا شك ، ومن أرتاب فى هذا فهو عمي البصيرة بدليل قوله تعالى : عند مجازاة الخليل على صبره فى حادثة ذبح ولده الوحيد إسماعيل عليه السلام "وبشرناه بإسحاق" فالبشرى جاءت لمسارعة الخليل إلى ذبح ولده إسماعيل فبشر بإسحاق ، فثبت أن الذبيح إسماعيل وأن إسحاق بشر به إبراهيم بعد صبره على ذبح أبنه الوحيد إسماعيل ، وحيث لم يكن للخليل ولد سوى إسماعيل حتى تعظم المصيبة فتوجب الهلع والجزع ، ولكنهε مع كل تلك المقتضيات سارع إلى ذبح ولده بقلب ثابت ابتغاء رضوان الله تعالى ن فبشره الله بإسحاق ليفرح بفضل الله وبرحمته ويعلم رضوان الله عنه . وأما إسحاق فهو الوالد الثاني للخليل عليه السلام مجازاة له على صبره ، وأما يعقوب فهو ابن اسحق بشر به إبراهيم بعد صبره على ذبح ابنه الوحيد إسماعيل ، وحيث لم يكن للخليل ولد سوى إسماعيل حتى تعظم المصيبة فتوجب الهلع والجزع ، ولكنهε مع كل تكل المقتضيات سارع إلى ذبح ولده بقلب ثابت ابتغاء رضوان الله تعالى ، فبشره الله بإسحاق ليفرح بفضل الله وبرحمته ويعلم رضوان الله عنه . وأما إسحاق فهو الولد الثاني للخليل عليه السلام مجازاة له على صبره ، وأما يعقوب فهو ابن اسحق وسنفصل سيرتهما فى الآيات الآتية ، وأما الأسباط فهم أبناء يعقوب ، وأسباط الخليل وهم اثنا عشر رجلا كلهم أنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد ذكرنا أسماءهم عند ذكر الأسباط فيما سبق.

"وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ" أما عيسى فإن الله تعالى أفتتح خلقه بعجيبة تحير أهل النفوس اللقسة ، وسأبين لك سر تلك العجيبة عند ذكرها وهو عبد الله ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم وقد أنزل الله عليه الإنجيل نجوما ، أما أيوب فقد ابتلاه الله بلاء أشبه بما أظهره من البلاء فى عيسى وأمه ، وسنوضح ما ابتلاه الله به عند خبر الله تعالى عنه ، ويونس وفى بعثته لقومه عجائب من البلايا والمحن مما أخبرنا الله تعالى عنه ، وهارون هو الذى أرسله الله تعالى مع أخيه موسى عليه السلام ، وقد أنزل الله عليهم التوراة فى الألواح مرة واحدة ، وفى إنزالها مرة واحدة سبب فى عناد اليهود الذين طلبوا من رسول اللهε أن ينزل عليهم كتابا من السماء كما أنزل الله على موسى التوراة عنادا منهم ، فذكر الله تعالى فى هذه الآية اثنى عشر رسولا أنزل عليهم كتبا كلها نزلت نجوما ، حتى بلغ بهم العناد أنهم قالوا ما سبق أن أنزل الله على بشر من شئ إلا موسى وعيسى فقاتلهم الله أني يؤفكون ، وسليمان هو رسول الله الذى أتاه ملكا ، لا ينبغي لأحد من بعده ، فصرفه فى كل موجود من الجن والإنس والحيوانات.

"وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا" وداوود أنزل عليه الزبور على وزن فعول . وهنا قال آتينا داوود زبورا ليقصم ظهورهم بالحجة أنه معلوم عندهم بالضرورة لا ينكره يهودي ولا نصراني ، وقد أنزله الله تعالى عليه أجزاء فثبت أن حجتهم فى طلبهم للرسولε أن ينزل عليهم كتابا من السماء إنما المراد منه صد الناس عن سبيل الله وفتح أبواب الفتن المضلة.

قوله تعالى : **"وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا"**(164).

"وَرُسُلًا" هنا معطوفة على محل نوع ـ عليه السلام ـ فى الآية السابقة . فيكون تأويلها أنا أرسلناك كما أرسلنا نوحا ومن بعده من الرسل . وجائز أن تكون "رسلا" منصوبة على الحال أو على المدح ، وقوله **"قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ"** يعنى حدثناك بأخبارهم من قبل نزول هذه الآية.

قوله تعالى : **"وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ"** أى لم ننبئك بهم الآن وسننبئك بهم بعد ، أو لم نقصصهم عليك لأن من قصصناهم عليك جمعوا جميع مشارب الرسل جميعا والمراد من قصصناهم عليك إدحاضا لزعم اليهود وقهر لهم فى عنادهم ، وجائز أن يكون رسلا نصبت لأن حرف جر الذى دخل على نوع لم يسبق قوله تعالى : "رسلا" فصح نصبه لبعد حرف الجر عنه.

"وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا" أى خاطبه مخاطبة ، وعن ابن جرير قال "أن الله جل ثناؤه لما كلم موسى كلمه بالألسنة كلها فجفل موسى ، حتى كلمه بلسانه آخر الألسنة" ، فقال يا رب هكذا كلامك ، قال لو سمعت كلامي على وجهه لم تكن شيئا ، وعنه لما كلم الله موسى بالألسنة كلها قبل لسانه فطفق يقول والله يا رب ما أفقه هذا كلامك ، قال لا ، قال هل فى خلقك شئ يشبه كلامك ، قال لا.

قوله تعالى : **"رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا"**(165).

أي أن الله تعالى أرسل رسلا وقد قدمت لك الحكمة من إرسالهم ، لأن الله خلق الإنسان جامعا لكل الحقائق وأهله ليفوز بالملك الكبير حيث تخدمه الملائكة ، أو يخلد فى نار السعير إذا هو أتبع هواه وأطاع نفسه الأمارة بالسوء ، فالرسل بعثهم الله تعالى ليبشروا أهل الإيمان به وينذروا أهل النفاق والكفر ، أى يخوفوهم من عذاب النار يوم القيامة ، ولتكون الحجة لله على من خالف.

قوله تعالى : **"لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ"** وقد بينت هذه الآية أن الناس لا يؤاخذون ولا يعاقبون إذا لم يقوم بينهم رسول يبشرهم وينذرهم ،وكل أمة لم يبعث الله إليهم رسولا فهم ناجون من أن يؤاخذهم على ترك القيام بالتكاليف إذ لا تكليف عليهم ، قال الله تعالى : **"وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا"** وليس معنى هذا أن الناس قد تكون لهم حجة على الله ، ولكن هذه الآية بيان للعقول التى قامت لديها دلائل التوحيد حتى عرفت ربها ، فنزهته تنزيها يليق به ، والحقيقة أنه لا حجة للناس على الله تعالى ولو لم يرسل رسولا فهو الخلاق العظيم الفاعل المختار جل جلاله ، ولكنه يتنزل سبحانه فيأخذ على الناس مسالكهم حتى لا تكون لهم حجة ، وتأويل هذه الآية أن العليم بعباده الخبير بهم أرسل الرسل مبشرين ومنذرين علما بحالة من سبق عليهم القضاء بالنفاق والكفر والعناد فى الدنيا ، وبين لهم أنه سبحانه وتعالى أرسل الرسل قطعا لحججهم وإعجازا لهم أن يقولوا يوم القيامة عند الوقوع فى العذاب المقدر عليهم كما أخبر الله عنهم بقوله ""لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى" وهذا تنزل من الله سبحانه وتعالى ، فإن الحكم العدل الواسع العليم يتفضل حتى يجعل للعدم وجودا ومع وجوده يرى لنفسه حقا أمام ربه قال تعالى : **"يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا"** فبعثه الرسل تجعل أهل النفاق وأهل الكفر بالله يعلوهم الخزى والذل إذا انكشفت لهم الحقائق التي بينها لهم الرسل في الدنيا ولآت حين مندم فيساقون إلى جهنم وهم واثقون أنهم يستحقون أكثر من ذلك.

قوله تعالى : **"وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا"** أي ذو عزة ، والعزة هى القوة فى تنفيذ ما قدره الله أزلا فى آياته الكونية والتى هى طرف لأحداثها ، "وحكيما" أى ذو علم بأسرار ما قدر ، وبما يلزم

لإبرازه من المكان الزمان والحال ، والحكمة كما قدمت هى كمال العلم والقوة والقدرة المنفذة لإيجاد ما خصصه العلم من حضرة الإرادة.

قوله تعالى : **"لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا"**(166).

سبب نزول هذه الآية ما يسبق من قول اليهود "ما أنزل الله على بشر من شئ" وقول رسول اللهε ، أنكم والله لتعلمون أني رسول الله ، فقالوا لا نعلم بذلك يا محمد ، وكان هذا يحزن رسول اللهε فأنزل الله تعالى هذه الآية ، ومعناها أن جحد اليهود لما أنزل على موسى وعلى من قبله وبعده ، وجحدهم نعتك من أنك رسولى وخاتم أنبيائي وإنكارهم ما أنزلته عليك لن يفيدهم بشئ ، لأني أشهد شهادة الحق بما أنزلته إليك وأشهد أني أنزلته بعلمى الذى أحاط بما قدرته أزلا من أنك رسولي وخاتم أنبيائي ، وإنك رحمتي للعالمين ، وأن كتابك مهيمن على كل الكتب وناسخ لجميعهم ، وأني قدرت إنك لو أدركك موسى وعيسى لآمنا بك واتبعاك ، وفاء بميثاقي الذي واثقتهما به ، وبعد شهادتي بما أنزلته عليك بعلمي ، فإنكار العالم جميعا لا وزن له عندي.

قوله تعالى **"وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا"** . . أي وحسبك شهادة الله لك طمأنينة لقلبك وانشراحا لصدرك ، وبينت معنى الملائكة فيما تقدم ، والمراد بالملائكة هنا أما أن يكون جبريل وحده ، أو يكون جميع الملائكة الذين شهدوا لله بما شهد به لنفسه لأنه ما من حدث يحدث فى الأرض ولا فى السماء إلا وتعلمه الملائكة بإذنه.

وتأويل هذه الآية أن الله تعالى وملائكته يشهدون لك بأنك رسول الله، أنزل عليك كتابا مهيمنا على الكتب السابقة وختم بك الرسل . كما قال تعالى : **"إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ"** وفى ذلك من الشرف للمؤمنين، ومن البهجة والمسرة لعباده ، وفيه من الخزى والذل والقهر لمن كفروا بالقرآن وما فيه مما لا تتصوره عقولهم . أسأل الله تعالى أن يعيذنا بوجهه من البدع المضلة ومن مخالفة السنة حتى نكون من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا"**(167).

أي أن اليهود والنصارى الذين كفروا بما أنزله على حبيبه محمدε بعد أن قامت الحجة عليهم بما أنزله على موسى وعلى عيسى وغيرهما – عليهم الصلاة والسلام – من صفات خاتم الرسل ومن نسبه وبلده التى يولد فيها والتى يهاجر إليها ، وأنه من نسل إسماعيل عليه السلام **"وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ"** بأن صدوا أنفسهم عنادا وطمعا فى الرياسة ، وصدوا غيرهم من المشركين الذين كانوا يسألوهم هل فى كتبكم دليل على بعثة رجل من العرب ، فيقولون أن نبي آخر الزمان يكون من ولد هارون وداوود ولم يكن فى التوراة ما يدل على بعثة نبي من العرب ولا من ولد إسماعيل ، ويحرفون ما فى التوراة عن مواضعه ويفترون على الله تعالى الكذب ، وهذا هو صدهم عن سبيل الله بعد أن قامت الحجة بالمعجزات الباهرات ، وبعد أن ثبتت معجزته عند العرب لعجزهم عن إتيانهم بأقصر سورة من القرآن فى وقت شدة عدواتهم له وتعصبهم لآلهتهم وآبائهم ، وهذا العجز جعلهم يسألون أهل الكتاب عنهε.

"قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا" أي قطعوا عن رحمة الله بكفرهم برسول اللهε بعد علمهم اليقين بصدق نبوته ، وصدوا من أقبل على الإسلام بالأباطيل والضلالات ، فوقعوا فى الهلاك الأكبر فى الدنيا بالخزي والذل والرق ، وفى الآخرة بالخلود فى نار جهنم ، والضلال هو الميل عن الحق إلى

الباطل ، والجور فى عمل الباطل غلوا فى الكفر والعناد حتى يستحقوا لعنة الله تعالى ببعدهم عن رحمته وعن قبول الهداية.

قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا"**(168).

قوله تعالى : **"إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا"**(169).

"كَفَرُوا" أي أنكروا رسالة محمد وجحدوا ما أنزله الله عليه مع ما عندهم من العلم بصدقة ، ولهذا كفروا بالله تعالى وبكل أنبيائه السابقين ، وظلموا بعنادهم وصدهم من أقبل على الإسلام ، وباستمرارهم على الكفر بالعناد بعد أن عملوا ما فى كتبهم من إثبات نبوتهε وشهدوا من المعجزات الباهرات التى لو أنزلت على الحجارة لهبطت من خشية الله ، لكن من يهد الله فهو المهتدي.

"لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ" أي ليطهرهم من الكفر والظلم ويعفوا عن سيئاتهم ، وأنهم بعملهم الذى عملوه حاربوا الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، فأقاموا الحجة على أنفسهم أنهم أعداء الله تعالى وأن الله لم يقدر لهم هداية ولا توفيقا فى سابق أزله ، لأن النفوس الخبيثة التى خلقت من سجين تعود إلى ما خلقت منه ، قال تعالى : **"كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ . . ."** ومن خلقهم الله من نور جماله أعادهم إليه . ومن خلقهم من قهرمان جلاله أعادهم الله.

"وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا" أي ولا يبين لهم بيان إحسان طريق الحق ويوفقهم للعمل بمحابه ومراضية فيسلكون الصراط المستقيم حتى يصلوا إلى مقر رحمة الله فى رضوانه ، ولكن أضلهم فسلكوا طريق الكفر والغواية والقطيعة عن الله.

"إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ" والاستثناء هنا متصل ، وهو يفيد القصر ، أي أنهم لا يتجاوزون طريق الضلالة حتى يصلوا إلى جهنم كما قال تعالى **"إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا"** أي مؤبدين فيها خلودا أبديا وقوله تعالى : "أبدا" فى هذه الآية نهاية العقوبة لأعداء الله ، وقد بينت إنهم لو منحوا الحياة الأبدية فى الكون لازدادوا فى كل يوم جديد عنادا وكفرا ، فهم يؤاخذون بالأبدية فى النار جزاء على أعمالهم ونواياهم.

"وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا" لأنه تنزه وتعالى لا شريك له ينازعه فيما يشاء أن ينفذه ولا شفيع لهم ولا نصير ولا ظهير ، والقادر الفاعل المختار يفعل ما يشاء ، فكان خلودهم فى النار يسيرا على الله تعالى ويسيرا جدا بالنسبة لما يستحقونه من أليم الانتقام على محاربتهم لخالقهم الذى سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض ، بعد أن خلقهم من الطين ،ثم من الماء المهين.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا"**(170).

بعد أن دحض الله شبهات اليهود بالحجج الدامغة وكشف الستار عن عنادهم ونزوعهم إلى الباطل ، حتى عرفوا بالبهتان عن سائر الأمم ، أخذ يخاطب جميع الناس الكافرين برسوله محمدε ، ممن بلغتهم دعوتهε عجما وعربا ، وتأويل هذه الآية : يا جميع من بلغتهم رسالة محمدε ، فإن قوله تعالى : يا أيها الناس خطابا لعامة الخلق من بنى الإنسان ، قوله تعالى : **"قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ"** يعنى قد جاءكم محمدε من عند الله تعالى بالحق الذى يجب أن تكونوا عليه لتفوزوا بالحسنيين ، ومجيئه بالحق لأنه جاء بالقرآن الذى هو معجزة عجز العرب جميعا بأن يأتوا بأقصر سورة منه، والقرآن حق وقد جاء به ن وجاءε يدعوا إلى الله على بينة من الأمر بدعوى يقبلها العقل ثبتت لديه لما قام به من المعجزات الباهرات ، وكانت دعوته حقا قوله تعالى : **"مِنْ رَبِّكُمْ"** أي جاء

القرآن يدعوا إلى الله ، ولما كان القرآن معجزا وكانت دعوته حقا ثبت أن الذى جاء به هو الحق ، لأن الخلق جميعا عجزوا عن أن يأتوا بمثل ما جاء به ، وما أعجز جميع بنى الإنسان لا يمكن أن يأتى به إلا الله تعالى ، قوله تعالى : **"فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ"** أي صدقوا محمدا بعد أن ثبتت صحة رسالته وقيام الحجة البالغة يكن الإيمان بهε خيرا لكم فى الدنيا لحفظ دمائكم وأموالكم وأعراضكم ولتنالوا العزة بالخير بعد الرق والوسعة بعد الجزية ، وخيرا فى الآخرة بالفوز بالنعيم المقيم فى فردوس الله الأعلا ، ونصب خيرا أما على أنه خيرا ليكن المقدرة أو أنه نكرة جاءت بعد تمام الكلام وهى اللغة الفصحى.

قوله تعالى : **"وَإِنْ تَكْفُرُوا"** أى وأن تكفروا بمحمدε وبما جاء به من عند الله انتقم الله منكم فى الدنيا والآخرة قوله تعالى : - **"فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"** أي إيجادا وملكا ، ومن أوجد السموات والأرض وملكها فهو الغنى بذاته عمن سواه ، وكل ما عداه مفتقر إليه ، فلا ينفعه سبحانه وتعالى إيمانهم بل نفعه عائدا إلى من آمن به ، ولا يضره تعالت ذاته كفرهم . وغضبه عائدا عليهم.

وجائز أن تكون المعنى فإن لله ما فى السموات والأرض أى أنه ملك مطلق التصرف قادر على أن يسرع بالنقمة منهم بسبب كفرهم.

وجائز أن يكون المعنى إنكم أيها الناس إن كفرتم فإن السموات والأرض مخلوقة له سبحانه مملوكة له جل جلاله ، ملأ السموات السبع وإرجاء من الأرواح المطهرة يعبدونه الليل والنهار لا يفترون ، وعلى وجه الأرض عباد مخلصون مطيعون لربهم ويفعلون ما يؤمرون ، وكفر من كفر بمحمدε يسبب إنزال العذاب على من كفر بهε .

وقوله تعالى : **[وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا]** أي محيطا عليما بإحسان الحسن فيجازيه بأحسن منه ، وبكفر الكافر فيخلده فى نار جهنم ، وحكيما أى ذا حكمة فيما قدره وقضاه سبحانه وتعالى.

قوله تعالى : **"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا"**(171).

بعد أن دعا الناس جميعا بالحجة إلى الإيمان بحبيبه محمدε وهدد من لم يصدق بدينه واستوفي إبطال شبهات اليهود خاطب النصارى بقوله تعالى : **"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ"** من اليهود والنصارى لا تغلوا فى دينكم ، أي لا تبالغوا في المبالغة لدرجة الغلو والإغداق ، فيقول اليهود عزير بن الله ، ويقول النصارى المسيح ابن الله ، وقوله تعالى : **"وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ"** ، خطاب بهذا الكلام النصارى وتأويل الكلام لا تقولوا على الله ما لا يليق بجلاله العلي ، من أنه حل فى المسيح أو فى مريم تنزه وتعالى ، أو أتحد بالمسيح ، أو أن المسيح تولد من الله ، فإن هذا القول باطل جميعه فإن حلول الله تعالى فى جسم من الأجسام يقتضي أنه جسم تحيط به أجسام بنى آدم ، وأجسام بنى آدم أصغر من أجسام الجمادات فضلا عن أجسام عبيده يقتضي محو الحقيقتين واستبدالهما بحقيقة أخرى كما تتحد الأجسام ببعضها فى التحليل والتركيب فتنمحي الحقيقتان وتوجد حقيقة أخرى بعد فقد مميزات كل حقيقة منها كما تضع الليمون على الماء فإن مميزات الماء ومميزات الليمون تفقد ، ونحن نرى حقيقة العبد ثابته بإبصارنا ودلائل وجود الرب جل جلاله ثابتة بعقولنا ، فثبت بطلان الحلول والاتحاد وبطلان البنوة، وتنزه الله تعالى عن أن ينسب إليه ولد ،

والولد صنو أبيه وكأنه هو حقيقة ورسما ، والمسيح ومن فوقه من الخلق من الرسل والملائكة الكرام من العالم والغيب وعالم الأمر كلهم عبيد مربوبون وعباد مقهورون ، وبعد أن أمرهم بالتوسط فى دينهم وترك الغلو بين لهم حقيقة المسيح بيانا شفا القلوب من المرض الباطن بعقيدة الكفر بقوله سبحانه.

"إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ"إلي آخر الآية . أي أن حقيقة المسيح هى أنه رسول الله ،والرسول هو عبد أوحى الله إليه بشرع ليعمل به ويبلغه أهل زمانه ، لأن الرسالة لم تخرج من حملة الله بها عن العبدية ولكنها تمكنه فى مقامات العبودية حتى يكون أخوف مخلوق من الله، وأذل عبد لله لكمال معرفته بالله تعالى ، ولا يظن إنسان عاقل أن عبدا أجرى فى مجرى البول مرتين وعاش شهورا منغمسا فى قاذورات الرحم ، وخرج من الرحم وتربي طفلا يبول ويتغوط على نفسه ويبكى ويمرض من الحجج الدالة على ضعفه واضطراره وذله وفقره مما يثبت عبوديته ، ثم يظن أنه ابن الله أو حل الله فيه تنزه وتعالى أو اتحد به تقدست أسماؤه وأن إنسانا يعتقد تلك العقيدة هو أضل من البهائم السائمة.

وقوله تعالى : **"وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ"** تقدم الكلام على كلمته والمعنى أن المسيح خلقه الله تعالى بكلمة كن من مريم كما خلق آدم من الطين ، ولا عجب فى هذا فإنه القادر والذي يخلق الشيء من لا شئ كما خلق الكون من عدم ن ويخلق الشيء من الشيء الذي ليس من نوعه ولا جنسه كما خلق الإنسان من تراب ، فإنه سبحانه قادر لأن يخلق الشيء من شئ من نوعه كما خلق عيسى من مريم ، فإن آدم أبوه وأمه الطين ، وحواء أبوها وأمها آدم ، والمسيح وأمه مريم وجبريل هو الذى حمل الكلمة إلى مريم ، أو حمل النفخة إلى مريم.

قوله تعالى : **"وَرُوحٌ مِنْهُ"** لما كان العرب يسمون الإنسان الطاهر المتجمل بالأخلاق الفاضلة روحا ، سمى الله المسيح روحا لطهارته ، ولك أن تؤول روحانيته بالرحمة . قال تعالى : **"أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا"** أى رحمة منا ، أو أن المعنى نفخة من الله ، لأن الروح مأخوذ من الريح ، وجبريل روح فتكون نفخته روحا لأنها من الروح ومن الريح أيضا.

ولك أن تقول روحا لأنه لم يتكون من مادة ، فلم تكن فيه بواعث النفس والشهوة بطهارته من تلك المقتضيات سماه الله روحا ، أى لا تقهره بواعث الغضب ولا الشهوة فهو روح ، وإنما سميت الروح لأن الله عصمها من النزوع إلى ما تدعو إليه النفوس الإنسانية ولا يلزم من قوله تعالى "روح منه" أن المسيح حل فيه شئ من الله تعالى ، وتنزه الله ذو الجلال والإكرام عن أن تكون الأشياء ظرفا له ، أو يكون ظرفا لشئ من خلقه ، وما فى المسيح إلا ما تفضل الله به عليه من العناية به حيث خلق مجردا مما تقتضيه شهوة الإنسان حتى فطر على عدم مباشرة النساء وعدم الميل للدنيا بخلاف من ولدوا من ذكر وأنثى فطبعوا على الحرص على جمع الدنيا والتمتع بزخارفها، كما أمرهم الله بالجهاد فى سبيله فقاموا يجاهدون أولا وبالذات قوى أنفسهم التى لا يقهرها إلا نبي مرسل أو صديق أكبر أمده الله بروح منه فقهر قواه النزاعة إلى الشر فصار بصفاته روحا وله أجر لم يكن للمسيح عليه السلام ، لأن المسيح لم يجاهد عدوا فى ذاته لأنه كان روحا مفطورا على ما يحبه الله ، بل كان جهاده فى الدعوى كما جاهد الرسل عليهم الصلاة والسلام من قبله ومن بعده.

فقوله تعالى **"وَرُوحٌ مِنْهُ"** تفضل على عيسى عليه السلام خاص لم يبلغه الرسل جميعا إلا بفادح الجهاد ، وشتان بين من ظفر بكنز ثمين بغير جهد وبين من جاهد نفسه ، جهادا شديدا حتى فاز به.

فالمسيح عليه السلام أعترف بهذا الفضل يوم ولادته لأنه يقول " **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ . . . الخ**"[1] أي جعلني روحا طاهرة لا تنازع بين قوى نفس فله الحمد على نعمه ، بخلاف غيره من الرسل فإنهم جاهدوا أولا وبالذات نفوسهم فى ذات الله ، وثانيا أعداء الله ، والمسيح لم يجاهد إلا فى سبيل الدعوة ، والله تعالى فضل المجاهدين على القاعدين.

فقوله تعالى "**وَرُوحٌ مِنْهُ**" إعلام من الله لعباده المؤمنين أن المسيح خلق كما خلق آدم بكلمة منه ، وأنه خلقه روحا طاهرة لم يحتج إلى جهاد فى قهر النفوس النزاعة إلى الشر بحسب المقامات ، قوله تعالى "روح" يعنى أن الله جعل الحمل به ووضعه فتنة وإبتلاء ، ثم جعل قوله وفعله مما يحير العقول ليقيم الحجة على اليهود أنهم خالفوا ما أنزل الله على الرسل ، فكان الحمل به ووضعه وسيرته مما لا تتحمله العقول الإنسانية لأن معاصريه فتنوا به، فمنهم من قال ابن زنا ومنهم من قال ساحر ومنهم من قال ابن الله ، فهلك النوعان فيه ، وقامت الحجة فيه أن خاتم الأنبياء رحمة للعالمين كما قال تعالى "**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**".

وكان المسيح فى حمله وولادته ودعوته نذير نقمة من الله لليهود ، فإن الله انتقم منهم بسببه وسلط عليهم الرومان فاهلكوا أكثرهم ومزق بقيتهم كل ممزق ، ولا تزال النقم من الله تعالى محيطة بهم ، بل ولا يزالون كما جبلت عليه نفوسهم الإبليسية على ما جبلت عليه نفوس أسلافهم الإبليسية من الكيد لله ورسوله ولأولياء المؤمنين ، فإنهم أخزاهم الله ما احتلوا أرضا إلا أفسدوا الحرث والنسل وأضروا الخلق ، فطردوا كما طردتهم روسيا من بلادها والإنجليز من عدن فى هذا العصر ، وقد جعلهم الإنجليز آلة شر وأنزلوهم فى فلسطين ليهلكهم العرب عن أخرهم فيستريحوا ، ويشغلوا العرب عن الإنجليز وليكون للإنجليز وجه فى احتلال فلسطين فلعن الله اليهود حيث كانوا.

وهنا نتكلم مع النصارى أن الله سبحانه وتعالى يرفع درجة المسيح فوق عامة الخلق حتى جعله رسولا كريما قريبا منه تعالى بعد أن رماه اليهود بأنه ابن زنا وأنه ابن رجل روماني ، فأخزي الله اليهود وطهر عيسى مما وصموه به بقوله تعالى "**إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ**" ثم شرفه وخصه بخصوصية بأنه كلمة الله كآدم وكحواء وكغيرهما مما خلقه الله بكلمة ابتداء أو بكلمة من نوع غير نوع حقيقته او بكلمة من نوعيه ، غير أنه من غير الأوسط التى وضعها الخالق مثله كالإنسان الذى فى العادة يولد من أنثى وذكر فخلقه من إنثى بغير ذكر ، وكلمته سبحانه فى عيسى مقبولة للعقل الذى يقبل بعد مشاهدة الحس فى أشياء كثيرة توجد من أنثى ومن غر ذكر كالنباتات التى توجد فى الصحارى والقفار وعلى شواطئ الأنهار ، وكالحيوانات التى تتولد من الطين والعفونات كالجرذان والضفادع وغيرهما ، ويقبل العقل أن المرأة تكمل عناصرها ويستوى شبابها فتتولد من مائها العلقة داخل الرحم فتحمل بقدرة الله تعالى وهذا الكلام م قول الطبعين وأنا لا أعتقده بل ولا يعتقده أي مسلم ، ولكنى في ميدان الجهاد أطعن عدوا رمى نبيا كريما بأنه ابن زنا ، وعدوا آخر سب ربه وقال اتخذ الله ولدا ، فإذا كانت العقول تقبل هذا ، كيف تعجز عن أن تقبل أن الله تعالى خلق إنسانا من إنسانة كما خلق إنسانا من طين وخلق إنسانه من إنسان مما هو حق يقين عند اليهود والنصارى ثم يوالون اليهود فيقولون المسيح ابن زنا ، ويوالون النصارى فيقولون المسيح ابن الله ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشدا . . بينت لك معنى قوله تعالى "إنما المسيح . . " ألخ . ولولا

([1]) سورة مريم : 30 – 31.

خوف الإطالة لشرحت الحقيقة على ما هى عليه وقد بينتها فى كتاب "وسائل إظهار الحق" فراجعه أن أردت المزيد.

قوله تعالى : **"فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ"** هذا الأمر الشريف يريد به سبحانه النصارى ،وتأويل الآية فصدقوا بوحدانية الله ذاتا وأسماءا وصفاتا وأفعالا ، ونزهوه سبحانه وتعالى فى كل ذلك مما هو من صفات البشر كاتخاذ شريك له سبحانه أو ولد أو صاحبة أو معين أو وكيل أو ضد أو ند ، وصدقوا برسله الذين هم عباد مربوبون وعباد مقهورون أصطفاهم لنفسه تعالى فجعلهم رسلا عنه سبحانه يبلغون محابة ومراضية للبشر لا يتنزهون عن الأعراض البشرية ، والمسيح عليه السلام واحد منهم خاصة الله بمعجزات فى حملة ووضعه وأقواله وأعماله وأحواله لتكون حجة على صدق دعواه أنه عبد الله ورسوله.

وبقدر ما وهب له من العناية فى حمله ووضعه وفى ما أظهر من غرائب الحكم وعجائب الأفعال والأخبار بقدر ما ابتلاه به سبحانه وتعالى من البلايا التى يحكم العقل عليها من أول وهلة أنها لا تقوم إلا بعبد ذليل لا حول له ولا قوة إلا بالله ، بل يستحيل على عقول البهائم السائمة بعد أن ترى ما وقع به من الشدائد والمصائب التى تثبت ذله وهو أنه إلا أن تحكم أنه عبد لله تعالى مهما أظهر سبحانه على يديه من المعجزات ، وأنا لنعجب من قوم حصلوا بعقولهم علوما أمكنهم بها أن ينوعوا أنواع المعادن والنباتات فيدخلونها فى صناعات شتي وفنون مختلفة حتى طاروا فى الجو وغاصوا فى البحار وفتحوا الكنوز التى خزنها الله لنا فيما خلقه لنا فى الأرض والأجزاء والأرجاء ويفقدون العقل الذى يعقل عن الله دلائله التى أقامها بحالها وخواصها دليل على تفرده جل جلاله بالألوهية ، وعلى أنه تنزه وتعالى عن الولد والوالد والصاحبة ، ثم يتخذون له ولدا أثبتت الأخبار بالتواتر أنه ناله من الخزى والذل والهوان مما لا يناله إلا أذل العبيد وأحقرهم ، وبعد ذلك يعتقدون أنه ابن الله تعالى.

ويدعون أهل الإيمان بالله تعالى ورسله عليهم السلام إلى اعتناق عقدية فاسدة فى أن عبدا جلله الذل والخزى ابن الله تعالى ، هنا يقف العقل السليم من الهوى حائرا فى شأن قوم فى صورة الأناسي وهم أحط فى الحقيقة من البهائم السائمة ، لأن البهيمة لا ترضي أن تلقي بنفسها فى هاوية أمامها إلا بعد أن تدفع بالقوة القاسية ، وهؤلاء الأناسي يلقون بأنفسهم فى هوة سحيقة عميقة باشة وجوههم هاشة قلوبهم ، اللهم أن الهدى هداك فاحفظنا من المسخ الذى يجعل الصورة صورة إنسان والحقيقة حقيقة خنزير بل أضل.

قوله تعالى : **"لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا"**(172).

نكف لغة "نكف الدمع عن خده" وقد توسعوا فصار معني نكف "أساء غيره" واستنكف دفع الإساءة ، وسبب نزول هذه الآية أن وفد نجران وفدوا على رسول الله فقالوا يا محمد "إنك بغيت صاحبنا"[1] ، قال "من هو صاحبكم" قالوا "المسيح" قال وأي شئ قلته" قالوا "تقول أنه عبد الله" فقالε "أنه ليس بعار أن يكون عبدا لله" وأنزل الله تعالى "لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون" ومعنى الاية أن المسيح لم يأنف ولم يمتنع ولم يتكبر عن أن يكون عبدا لله ، لأن المسيح لم يمتاز عن بقية الرسل لشئ سوى أنه ولد من غير أب ، وقد قصمت الحجة ظهور النصارى الذين يعتقدون أن أول إنسان هو آدم – بصريح كتبهم – وآدم خلق من التراب من غير أب

([1]) بفتح الباء وتشديد القاف وسكون الياء يكون المعنى أكثرت القول السئ.

ولا أم ، فوجود إنسان من إنسانة أهون من وجود إنسان من تراب ، وإذا كان عيسى لأنه ولد من أنثى بدون ذكر يجعلهم يعتقدون أنه ابن الله فكيف يقولون عن الملائكة الذى لا أب لهم ولا أم ، وإذا كان عيس أظهر من المعجزات ما يعجز عنه البشر ولا يوجده ويحدثه إلا الله تعالى ، فأن الملائكة الذين لا أب لهم ولا أم يحدث منهم أحداث فوق ما أحدثه عيسى . وهم لا يتكبرون عن أن يكونوا عبيدا لله . بدليل قوله تعالى "ولا الملائكة المقربون" . أي ولا يستنكف أى واحد من الملائكة المقربين عن أن يكون عبدا لله.

وجائز أن نقول لا يستنكف أحد من الملائكة ولا المقربين وذكر لهم الملائكة المقربين هنا ليقيم الحجة على النصارى أنهم لا عقول لهم ، وأن عقيدة التثليث قديمة جدا تكاد تكون من عصر أبن آدم الذى بني بيتا لعبادة النار بعد قتله أخيه هابيل ، وقد وجدت آثار قديمة جدا فى بلاد الهند تدل على التثليث ، وتلك الآثار وهى جسم له ثلاث رءوس يسمى الثالوث المقدس ، وفى التاريخ القديم جدا لأقباط مصر أن الآلهة أوزيس وأزيريس "يعنى الإله" "أمون رع" خلقوا الخلق وعلموا الناس غراسة الأرض ، وتلك الآثار من خمسة آلاف سنة تقريبا ، ويجعلون "الشمس . والماء . والأرض" كناية عنها ويظهر أن من هاجروا من الحوارين بعد رفع المسيح تفرقوا فى الأمم ، فمرقص دخل مصر عند الأقباط ونش ربينهم تعاليم المسيح فمزجوا هذه بعقائدهم الوثنية ، ودخل غيره بلاد الرومان لأنهم كانوا مستعبدون لبلاد سوريا ولهم معرفة خاصة ببعضهم فنشروا تعاليم المسيح وكانوا يرون منه فى بلاد الشام خوارق العادات فخلطوها بعقائدهم الوثنية ، كما نري الآن ما عليه أقباط مصر مع البطريق ، وما عليه الرومان مع الباب فى إيطاليا وغيرها ، واعتقادي أن من فروا من أتباع المسيح بعد رفعه لم ينشروا بين الناس إلا ما كانوا مؤمنين به من أن المسيح عبد الله ورسوله ، ولكن الأمم الوثنية أفسدوا عقائد الدين وتعاليمه بما كانوا عليه من المجوسية والجاهلية العمياء الصماء.

وأنا لنرى بين ظهرانينا بعض العلماء يمنحهم الله العلم والحال والاستقامة وينفع الله بهم ، فيقوموا فى عصرهم شياطين الأنس يحرفون كلامهم للعامة فيفسدون عليهم عقائدهم وآدابهم الشرعية ، كان الله جل جلاله جعل الدين الإسلامي متمما لكل الأديان السابقة فجمع فيه سبحانه ما به كمال الإنسان عبادة وأخلاقا ومعاملة ، وجعل فيه كمال الروح من الوجهة العلمية مبديا فى ذلك من مقام الإيمان من حيث التصديق بما جاءنا به رسول اللهε . ما تقوى على إدراكه عقولنا وما لا تقوى – بعد إقامة الحجة بالمعجزات الباهرات ، وكمال مقام الإيمان شعور القلب بالمراقبة بعد كمال الإيمان بمعية الله تعالى بقوله "وهو معكم أينما كنتم" ، ثم تقوى المراقبة حتى يرفعه الله إلى مقام الإحسان وهو طمأنينة القلب بذكر الله فيعبد الله كأنه يراه ، ويقوى حال السالك فى هذا المقام حتى يبلغ كماله فتكون الآيات ومعانى الصفات أقرب إليه من الكون ، وتتبادله صولات الجذبات الإلهية فتقوي حيرته ، وفى هذا المقام يتكلم من أكرمه الله به بكلام الروح لأهلها من الروحانيين ، فإذا سمع كلامه من لم يزكوا نفوسهم بالجهاد وبتحصيل علم التشبيه والتنزية جعلوا ما تخاطب به الأرواح من الإشارات خطابا للأشباح لجهلهم ، فتركوا الأدب الشرعى وأخلدوا إلى الأرض ، وليس الذنب على السالك لأن صولة الجذبة الإلهية تجعله لا يرى أمامه إلا آيات الله فى الكائنات قال الله : "سنريهم آياتنا فى الأفاق وفى أنفسهم" ومن سمع كلام هذا الرجل ولم يقف عند أدبه أهلك نفسه ، لأن الطفل إنما يتغذى بلبان أمه فإذا قوى إنما يتغذى بشئ من السوائل . فإذا أكل ما يأكل الكبير السن وهو فى الطفولة هلك ،ومن أطعم الطفل غذاء الصبي المناهز أهلكه وعليه ديته ، والعاقل لا يلبس الطفل ثوب البالغ ، وذد رأيت فى نفسي ذلك ،وكم من رجال حرفت عباراتهم فأفسدت آخرين ، ومنهم من

يشترى بآيات الله ثمنا قليلا ، فالنصارى الذين يقولون أن المسيح ابن الله لم تقم لديهم حجة ولا إشارة من علم ، ولكنه مذهب توارثه الناس من القرون القديمة جدا وروجه أهل الإطماع بما أدخلوه فى عقول الناس من أن المسيح خلق طيرا وأحيا ميتا وأبرأ مرض وأخبر الناس بما فى بيوتهم.

وقوله تعالى : **"وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ"** لا يفيد تفضيل الملائكة على الرسل الكرام بل ولا على أهل الإيمان الكامل ، لأن المراد هنا إقامة الحجة على بطلان أن الإنسان المولود من إنسانة من غير أب يكون أبوه الله تنزه وتعالى عن ذلك ، وإذا كان من ولد من أم من غير أب يكون أبوه الله تعالى فتكون الملائكة الذى لا أب لهم ولا أم أولي بتلك البنوة من عيسى ، فإن الآية جاءت لبطلان زعم النصارى.

ولك أن تقول أنهم قالوا أن المسيح ابن الله لأنه أحيا المعاذر بعد موته ، وأبرأ من المرض كثيرين من بنى إسرائيل ، وخلق من الطين طيرا وأخبر بالمستغيبات وبذلك حكموا بأنه ابن الله تعالى وهذا باطل أيضا ، لأن النصارى يعتقدون بأن جبريل عليه السلام رفع مدائن قوم لوط بريشة من جناحه ، وأن موسى عليه السلام فلق البحر الأحمر بعصاه حتى صار يبسا ، وأن عذيرا مات مائة سنة وأحياه الله ، وأن أصحاب الكهف ناموا ثلاثمائة سنة وتسعا وأحياهم الله ، ويعتقدون أن سليمان صرفه الله فى الجن والإنس والطير والوحوش.

وليست هذه الآية الشريفة دالة على تفضيل الملائكة . لأن المؤمن يوم القيامة تخدمه الملائكة فى الجنة ، وقد خدمت المؤمنين فى الدنيا في يوم بدر ،وإذا تقرر هذا كان المؤمن الكامل أقرب عند الله من الملك المقرب وذلك لأن الملائكة فطرهم الله على الخير ، فهم أجسام نورانية بريئة من المادة ولوازمها ، والإنسان مكون من العناصر الكونية ، مكلف بمجاهدة نفسه فى ذات الله ، وشتان بين المنظور والمكلف قال الله تعالى : "فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة" وقال تعالى : "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا" فقول المعتزلة الملائكة أفضل من الرسل لا دليل لهم على ذلك.

قوله تعالى : **"وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا"** أي ومن يأنف أو يمتنع لجهله بنفسه أو لغروره بما آتاه الله من نعمته فسيذلهم ويقهرهم بالموت ثم يحييهم بعد ذلك ويحشرهم إليه جل جلاله عبيدا أذلاء مقهورين ويلقى بهم جميعا فى جهنم وبئس المهاد.

قوله تعالى : **"فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا"**(173).

أما الذين آمنوا انعقدت قلوبهم على التصديق بما جاء به محمدε ، وعملوا الصالحات ، أي سارعوا إلي القيام بعمل ما أمرهم الله به وترك ما نهاهم عنه **"فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ"** أي يعطيهم ما وعدهم به سبحانه عطاءا وافيا "الحسنة بعشر أمثالها إلى ألفين" وأكثر كما قال تعالى : **"مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ"**.

قوله تعالى : **"وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ"** والزيادة هنا تبتدئ من مقعد صدق عند مليك مقتدر إلى الجلوس على منابر من نور قدام عرش الرحمن حتى ينتهى إلى الرضوان الأكبر ، فالنظر إلي وجه الله تعالى ، وتلك الزيادة وما فوق ذلك فوق الإشارة فكيف تفى به العبارة.

قوله تعالى : **"وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا"** وأما الذين استنكفوا أي امتنعوا واستكبروا عن عبادة الله تعالى أي عظمت

عليهم أنفسهم أن يكونوا عبيدا لله "فيعذبهم" أي يذيقهم آلام العذاب التى تجعلهم بشدة آلامها يتحققون بحقيقة العبودية لله تعالى ، حيث لا ينفعهم الإيمان ولم يبق إلا أنهم يطمعون فى شفيع أو ظهير ، أو نصير ، ولكنهم يعدمون الولى الذى يغيثهم وينجيهم مما أوقعهم فيه كفرهم بالله ورسوله ، والنصير الذى ينصرهم ويأخذ بيدهم من هول ما هم فيه . لأن الملك لله يوم القيامة لا شريك له . وكل من فى يوم القيامة عبيد لله مقهورون لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، بخلاف الدنيا فإن الإنسان الجاهل بنفسه يتوهم بأن الملك أو الوالي أو الغنى أو الأمير ينفعه أو يضره ن ولو عرف نفسه لعلم أن الله هو النافع فوحده سبحانه وأفرده بالألوهية جل جلاله ولم يقف عند الأسباب.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا"**(174).

والبرهان هنا هو محمدε ، لأنه جاءهم من عند الله مبينا لهمε سبل الله بالحجة كما تبين الشمس سبل الأرض فهوε حجة القلوب التى عمرها الله تعالى بسابقة الحسنى بل هوε السراج الذى أسرج الله به قلوب أهل الإيمان . فهو فوق الشمسε لأنه أسرج سرجا كثيرة ، والشمس يكون منها شموس.

وفى قوله تعالى (برهان) دليل على أن دينه دين الفطرة ، لأن العقل هش له وبش وسلم بما جاء بهε فلم يقهر العقل على التسليم بدون حجة واضحة ، فالقرآن المجيد دعوى وحجة ، لأن القرآن العظيم أعجز فطاحل الفصحاء حتى ثبت لديهم أنه كلام الله تعالى بخلاف ما جاء به الرسل قبلهε، فإنهم كانوا يقهرون العقول على التسليم لهم بما أيدهم الله به من فلق البحر أو إحياء الموتى أو غير ذلك مما ليس من الدعوى فى شئ ، وقد نسخ الله كل هذه الأديان ببعثة حبيبهε بإكمال دينه وإتمام نعمة علينا جميعا ، وجعلهε خاتم الأنبياء ورحمة لجميع العالمين ، وكان الرسل قبله إذا مات واحد منهم نسخ شرعه لأن الدعوى فى أديانهم غير الحجة ، ودليل ذلك ما نرى عليه أهل الأديان الأخرى من أهل الكتاب ، ومعنى يا أيها الناس سبق شرحه **"وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا"** والنور المبين هو القرآن المجيد ، لأن القرآن المجيد بين لأهل سابقة الحسنى العقيدة التى يجب أن يعقد عليها القلب ولا نجاة للمسلم إلا بتلقيها من القرآن ، ومن تلقي العقيدة من غير القرآن ولم يجعل القرآن حجته لا يقبل منه ما تعلمه من العقيدة إلا إذا غير ما تعلمه من العقيدة أن خالفته كما قال أبو هريرة رضي الله عنه "كنا نتعلم الإيمان قبل القرآن ثم نتعلم القرآن" ، فما وافق القرآن أثبتناه وما خالفه تركناه ، وأنتم الآن تتعلمون القرآن قبل الإيمان ، ثم تتعلمون الإيمان فتقبلون من القرآن ما وافق الإيمان الذى تعلمتموه ، وتردون منه ما خالفه ، فيكون ما تعلمتموه من الإيمان هو الحجة.

وهذا ما عليه المجتمع الإسلامي الآن فإنهم فى معاهد العلم يتعلمون القرآن صغارا ثم يقررون الإيمان الذى هو العقيدة بأدلة المنطق غير مبالين بما ورد فى القرآن ، وإذا عارض إيمانهم القرآن أولوا القرآن تأويلا بالهوى مع علمهم بقوله تعالى : "وما يعلم تأويله إلا الله" ، أم قوله تعالى : "والراسخون فى العلم" فهو مبتدأ والجملة من يقولون خبر ، وهما جملتان بينهما شبه كمال الانفصال ، والقرآن بين لنا العبادة الحقة التى يقبلها الله من العبد ولا يقبل عبادة لم تكن وردت فى القرآن ، فما يعمله أهل الطريق من الطقوس والرسوم التى ابتدعوها مع إهمالهم فرائض الله وشعب الإيمان ، فهو بدعة وضلالة دعا إليها ترغيب العامة لسلب ما فى أيديهم ميلا مع الحظ والهوى ، والهوى أخو العمي.

قوله تعالى : **"فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا"**(175).

بعد أن أفتتح الله تعالى الآية السابقة بقوله يا أيها الناس . نداء لجميع أهل الملل والنحل من يهود ونصارى ومجوس وغيرهم ن أفتتح هذه الآية بقوله **"فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ"** صدقوا بتوحيد الله وتفريده بالكمال والجمال والجلال وبما جاءهم به محمدε من عنده تعالى ، لا فرق بين أن يكون المؤمن بذلك من مشركى العرب أو من اليهود والنصارى أو من المجوس وغيرهم ، فإن الإسلام يجب ما قبله ، قوله تعالى **"وَاعْتَصَمُوا بِهِ"** أي اعتصموا بالقرآن عقيدة وعملا موجهين وجوههم إلى الله تعالى محافظين على تأدية ما أمرهم الله به تعالى وترك ما نهي عنه سبحانه.

قوله **"فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ"** الفاء رابطة لجواب الشرط وسيدخلهم يوم القيامة "فى رحمة منه" أى فى جنة عالية وفضل ونعيم مقيم . وفي قوله "منه" إشارة إلى أن هذه الرحمة فضل تفضل به سبحانه من حضرته العلية على من وصفهم بأنهم آمنوا به سبحانه وتعالى واعتصموا بكتابه ، وهذه الرحمة والفضل بإحسانه العلي لأجسامهم.

قوله **"وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ"** هذه الآية تشير إلى ما يتفضل به سبحانه وتعالى عليهم من خيرات الأرواح ونعيمها وبهجتها ومسراتها من مواجهات ومن رضوان أكبر ومن نظر إلى وجهه سبحانه كما قال تعالى : **"فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ"** وقال تعالى : **"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ"** وهكذا جمع الله تعالى فى قوله : **"فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ"** جميع ملاذ الجسم والحس والعقل وفى الهداية إليه جل جلاله ، بهجة ومسرات الأرواح ، وهذا النعيم المقيم قد يناله الولي فى الدنيا فى مقام الفناء عندما تضمحل وتتضاءل الطيبات البهيمية والبشرية والسبعية ويقوى سلطان الروح وينفذ السالك من أقطار السموات والأرض مسارعا إلى مغفرة من ربه وجنة عرضها السموات والأرض ، لأن السالك إذا مات موتة الإرادة فقد قامت قيامته ودخل جنة الشهود فى رياض حق اليقين وريحان الأنس بما يريه الله تعالى من أنوار آياته فى الآفاق وفى نفسه حتى يتبين له الحق ، فإذا أحياه الله بعد موته وأبقاه بعد فنائه أدخله جنة الرضوان عنه وأقامه فى محابه ومراضية وجعله من أهل الذكر الأكبر ، وجعل له نورا يمشي به فى الناس فيكون جسده على التراب يمشي بين الناس وقلبه معلق بالملأ الأعلى حتى يخفى عنه الكون فلا يرى حيث ولي وجهه إلا وجه الله تعالى.

قوله تعالى : **"يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"**(176).

سبق الكلام وبينا أن الكلالة هى من يكلون الإنسان فى نسبه غير والديه وأولاده ، فالذى يورث كلالة هو الميت الذى لا أب له ولا أم ولا أولاد ولكن يرثه أخوته وأخواته.

وسبب نزول هذه الآية أن جابر بن عبد الله مرض فزاره سول اللهε ومعه أبو بكر رضوان الله تعالى عليه ، فغشى على جابر رضى الله عنه فتوضأ رسول اللهε ورش وضوءه على وجهه فأفاق فقال يا رسول الله أنه ليس لى أولاد ويرثني أخوتي ، فهل أوصى فقالε أني لا أراك تموت فى هذا المرض يا جابر فأنزل الله تعالى قوله **"يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ"**.

ومعنى الآية الشريفة يسألونك عن الحكم فى الكلالة ، أى فى حكم من مات وليس له أولاد ، والاستفتاء سؤال المتعلم الذى يريد أن يعمل بالعلم.

قوله تعالى **"قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ"** أي أخبرهم يا محمد أن الله يجيبهم عن سؤالهم الذى استفتوك فيه "أن أمرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك" أن هنا شرطية وامرؤ فاعل لفعل محذوف نفسه ما بعده ، والتقدير أن هلك امرئ أي مات والحال أن له أخت باقية بعه فلها نصف ما ترك ، والفاء رابطة لجواب الشرط "فلها نصف ما ترك" أى ما تركه من المال وغيره بعد دفع الدين والوصية ، وهذه الآية فى الأخت لأم ، قوله تعالى "وهو يرثها أن لم يكن لها ولد" الله سبحانه بين حكمه فى الأخت التى ترث أخاها كلالة أنها إذا ماتت وليس لها ولد فإن أخاها يرثها كلالة وله كل مالها إذا كان أخاها لأمها.

قوله تعالى : **"فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ"** أي أن الميت إذا مات وترك أختين لأمه فحكمهما فى الميراث أن كل واحدة منهما تأخذ ثلث ما تركه الميت بشرط أن يكونا لأم.

قوله تعالى **"وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ"** بين الله تعالى فى هذه الآية حكم ما زاد على البنت والبنتين بأن كانوا أكثر من ذلك فإنهم يقتسمون ما فرضه الله للذكر جزآن وللمرأة جزء ، وقد بينت حكمة اختصاص الرجال بأن يكون للواحد منهم قدر ما للمرأة مرتين بما يغني عن إعادته مرة أخرى.

"يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" أى يعلمكم الله أحكام الميراث مبينا لكم ما يحبه سبحانه وتعالى وما به إصلاح حالكم فى صلة رحمكم وبر والديكم وبقاء عروة الإخاء الإسلامي وثيقة مع دوام الصفاء لأخذ كل واحد حقه المشروع له ومن يتفضل على أخيه فذلك مما يقرب إلى الله ويرفع قدر المتفضل ن ومن طمع فى أكل مال الميت وحرم منه مستحقيه استحق غضب الله تعالى وخصوصا إذا كان المستحق يتيما.

قوله تعالى **"يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا"** أي يوضح لكم المواريث بكل أنواعها بيانا جليا تنالون به الهداية إلى ربكم ودوام إصلاح حالكم ومستقبلكم. وقوله "أن تضلوا" أي لئلا تضلوا فيكون هذا البيان عاصما لأهل الإيمان بالله من الهلاك بمخالفة أمره سبحانه وتعالى "قوله والله بكل شئ عليم" أى عليم بكل شئ مما عليه أهل التقوى القائمين بتأدية فرائض الله وطاعته وما عليه أهل المعاصي والمنافقين والكفار ، وعليم أى ذو علم أحاط بخفي الأشياء وظاهرها وصغيرها وعظيمها.

سورة المائدة

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ"**(1).

معنى هذه الآية الشريفة :-

أن الله تعالى ينادى الذين صدقوه سبحانه فيما أنزله على حبيبهε ، وقبلوا ما جاءهم به صلوات الله وسلامه عليه بيقين كامل حتى صارت شعب الإيمان معقودة بقلوبهم كعقد الحبل مع الآخر . . لأن الله سبحانه سماها عقود ، والعقد هو ربط شئ ربطا وثيقا محكما ،وقد سماه الله عقدا مرة . . . وعهدا أخرى قال تعالى : **"وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ"** وتلك العقود جامعة لكل شعب الإيمان من التصديق بوحدانية الله تعالى وتنزيهه عن المثيل والنظير والولد والشريك ، تنزه وتعالى ، وبأنه جل جلاله سمى بتسعة وتسعين اسما أنفرد بها دون غيره ، وأن تلك الأسماء المقدسة أشرقت أنوارها على قلوب أهل الإيمان الكامل ، بما أظهره جل جلاله من عجائب قدرته وغرائب حكمته

المنبلجة أنوارها فى الآيات المكنونات وفى خواص حقائقها وفيما نراه فى أنفسنا وفى الآفاق ، فلكل مؤمن قسط من تلك الآيات والبراهين بحسب مقامه فى مراتب الإيمان.

فإن من المؤمنين من يسلم تسليما بالخبر إذا ورد عن رسول اللهε بطريق الصحة ، ومنهم من يفقه الخبر بقدر علمه ، ومنهم من يتذوق حلاوة الخبر بقدر يقينه ، ومنهم من يقوى هذا الوجدان عنده حتى كأنه يشهد أنوار الأسماء متجلية تحجب ما عداها من المظاهر التى يشهدها هذا المؤمن قال تعالى : "هم درجات عند الله".

أوفوا – أوفي – ووفى بمعنى واحد ، والمعنى سارعوا إلى القيام بعمل ما أمرتكم ، وترك ما نهيتكم عنه وهى التكاليف ، وإننا بتصديقنا رسول اللهε تعهدنا لله ولرسوله بالقيام بما عاهدنا عليه سبحانه – فالعقود هى التكاليف – وقال بعض العلماء أن العقود هى حلف الجاهلية على التناصر ودفع الضرر والتعاون على فعل الفضائل ، وتكون المعنى أوفوا بالعقود التى عاقدتم عليها غيركم قبل الإسلام ، ولكن ورد فى هذا الحديث أنه لا حلف في الإسلام ، ومعنى ذلك أن القرآن المجيد بين لنا ما بالعمل به يدوم الصفا والإصلاح حتى لا نحتاج إلى حلف بعد العمل بالقرآن بيننا وبين بعضنا وبيننا وبين الأمم الأخرى ، فإذا نحن حافظنا على العمل بالقرآن مكن الله لنا فى الأرض بالحق وأذل لنا جبابرة الأمم ومحا بنا تيجانها ، قال أبو هريرة رضى الله عنه "إنما يسعد آخر هذه الأمة بما سعد به أولها" وإنما سعد أولهما بالتمسك بالكتاب والسنة والأخذ بعزائمهما فى أعمالهم.

قوله تعالى "**أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ**" أن لأهل القلوب علم ذوقى خاص يفقهون به انسياق الآيات مع بعضها ، فإن الله تنزه وتعالى يضع غوامض الأسرار مستورة بين الأحكام حتى يحفظ أسراره من أن يتلقاها إلا أهلها ، وترى أكثر العلماء المشغولين بفهم الأحكام وبيانها لصالح الأمة إذا وجدوا جوهرة بين آيات الأحكام صرفوا كل قواهم الفكرية فى فقه آيات الأحكام كما فى هذه الآية – أن الله تعالى يكلف أهل محبته بالوفاء بعقوده التى عاقدهم عليها – مثل عهد ألست بربكم، ومن قبلها فى ميثاق الأنبياء ، ومن بعد ذلك مما عاهد الرسل عليهم السلام.

فأهل القلوب إذا قرءوا هذه الآية تفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم حتى يتمثلون تلك العقود من أولها إلى آخرها ، فيقوى اليقين حتى قد تقع العين على العين من غير بين ولامين ، أو يقوى الشوق إلى العلم بأسرار تلك العقود وحكمها.

وأما أهل العلم بظاهر الحياة الدنيا فإنهم إذا سمعوا "أحلت لكم بهيمة الأنعام" انشغلوا فى فهم بهيمة الأنعام وفى عدد أنواعها ليقصدهم العامة فى بيان أحكام الله تعالى حلالها وحرامها.

قوله "**أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ**" أى أحل الله لكم أكل لحوم بهيمة الأنعام بعد تذكيتها شرعا كما بين ذلك فى آخر الآية ، وسميت الأنعام إنعاما لنعومة قدمها على الأرض بخلاف الحيوانات التى لها حوافر كالخيل والبغال والحمير وما أشبهها ، والأنعام ثمانية أزواج . . . وهى الأبل والبقر والجواميس والغنم والمعز والطبي والبقر الوحش وكل حيوان ليست له أنياب يأكل بها اللحم والعظم ، والبهيم كل من لا عقل له . فكل نوع له عقل وشهوة فهو الإنسان ، وكل حيوان لا عقل له وله شهوة فهم البهيم ، والإضافة فى قوله بهيمة الأنعام للبيان حتى يخرج ما حرمه الله تعالى من أنواع الوحوش وغيرها وما هو نجس العين كالخنزير وفصيلته.

قوله تعالى : "**إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ**" فى آخر هذه الآية مما حرمه علينا جل جلاله ، وقد بين أنواعه حتى صار الحلال بينا والحرام بينا كما أخبرنا رسول اللهε.

قوله تعالى **"غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ"** وهذا الحكم تحريم لشأن فى وقت خاص لما أحله الله فى غيرهما وموضعه التقديم فيكون النظم "أحلت لكم بهيمة الأنعام غير محلي الصيد وأنتم حرم" تقدم على الآية قوله تعالى إلا ما يتلى عليكم لحكمة أن يتصل ما حرمه الله بما أحله اتصالا يميز كل نوع ، فحرم الله على المحرم صيد البر لا البحر لأنه تجرد من المحيط والمخيط ظاهرا ، وتجرد من صفات القهر والجبروت ، والقوة والجفوة ، باطنا ، لأنه خرج متجملا بأكمل معاني العبودية فى العبادة إتباعا لرسول اللهε ، وإيمانا بكلام الله تعالى ومعنى قوله تعالى "غير محلي الصيد وأنتم حرم" أي حرم عليكم حالة إحرامكم ما أحله لكم من أنواع الأنعام كالظبا والرأل "بقر الوحش" وغيرهما من التى لا تأكل اللحم.

ولنا فى غير أيام الإحرام أن نصطاد ما أحله الله لنا من أنواع الحيوانات كالطيور وغيرها ، وسنبين حكمة تحريم صيد البر للمحرم عند تفسير آية التحريم ، وللمحرم أن يأكل اللحوم كلها حتى لحوم الصيد إذا صادها غير المحرم ، إلا إذا صادها ليبيعها على المحرمين خاصة حال قدومهم على مكة ، فإن كان صادها لهم خاصة كانوا كأنهم اصطادوها بأنفسهم أما إذا اصطادها غير المحرم لنفسه فإنها حلال للمحرم.

قوله تعالى **"إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ"** لما بين الله تعالى أنه أحل الأنعام وأحل صيدها ، ثم حرم الصيد فى شأن خاص فربما يظن متوهم أن إحلال الشئ وتحريمه يقتضي حيرة العقل ، فقهر الله تلك الظنون بقوله تعالى "أن الله يحكم ما يريد" يعنى أن الملك ملكه وهو الذي أوجه الخالق من العدم فله عليهم سلطان الربوبية فى الإحلال والتحريم من غير عالة ولا سبب وعليهم السمع والطاعة بمقتضى العبودية التى يجب أن تكون مسلمة تسليما كاملا لأحكام الربوبية , وأن قال بعضهم أن حكمة الأحكام رعاية مصالح الخلق من غير حجة تقوم على ذلك ، قال الله تعالى "وهو القاهر فوق عباده" فالعبد عبد وأن صرفه الله فى ملكه وملكوته ومقهور لخالقه ولو جعله فوق العرش ، والرب تبارك وتعالى هو العلي العظيم وأن تنزل فقرب طينة سافلة ورفعها حتى جعلها صورة له سبحانه وأسجد لها ملائكته وإقامها خليفة عنه ، وسخر لها ما فى السموات وما فى الأرض فإنما هو مقتدر ذو إرادة وفضل وإحسان ، والطينة لا تستحق شيئا من ذلك إلا بإرادة الله ومشيئته قال تعالى "أن الحكم إلا الله" وقال تعالى "لا معقب لحكمه" وهو سبحانه وتعالى الذى قدر كل شئ وأبرزه فى زمانه ومكانه على الصورة التى شاءها فى سابق علمه.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"**(2).

لما أن أحل الله لنا بهيمة الأنعام وأحل لنا الصيد إلا فى مكان مخصوص ووقت مخصوص وهو وقت الإحرام ومكان الحرم نهانا عما يكره سبحانه وقوعه منا فقال تعالى **"لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ"** ينهانا سبحانه عن ان نحل ما حرمه علينا وهو شعائر الله تعالى ، والشعائر جمع شعيرة والشعيرة مأخوذة من الشعور ، والشعائر هى فرائض الله التى كلفنا بها وما سنة ورغبنا فيه رسول اللهε ، فإحلال شعائر الله هى ترك العمل بفرائضه والوقوع فما نهى عنه مفصلا ذلك كله فى كتابه العزيز وفى بيان نبيهε فى القول والعمل والحال.

ويدخل فى هذه الآية كل ما أمرنا به وما نهانا عنه ، ويكون على هذا التأويل ذكر الشهر الحرام والهدى والقلائد وأمين البيت من قبيل ذكر الخاص بعد العام كقوله تعالى "حافظوا على الصلوات الوسطى" ، وتأويل هذه الآية أن مشركي العرب كانوا يحجون البيت الحرام ومعهم الهدى والقلائد وما كان من شعائر الحج ، وكان بعض الصحابة يحب أن يعزوهم فى هذا الحال وذلك قبل نزول آية براءة ، فأنزل الله تعالى **"لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ"** أي لا تقروا الحجاج من المشركين ، وعظموا الشهر الحرام والهدي والقلائد وأمين البيت الحرام ،وهذا التأويل يمنعه قوله تعالى : **"شَعَائِرَ اللَّهِ"** فإن ما كان يعمله أهل الجهالة مما يوافق ما كان عليه الخليل عليه السلام ليس بشعائر الله، ولكنها أو أبد الجاهلية ممزوجة بما كان عليه الخليل من الطواف بالكعبة ومن الوقوف ومن الإفاضة ، وما عدا ذلك فليس مما كان عليه الخليل فى شئ وقوله تعالى : **"شَعَائِرَ اللَّهِ"** يدل على أن تلك الشعائر هى ما فرضها الله تعالى وأضافها إلى نفسه.

قوله تعالى : **"وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ"** أي لا تحلوا ما حرمه الله عليكم فى الشهر الحرام إذا كنتم حجاجا او عمارا ، ويراد بالشهر الحرام رجب وذى القعدة ، فشهر رجب كان معظما فى الجاهلية وكانوا يسمونه الأصم لأنهم كانوا لا يسمعون فيه قعقة السلاح ، فكان العربي يرى قاتل أبيه وأبنه فينسي ثأره تعظيما للشهر.

ويجوز أن يكون هذا النهى متضمنا معنى احترام المسلمين للحجاج والعمار من أهل الجاهلية فى شهر رجب ، ويمنع فهم التأويل الثاني عطف الشهر الحرام وما بعده على الشعائر لأن المعطوف غير المعطوف عليه أو بعضه، وعلى ذلك فتكون شعائر الله عامة ، ولا تكون الشعائر المضافة إلى الله عامة إلا إذا شملت ما أمر به ونهي عنه أمرا ونهيا ، فيكون التأويل الأول أقرب إلى فهم الآية.

"وَلَا الْهَدْيَ" هى الذبائح التى يقدمها الحاج والمعتمر ليذبحها فى محالها أو ينحرها ، والهدى مأخوذ من الهدية وكلمة هدي جمع واحدة هدية بالتخفيف والتشديد.

"وَلَا الْقَلَائِدَ" والقلائد هو الهدي الذى توضع فى عنقه قلادة ، فإذا قلده المحرم سمى قلائد ، وكانوا فى الجاهلية يقلدون الهدي بلحي شجر من أشجار الحرم:

"وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ" أي قاصدين البيت الحرام للحج أو العمرة لا فرق بين المسلم والمشرك قبل نزول آية براءة ، ويكون هذا النهى خاصا بالمسلمين بعد نزول الآية ، لأن آية براءة حرمت على المسلمين أن يمكنوا المشركين من دخول المسجد الحرام.

وقد بينت لك ما تأوله العلماء فى هذه الآية من أن النهى خاص بالمسلمين غير المشركين ، ويكون المعنى عند من تأويل هذا التأويل لا تحلوا شعائر الله وإلا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا أمين البيت الحرام من غير أهل الإسلام ، وقد بينت لك وجه تأويلها الأول ووجوه الحجة فيه ، والله أعلم بمراده.

قوله تعالى : **"يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا"** هذه الآية الشريفة يدل ظاهرها أن المنهي عنه من شعائر الله هى أحكامه وتكاليفه ومن الهدي والقلائد ، وأمين البيت أى الهدى والقلائد التى يقدمها أهل الإيمان وأمين البيت الحرام من أهل الإيمان ، لأن الذين يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا هم المؤمنون ، وأن تأولها كثير من العلماء أن الفضل هو الربح فى التجارة التى كان يقوم بها المشركون ، وأن ابتغائهم الرضوان حسب عقيدتهم بأنهم على حق وأن عملهم يرضى الله . ولكن ظاهر القرآن فى هذه الآية يجعل القارئ الممنوح الفهم يدرك أن الخطاب لأهل الإيمان فى النهى والمنهي عنه.

قوله تعالى : **"وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا"** بعد أن بين لنا ما حرمه علينا من الصيد ، وضح ما أحله لنا بعد الإحلال فقال تعالى "وإذا حللتم" أى أديتم المناسك فى أمكنتها وأوقاتها كاملة وأحل الله لكم لبس المحيط والمخيط وفعل ما كان محرما عليكم فاصطادوا ، فإن الحكم لله تعالى لا يسأل عما يفعل من تحليل وتحريم أو إباحة أو حظر . .

قوله تعالى : **"وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا"** لا يكسبنكم سوء فعل قوم ضغينة الانتقام منهم . ولا يحملنكم بغضهم لكم على العدوان عليهم ، ينهانا الله تعالى عن أن تحمل قلوبنا ضغينة من شنأن قوم بصدهم لنا عن المسجد الحرام فى واقعة الحديبة حين صدوا رسول اللهε وأصحابه عن دخول مكة – وجائز أن يكون هذا الصد يوم فتح مكة – وقد رويت الآية بفتح همزه "أن" وكسرها وهما روايتان صحيحتان ، وتأويل الآية على قراءة الكسر ولا يجرمنكم شنأن أى لا يحملنكم بغض قوم لكم أن صدوكم عن المسجد الحرام – أى منعوكم عن دخول المسجد – أن تتجاوزوا حدود الله التى حدها لكم ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله من قوله تعالى "لا يجرمنكم".

وقوله تعالى : **"وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى"** ومعنى هذه الآية أن الله يأمرنا أن يعين بعضنا بعضا على فعل الخير وعلى التقوى – أي ترك ما يغضب الحق ويضر الخلق – فإن فى ذلك حصول الألفة ، وتقوية رابطة المودة ومحو الضغائن من القلوب حتى تزول منها العلل المانعة لها عن قبول الخير ، فأن القلوب إذا صفت من العلل والأغراض قبلت الحق وعلمت به . والتعاون على البر والتقوى خير علاج لأمراض القلوب.

قوله تعالى **"وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ"** الإثم هو ما حلك في صدرك من سوء الظن ومن العزم على عمل المعاصي "والعدوان" هو تعدي حدود ما أنزل الله تعالى بفعل ما يكرهه الله ويؤذى الخلق والتعاون على الإثم والعدوان برهان على خبث نفوس المتعاونين عليهما ونزوعها إلى الباطل بعد بيان الحق جليا ، فالإثم ترك ما أمر الله تعالى به وعمل ما نهي الله عنه.

وقوله تعالى **"وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"** يتوعد الله تعالى أعدائه الذين تعاونوا على الإثم والعدوان وخالفوا أوامره . ويحذرهم من الوقوع فى معاصي الله تعالى ومخالفة أمره ، لأنه سبحانه شديد العقاب أى يعاقب من كفر به بالخلود فى نار جهنم حيث لا شفيع ولا نصير مع البقاء الأبدي فى الدرك الأسفل من النار "أعاذنا الله تعالى بوجهه العلي".

قوله تعالى : **"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"**(3).

معنى هذه الآية : أن الله سبحانه وتعالى بعد أن قال : **"أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ"** ، فى هذه الآية تلا علينا سبحانه وتعالى ما حرمه علينا ن يقال "حرم الشئ" أمتنع وحرم الشئ بالتشديد منعه . أى حرم الله على أهل الإسلام أكل الميتة.

وحكمة تحريم الميتة التى ابتدأ الله ذكر المحرمات بها أن الموت قد يسبقه مرض يجعل اللحم رديئا خصوصا إذا حبس الدم فى الشرايين والأوردة أو تمزقت الشرايين فاختلط الدم باللحم ، والدم

سريع التعفن فيفسد اللحم ، وجائز أن يكون مرض البهيمة خبيث ، وقد حرم الله الدم فى الكتاب العزيز وقال فى التوراة " يا موسى لا تأكل الدم".

وقوله تعالى "والدم" حرم الله الدم . فمنع أهل الإسلام من أكله لحكم كثيرة منها أنه مصدر الطاقة وإذا أخذ من الجسم أضعفه ، وهو يفسد بملامسة الهواء فيصير كله حيوانات سامة ، ولم يحل من الدم إلا الكبد والطحال.

قوله تعالى **"وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ"** فيه أن الله تعالى ما حرم شيئا إلا وحكم بنجاسته ذاتا ، والخنزير حيوان معروف لم تظهر حكمة تحريمه للفقهاء إلا أنه حيوان قذر فى أكله وشربه وحياته ، لا يتغذى إلا بالنجاسات ، ولله تعالى حكم عالية فيما حرم وأحل ، فقد انكشفت حكمة تحريم الخنزير بعد أن ظهر فى لحمة ديدان صغيرة جدا لا ترى بالعين المجردة ، وتعيش هذه الديدان فى أعلى درجات الحرارة دون أن تموت فتضر الإنسان إذا أكل لحم الخنزير وتسمم جسم من يأكل منها فيعيش فى ألم لا يبرأ منه طوال حياته ، ولهذا حرمه أرحم الراحمين بعباده.

وقد ظهرت تلك الديدان فى لحم الخنزير بتحليله لتنكشف حكمة هذا الحكم الذى أنزله الله تعالى منذ ألف وثلاثمائة وخمسين سنة [1] حيث كان المؤمنون يسمعون القرآن من رسول اللهε ويسلمون له تسليما.

وقد ثبتت المعجزة بأن القرآن كلام الله العليم بحقائق الأشياء ، والذى يجب علينا أن نسلم له أمره ونهيه ما علمنا حكمه وما لمن نكن نعلم ونؤمن بخبره وعدا ووعيدا ، وخبره تعالى عن الأزل والأبد فى معنى يجعلنا نقبل خبره عن الجنة والنار وما به يفوز العبد بالنعيم المقيم أو يشقى فى العذاب الأليم.

قوله **"وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ"** الإهلال هو رفع الصوت ، ومعني هذه الآية أن كل ذبيحة رفع الذابح صوته عند ذبحها بغير اسم الله تعالى – كما أن يذبح باسم الأصنام أو الأنداد – فإنها محرمة شرعا ، وحكمة تحريمها أن الأكل منها راض بالكفر وبالأعمال الخاصة بأهله وهذا الذبح منكر ، والواجب على كل مسلم أن يدفع المنكر حت يقيم الحجة أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إيمانا بالله تعالى وعملا بما أنزله سبحانه ، ولو خير المضطر لأن يختار من أى ذبيحة من الذبائح المحرمة يأكل لاختار غير ما أهل به لغير الله بغضا فى الكفر وفى عمل أهله.

قوله تعالى **"وَالْمُنْخَنِقَةُ"** المنخنقة هى أن أهل الجاهلية كانوا يخنقون الشاة ويأكلونها فحرمها الله تعالى ، وحرم كل حيوان ضغط عنقه حتى مات كما يضع الطير رأسه بين فرعين من فروع الشجر فيموت أو بأي عمل من الأعمال التى يكون فيها الخنق مؤديا إلى الموت.

قوله تعالى : **"وَالْمَوْقُوذَةُ"** هى الحيوان الذى ضرب بخشبه أو بعصا حتى يموت ، ويقذه يعني ضربه ضربا مميتا **"وَالْمُتَرَدِّيَةُ"** هي التى تتردى في بئر أو تلقى من فوق سقف عال فتموت **"وَالنَّطِيحَةُ"** أن ينطحها حيوان أو يتطحا حيوانان فيموت أحدهما أو يموتا معا ولو سال الدم المسفوح منهما بجراح النطح ، لأن الدم المسفوح لا ينزف جميعه من كل الجراح إلا من الودجين والحلقوم فيبقى منه ما يمتزج باللحم فيحرم ذلك.

وجائز أن يسفك جميع الدم ولكن تحريم النطحية يكون بسبب تسمم اللحم بالانفعالات الشديدة ، فيكون اللحم ضارا أو مسمما للجسم ، فإن شدة الغضب تفرز مادة سامة تجرى فى الدم وفى اللعاب

([1]) حدد هذا التاريخ في العام الذي أملي فيه السيد / الإمام تفسيره هذا.

، وقد ثبت أن الحيوان بل والإنسان إذا غضب وكاد ينفخ من فمه وخرج من فمه لعاب مات من صادفه إذا وصل إلى جرح به.

قوله تعالى "**وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ**" أي ما أكل كل حيوان مفترس ، ولكنه خص السبع هنا لأنه أجرأ الحيوانات المفترسة ، وهنا تكون المعني وما أكل السبع ما لم تدركوا ذكاته.

قوله "**إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ**" أي إلا ما أدركتم ذكاته "أي ذبحه ذبحا شرعيا" قبل أن تكن الحياة قد فارقته بأن حرك ذيله أو عينيه أو صاح بصوته مما يدل على أن الدم لم يمتزج باللحم ويمكن بذبحه أن يسيل ذلك الدم مسفوحا ، والاستثناء هنا يظهر أنه منقطع ويكون تأويل حرم عليكم ما أهل لغير الله به إلى قوله تعالى وما أكل السبع إلا ما أدركتم تذكيته فهو حلال لكم.

قوله تعالى "**وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ**" ليست النصب هنا هى الأوثان إذ لو كانت كذلك لكان الكلام مكررا بعد قوله وما أهل لغير الله ، ولكنها أحجار كانت تنصب حول البيت الحرام يذبح عليها المشركون ذبائحهم ويلطخونها بدمائها تعظيما للأصنام حتى ورد أن أحد الصحابة . قال يا رسول الله أن بعض العرب كانوا يلطخون الكعبة بدماء الذبائح تعظيما لها أفنفعل مثلهم ، فأنزل الله "**وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ**" وأن تأويل بعض العلماء النصب أنها الأوثان من قوله تعالى "علىالنصب" إذ أن على بمعنى اللام وهو بعيد ، وجائز أن تكون نصب "اسما مفردا" أو يكون جمعا مفرده نصابه على وزن سحبا وسحب.

قوله "**وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ**" الأزلام جمع زلم ، وهى قداح اليسر ، وهى ثلاثة أوراق مكتوب على الأولي أمرني ربى أفعل ، والثانية أمرني ربي أترك ، والثالثة بيضاء فإذا أراد أن يعمل عملا وضعها فى كيس ومد يده وأخرج واحدة منها فأن وجد أفعل أمضاه ، وأن وجد لا تفعل ترك ، وأن وجد البيضاء أعاد العمل ، وقد حكم الله على هذا العمل أنه فسق.

قوله تعالى "**ذَلِكُمْ فِسْقٌ**" الإشارة تعود إلى ما تقدم من الأنواع التى حرمها الله تعالى ابتداء من قوله "حرمت عليكم" إلى ، "وأن تستقسموا" كل ذلك فسق والفسق هو الخروج عن الشئ ، يقال فسقت الحية أى خرجت الحية من ثوبها ، فالفسق هو الخروج ، والفقس هو الخروج أيضا ولكن يقال للدجاجة إذا خرج من بيضها الفراخ فقس ، ويقال للحية إذا خرجت من ثوبها فسقت أى خرجت للضرر والأذية ، فكذلك كل خارج من الحق إلى الباطل فاسق وهنا يظهر أن الاستقسام بالإزلام محرم لأنه حكم بعلم الغيب أو ظن بالغيب ، وإذا كان كذلك فإن الأخذ بالفال أخذ بالطيرة أو بما يعلمه الناس من الاستخارات على السبح أو أخذ الطالع لكشف الغيب أو بقول بعض القائمين بالأمر المسمي بالقرعة أو الرمل أو الودع أو البقول أو النوى مما يعمله المشعوذون محرم أيضا.

ولكنا نقول أن الفأل الحسن كان يحبه رسول اللهε ، وقد نفى عليه الصلاة والسلام العدوى والطيرة والهامة لحكمة ، والحقيقة أن الله حرم الاستقسام بالإزلام لأنها كانت تضرب عند الأصنام وكانوا يعتقدون أن الأصنام هى التى تنفع وتضر وتعرف الناس الغيب بالاستقسام فحرم الله ذلك ، وأما ما عدا الاستقسام بالإزلام من الإستخارة الشرعية والفال الحسن ومن طمأنينة القلب وما تخبر به الرمال أو صاحب الطالع من الاعتقاد بأن الله تعالى أنفرد بالغيب وبالنفع والضر وبأنه سبحانه يلهم من يشاء بما يشاء فذلك ليس بمحرم ولا فسقا ، وبأخذ على ذلك أن الذين يعتقدون به لا يبلغون أعلي مقامات التوحيد.

قوله تعالى **"الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ"** هذه الآية وما بعدها نزلت يوم الجمعة يوم عرفة . ورسول اللهε بمنى فى حجة الوداع ، وكانت حجة الوداع جامعة لكل من أسلم وليس فى مكة أحد من المشركين.

ومعنى الآية أن الله تعالى قهرهم وأذلهم وأيأسهم من أن ينولوا من الدين والمسلمين ما كانوا ينالونه قبل من أذية المسلمين ومنعهم عن تأدية شعائر الدين ، وقهرهم على أن يعلموا عمل الجاهلية حتى كان بعض المستضعفين من المسلمين قبل فتح مكة يظهرون الكفر بألسنتهم خشية المشركين.

ولما أن أظهر الله دينه الحق وفتح رسوله مكة ونزل آية براءة طهر الله حرمه من أهل الشرك به سبحانه.

قوله تعالى **"فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ"** أي تخافوهم خوفا يزعج قلوبكم ويذل أجسامكم رهبة من أن يظهروا عليكم بعد أن أظهركم الله عليهم قوله "واخشون" أى وخافوني أن أنزل بكم عقابى لمخالفتكم أمري وخشيتكم من أعدائي الذين قهرتم قهرا جعلهم لكم إذلاء ، وليس المراد بقوله اليوم أنه يوم إنزال الآية الشريفة على النبيε أو قبلها بل المراد باليوم الآن.

قوله تعالى **"الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا"** . لما نزلت هذه الآية فى يوم الجمعة يوم عرفة أجتمع للمسلمين أعياد كثيرة ، عيد الأضحى وعيد هذه الآية وعيد طهارة الحرم من المشركين فى الحج ، وعيد فرح الصحابة بوجود رسول اللهε بين ظهرانيهم وغير ذلك ، وعند نزولها أبتهج الصحابة وفرحوا فرحا عظيما وبكى أبو بكر فعجب الناس منه وسألوه فقال أن الله تعالى "نعي إلينا رسولε " وهل بعد الكمال إلا الفناء ، فأن رسول اللهε مات بعد واحد وثمانين يوما من نزولها ، فكان أبو بكر أعلم الناس بكلام الله تعالى.

"ومعنى أكملت لكم دينكم" أى أن الله تعالى بين محابه ومراضية كاملة مفصلة ، لأنه ختم الرسالة بمحمدε فصار الناس يحتاجون إلى أحكام تنزل من السماء إلى يوم القيامة ، ولم يكن الدين ناقصا بل أن الدين كامل ولو لم ينزل منه إلا بعض الأحكام ، لأن الدين خطاب الله المتعلق بفعل أو ترك المكلفين والله جل جلاله ، ينزل من دينه بقدر استعداد عباده فكان الدين كاملا من يوم أنزل الله تعالى على حبيبه خاتم الأنبياء **"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ"**.

ولكنه سبحانه يمنح المزيد من الوحى للبيان والهداية حتى أكمل دينه ، ومن قال أن هذه الآية الشريفة تمنع الأخذ بالقياس مردودة ، لأن الأحكام المأخوذة بالقياس وهى استنباط المجتهدين الأحكام التفصيلية من كتاب الله فهى من الدين الذى أكمله الله ، وليس القياس خارجا عن الدين.

قوله تعالى **"وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي"** لما كان دين الله الحق هو النعمة العظمى وإكمال الدين لنا هو إتمام النعمة علينا ، والنعمة هى أن يفوز المؤمن باللذة والسعادة الجامعتين لنعيم كل القوى الإنسانية من روح ونفس وعقل وجسم وحس – نيلا وإدراكا – يقتضي الدوام أبديا لا ينتهي ،فلا يشوب هذا النيل سلب فتنقلب اللذة ألما والسعادة شقاء ، وإنما ينتقل من نعمة جامعة لأنواع المسرات الجسمانية والروحانية فى الدنيا إلى نعم لا قبل للإنسان بها فى الآخرة.

ولما كان كمال الدين هو نيل تلك المسرات وأعظم منها : قال تعالى **"وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي"** التى هى النعمة الحقيقية من الله تعالى وقد أتمها سبحانه لنا فى الدنيا وفى الآخرة ، أما النعمة التى أتمها علينا فى الدنيا فهى أن هدانا صراطه المستقيم وبين لنا أسرار كتابه العظيم ، ثم منحنا أتم النعمة فى الدنيا وهى التمكين فى الأرض بالحق والعلو فيها على أهل الباطل ، وجعل لنا العزة

ونفوذ الكلمة وأقامنا عمالا له ننصره سبحانه ، ومنحنا العافية والقوة وسخر لنا كل شئ فى الملك والملكوت ، بل وسخر لنا غير المؤمنين من بنى الإنسان فجمع لنا باكمال الدين نعمتي الأشباح والأرواح فى الدنيا قبل الآخرة ، ثم زادنا فى الدنيا خيرا فوق إتمام النعمة الدنيوية وهو أنه أرانا جماله العلي الذى أغنانا عن الدنيا وما فيها من النعمة العظمى ، التى ذكرت لك بعض أنواعها مما تسارع إليه نفوس الأبرار فزهدنا فى الدنيا لا زهد أهل المبادلة الذين يزهدون فى الدنيا للفوز فى الآخرة ، بل زهد من فر من الكون إلى المكون ، ومن النعمة إلى المنعم.

أما نعمة الله فى الآخرة : فأولها أن يكون لنا ما نشاء عند ربنا ، وفوقه أن نكون فى مقعد صدق عنده سبحانه . قال تعالى : **"إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ"**[1] وفوقه الرضوان الأكبر . قال تعالى: **"وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ"**[2] وهذا يتيح لنا شهود مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النظر إلى وجهه العلي العظيم قال تعالى **"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ"**[3] وصدق الله العظيم فى قوله "اليوم أكملت لكم دينكم" أى الآن فى الدنيا تفضل علينا بإكمال الدين وإتمام النعمة كما بينت ، وهذا فى الكون المحدود والمعدود فكيف وقد قالε "إتمام النعمة الجنة" أسأل الله تعالى أن يكمل لنا دينه ويجعلنا أنصارا له جل جلاله كما جعل سلفنا الصالح . أمين.

قوله تعالى : **"وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا"** الرضا عن الشئ أو على الشئ لغتان صحيحتان ،وهو أن يختار الراضي الشئ لنفسه لكماله وجماله قبولا وحبا ، أو انتفاعا ومتعة ، فرضا الله تعالى الإسلام لنا دينا اختياره لنا لجمال الإسلام وكماله ولحب الله له ، كما نرضى بالجنة لنا من الله تعالى لجمالها ولانتفاعنا بها ، فالرضا من الله تعالى اختيار منه سبحانه قبولا وحبا ، والرضا منا عن الله تعالى اختيارنا قدره لننتفع برضانا بقدرة الله تعالى بنيل رضوان الله الأكبر الذى هو فوق النظر إلى وجه الله تعالى ، وذلك لأنه ورد فى الحديث قالε "أن الله يتجلى لنا يوم القيامة فنسأله الرضا منه" وهذا الحديث أثبت أن التجلي يفيد النظر إلى وجهه تعالى ، فسؤالنا الرضا منه دليل على أن الرضا فوق النظر إلى وجهه العلي ، وذلك لأن الرضا يديم لنا النظر إلى وجهه تعالى.

ومعنى قوله تعالى **"وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا"** أى اخترت لكم الإسلام الذى هو الاستسلام والتسليم لكل ما جاء به محمدε من عند الله تعالى تسليما حقا يجذب قلوبنا وجوارحنا إلى السمع والطاعة رضا عن الله تعالى ورسولهε ، لأن فى رضا الله تعالى لنا الإسلام دينا حجة من الله لنا أن رضينا عن ذاته العلية فثبت لنا الرضوان الأكبر من الله تعالى برضاه لنا الإسلام دينا وما رضى الله الإسلام دينا إلا وفيه حنيننا له ، والرضا ينتج الرضا ، والرضا أعلى مقامات اليقين ، فإن كمل الرسل وكمل ورثتهم يفرون من الكونين إلى الله تعالى ، كما قال سبحانه "ففروا إلى الله" لتفوزوا برضوانه تعالى ، ورضاه لنا الإسلام دينا لرضاه عنا ، لأنه تعالى وفقنا وأعانتا للقيام بالسمع والطاعة والمسارعة إلى تنفيذ ما أمرنا عملا بقدر طاقتنا وترك ما نهانا عنه مطلقا ، لأن الله ما أمر بأمر وشرط الطاقة ، ومنا نهى عن شئ إلا واجب أن يتركه المكلف مطلقا ، ولم يرخص فى شئ من

([1]) سورة القمر : 54 – 55.
(2) سورة التوبة : 72.
(3) سورة القيامة : 22.

ذلك إلا إذا دعت الضرورة الفادحة كما بينت الشريعة المطهرة فى مواضع الرخص التى هى عزائم فى الحقيقة.

والدين هو المذهب وما يدان به الإنسان ، وهو الصراط المستقيم والمنهج القويم ، وهنا أبين للسالك فى مقام جهاده ، وللواصل فى مقام شهوده ، وللمتمكن فى مقام وجوده الحق.

فأقول للسالك كيف يرضى الله لك دينا لكي تسلكه لتصل إليه وتخالفه فيما تقوى على إطاعته فيه ونيل رضاه.

وأقول للواصل أنك فى مقام الإحسان تعبد الله كأنك تراه ، فكيف ترضى أن يمن الله تعلى عليك بكشف الحجاب حتى كأنك تراه فى عبادتك وأنت تخالف دينه بخاطر نفسي ، أو بهمة ، أو لمة ، أو ميل قلبي ، أو تمنى – والتمني باب الحجاب.

وأقول للمتمكن كيف تشهد لنفسك الوجود الحق وأنت تلابس ما لا يليق بأهل الحق ، والله تعالى يرضا لنا الإسلام دينا ونحن نظهر عدم الرضا به بمخالفتنا أحكام دينه وترك مناسك شرعه.

قال تعالى : **"فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"** لما أن بين سبحانه وتعالى ما حرمه بقوله تعالى "حرمت عليكم الميته . . .الخ" بين ما أباح أكله عند الضرورة من تلك المحرمات رخصة لأهل الإيمان ورحمة من الله تعالى بهم ، فقال سبحانه "فمن أضطر" أى أحوجه الضرر الفادح بالجوع الذى لو دام لقتل الإنسان أى الجأته الضرورة المهلكة، وفى حالة ما إذا كان سليم النية "غير متجانف لإثم" والمتجانف هو الذى يميل إلى ارتكاب المحرم طمعا وشهوة ، قاصدا بها الوقوع فيما يخالف الشريعة وغير مبال بما يصيبه من ضرر ، والمعنى أن وقع فى المخمصة "أى المجاعة" لأن المخصمة ضمور البطن من الجوع وانخفاضها عن مستواها بحسب العادة ، فأباح الله لنا أكل اللحوم المحرمة علينا بشرط الاضطرار ، وبشرط أن يكون ذلك الاضطرار فى مخمصة.

وبيان ذلك أن من تعود أكل اللحم فى كل يوم مرة أو مرتين أو ثلاث كما يعمل النهمون وفقده حتى أشتد نهمه إليه فلا يحل له أكل اللحوم التى حرمها الله تعالى ، وإذا أكل منها متأولا فإنه يكون أرتكب مخالفة الشرع فى أكل ما حرم الله عليه ولا عذر له فى الرخصة ، ولا فى تأويله الباطل ، والمتجانف لإثم هو الذى يميل إلى ما حرمه الله تعالى فيستحق عقوبته.

قوله تعالى **"فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"** يعنى أن الذى اضطر فى مخمصة غير مجانف لإثم فأكل لحما حرمه الله عليه ، لا يكون وقع فى محرم ،لأنه أكل اللحم المحرم فى مثل هذه الحالة المرخص له بها من الله تعالى فهو مباح بشروطه المتقدمة ، وذلك لأن الله تعالى غفور يستر للعبد وقوعه فيما حرمه سبحانه عليه بسبب اضطراره ، ويرحمه لأنه أطاع الله تعالى فيما أمر به ولم يلق بنفسه إلى التهلكة وأمامه ما يحفظ به نفسه برخصة الله التى رخصها سبحانه لنا ، وذكر الغفور الرحيم هنا بشرى من الله لأهل الإيمان لخفى لطفه بنا وإغاثتنا عند الضرورة.

قوله تعالى : **"يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"**(4).

يعني بذلك جل جلاله أن الصحابة رضوان الله عليهم بحسب الحالة القائمة بهم التى يعلمها الله عنهم **"يَسْأَلُونَكَ"** يا محمد و **"مَاذَا"** يصح أن تكون مبتدأ **"أُحِلَّ لَهُمْ"** خبر ، ويجوز أن تكون "ما" مبتدأ "وذا" بمعنى الذى خبر ، وأحل من صلة "ذا" ، وأن تأول هذه الآية بعض المفسرين فقال "أن

هنا قولا محذوفا تقديره يقولون ماذا أحل لهم" وهذا التأويل ضعيف لأنه لو كان كذلك لكان الكلام ماذا أحل لنا ، وهذا السؤال وارد بعد بيان الله تعالى ما حرمه علينا ، وأن كان سبحانه يبين لنا ما أحله أجمالا فى قوله "أحلت لكم بهيمة الأنعام" فأنا فى حاجة إلى التفصيل.

قوله تعالى : **"قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ"** هذه الآية أمر من الله تعالى أمر به رسولهε بأن يخبرهم بما أحله لهم سبحانه من أنواع الحيوانات وبين الوسائل التى تكون بها حلالا قال تعالى **"قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ"** والطيبات هى ما تشتهيها النفوس الفاضلة ويحصل لها بأكلها اللذة فى الطعم والرائحة وسهولة المضغ.

قوله تعالى : **"تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ"** أى تعلموهن الصيد الشريفة – وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح مكلبين ،والجوارح هى الكواسر وهى التي تسيل الدم بجرحها للصيد ، وتلك الجوارح أغلبها الكلاب المعلمة التى لأجلها غلب التكليب على كل الجوارح ، ثم الباز والصقر وما لا نعلمه من غيرها من الوحوش.

قوله تعالى : **"تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ"** أى تعلموهن الصيد مما ألهمكم الله تعالى بحسب الهداية العامة بسبب احتياجكم إلى ما لابد لكم من المأكل والمشرب والملبس ، كما الهم الله تعالى جميع أنواع الحيوانات ما به ينتفعون فى مأكلهم ومشربهم ومأواهم والآية صريحة فى أن جوارح الصيد لابد أن تكون معلمة ولا يحل أكل صيدها إلا إذا تم لها التعليم ، وكمال تعليمها أنها إذا أصاب سهم راميها أسرعت فأمسكت الصيد وامتنعت عن الأكل منه ورجعت به على الرامي ، فإذا جرحته وسال دمه حل أو ذكاه الرامي بسرعة إذا وجده مما يذكي ، ومن علامة تعليمها أيضا أنها إذا أمرت بالامتناع عن الصيد امتنعت ، وقد قرر بعض العلماء أنها لا تكون معلمة إلا إذا عملت هذا العمل منها ولو مرة واحدة كانت معلمة ، وقيد بعضهم أنه لابد من تكرار هذا العمل منها ولو مرتين.

قوله تعالى : **"فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ"** أي فكلوا لحوم ما أمسك عليكم جوارح الصيد ، واذكروا اسم الله عليه عند رمي السهم أو عند قيام الكلب لصيده أو عند تذكيته أن رده الكلب إليكم من غير إمساك له.

قوله تعالى : **"وَاتَّقُوا اللَّهَ"** أى خافوا الله خوفا يمنعكم من الوقوع فى أكل ما حرمه عليكم مما بينه فى آية التحريم . ومن أكل ما حرم عليكم أكله فى هذه الآية مما أخذ بالمفهوم ، كأكل ما صاده الكلب لنفسه ، وأكل ذبائح المشركين ، وأكل ما لم يذكر اسم الله عليه ، وأكل ما صاد الجوارح غير المعلمين ، كل ذلك حرام فخافوا الله تعالى وأطيعوا أمره وامتنعوا عن الوقوع فى نهيه.

قوله تعالى : **"إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"** أي يجعل العقوبة لمن خالف أمره ووقع فيما نهى عنه ، وفى هذه الآية تهديد ووعيد لمرتكبي المعاصي ، وفيها أيضا بشرى لمن أتقى الله فإنه أيضا سريع الحساب بالخير لأهل التقوى ويغفر لهم ما يقعون فيه مما تدعوا إليه بشريتهم ولم يكن من الكبائر كما قال تعالى : **"إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ"**[1].

قوله تعالى : **"الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ"**(5).

([1]) سورة النساء : 31.

لما كان القرآن خاتم الكتب ومهيمنا عليها جمع الله لنا فيه ما به نيل سعادتنا فى الدنيا والآخرة إذا تمسكنا به ، فلم يدع الله تعالى صغيرة ولا كبيرة مما لابد لنا منه فى ضرورياتنا وكمالياتنا إلا بينه فيه ، حتى قال على بن أبى طالب عليه السلام "لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله" ولذلك فإن الله تعالى ما ترك شأنا من شئوننا فى مجتمعنا المنزلي والقروي أو المدني وفى المجتمع العام مما يتعلق بالقلوب أو بالجوارح أو بالعقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات ، ولا فى أكل أو شرب أو نوم أو لباس أو مسكن أو زواج أو غير ذلك إلا بين لنا ما أوجبه علينا أو حرمه أو أباحه لنا من الذبائح والأطعمة والأشربة مما يتعلق بدنيانا ، وبين لنا سبحانه ما يتعلق بديننا ومآلنا ، وهذه الآية الشريفة أحل الله لنا فيها أكل لحوم الذبائح التى أباحها لنا والطيب من الأطعمة ، وقد تقدم معنى الطيب فيما سبق شرحه.

قوله تعالى : **"وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ"** أى وذبائح أهل التوراة والإنجيل حل لكم ما تمسكوا بالتوراة والإنجيل فإن خالفوها حرمت علينا ذبائحهم كما حرم بعض العلماء ذبائح نصارى بنى تعلب لأنهم خالفوا الإنجيل ، وكما حرم على رضى الله عنه ذبائح الروم لمخالفتهم الإنجيل والتوراة.

وتبيح هذه الآية أطعمة أهل الكتاب من غير الذبائح ، وكان ذلك مباحا من غير احتياج إلى نصر صريح . إلا أنه قد يتوهم أن طعامهم غير الذبائح حرام علينا.

وقوله تعالى : **"حِلٌّ لَكُمْ"** أى مباح لكم أن تأكلوا منه وقوله : **"وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ"** هذا أمر من الله تعالى لنا أننا لا يحرم علينا أن نطعمهم من طعامنا بمبادلته ، أو لتأليف ، أو لضيافة ، أو لصدقة.

قوله تعالى : **"وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ"** بعد أن بين لنا ما أحله لنا وما حرمه علينا من الأطعمة والأشربة ، أخذ يبين ما يتعلق بالانكحة ويحل لنا ويحرم علينا حتى نكون فى كل أحوالنا فى عبادة من صلاة وصيام ،وحج وزكاة ونوم وأكل وشرب وتجارة وزراعة وصناعة وجهاد ونكاح ، لأننا فى كل ذلك إنما ننفذ أوامر الله تعالى مراقبين جلاله العلي متمسكين بتقواه سبحانه وبذلك نكون خرجنا من رتبة الغفلة الإنسانية ونحن فى هياكلنا البشرية ، واتصلنا بالعلم الملكوتى الذين يمدحهم الله تعالى بقوله **" لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ"**.

وما أيسر القيام بأوامر الله على الخاشعين وما أصعبه على الغافلين ، فإن الله تعالى أباح لنا الطيبات من الرزق ، وأجمل الزينات من الملابس والمساكن ، وأباح لنا ما طاب لنا من النساء مثنى وثلاث ورباع وطلب منا السعى فى مناكب الأرض لتحصيل رزق الله لنا ، وما ترك لذة من الملاذ ولا شهوة من شهوات البطن والفرج أو من بهجة العقل والنفس إلا وأباحها لنا فى حدوده المحدودة وشرعه المشروع بقوله تعالى : **"وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ"** أى وأنكحوا المحصنات من المؤمنات ، والمحصنة لغة وشرعا هى العفيفة أو الحرة ، وعلى تأويل الآية بأنها العفيفة فتكون أماء أله الكتاب يحل لنا زواجهن ، ومعنى المحصنة أيضا الحرة عفيفة كانت أو فاجرة ، وعلى تأويلها بالحرة أباح لنا نكاح الفاجرات ،وقد أيد ذلك ما ورد عن أن بعض الآباء كان يرفع إلى أمير المؤمنين عمر أن ابنته فعلت ما يكره أيزوجها ، فيأمره بتزويجها ويقول له أن ذكرت شيئا من ذلك آخذتك أشد المؤاخذة . ولو كانت المحصنة هى العفيفة لحرم علينا نكاح الفاجرة إذا ثبت فجرها ، وكان معنى قوله تعالى "والمحصنات" أى أباح الله لكم نكاح المحصنات اللائى هن عفيفات أحرار.

قوله **"الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ"** يعنى أن الله تعالى أباح لنا أن نتزوج ن الحرائر العفيفات من بنات اليهود والنصارى وهن على دينهن ، وقال بعض العلماء أن المراد من قوله "والمحصنات" اللائى أسلمن من نساء اليهود والنصارى ،وهذا التأويل لأن المسلم إذا تزوج بغير المسلمة ربما نوعت أفكاره

إذا أحبها أو أفسدت ولدها فاتبع دينها ، أو علمت سرا من أسرار سياسته لأمته إذا كانت غير المسلمة متزوجة أميرا أو وزيرا أو ذا شأن ، كما حصل فى مراكش حيث كان عبد العزيز ملك مراكش ابن امرأة فرنسية فأفسدت ولدها حتى جعلته فرنسيا طبعا وميولا وتعصبا ، فأضاع الملك لفرنسا.

والتاريخ مرآة الحقائق فإن رجلا من ملوك الفراعنة تزوج بامرأة يونانية فأولدها "أيسمانيك الأول" الذى استعان بجيوش أخواله من اليونان حتى خرب المملكة المصرية ،ولهذا رأى بعض العلماء أن زواج غير المسلمة لا يحل ، وأول رجل أفتى بهذا الحكم عبد الله بن عمر رضى الله عنه بدليل قوله تعالى فى آخر الآية **"وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ"**.

قوله تعالى : **"إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ"** الأجور هى "أعواض البضع" ، فهى المهور التى يدفعها الإنسان عوضا عن الاستمتاع بالمرأة ، والمعنى إذا اتيتم المحصنات من المؤمنات ،والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب مهورهن أحلهن الله لكم ، وفى قوله "والمحصنات من أهل الكتاب" قدمت تأويل المحصنات لأن المحصنة هى العفيفة على قول أو الحرة على قول آخر ، فأن كان المراد بها العفيفة جاز للمسلم أن ينكح اليهودية والنصرانية وإمائهما العفيفات من غير شرط حريات كن أو غير حريات ، وإذا أولنا المحصنات بأنهن الحرائر حرم على المسلمين نكاح إمائهما بدليل قلوه تعالى **"وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ"**[1] فرخص سبحانه فى نكاح الأمة المؤمنة فقط ، وحرمت هذه الآية الشريفة نكاح الإماء غير المسلمات ، وإذا أولنا المحصنات بالحرائر جاز نكاح الفاجرات إذا تبن توبة نصوحا ، لأن المراد بالحرة هنا غير الأمة ، وفى قوله "أجورهن" إشارة إلى أن أقل المهر لا نهاية له ، أو قد يتزوج الرجل المرأة بخاتم من حديد.

قوله تعالى : **"مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ"** "محصنين" أى حرائر عفيفات قد استوفين شروط الشريفة المتعينة فى الزواج ، قوله "غير مسافحين" السفاح هو علم الفحشاء ظاهرا ، واتخاذ الأخدان عملها سرا لأن قوله تعالى : **"وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ"**[2] معناه أن السفاح هو ما ظهر من الفحشاء ، وأن ما بطن منها هو اتخاذ الأخدان.

قوله تعالى : **"وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ"** معلوم أن الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول "لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق" والكفر بالإيمان أما جحود التوحيد أو تعدى حدود الله تعالى ، فمن أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة فقد كفر بالإيمان ، وقوله تعالى **"فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ"** جواب الشرط ، والعمل إنما يقوم به العامل لينال أجره بمبادلة ومعاوضة أو ليفوز برضا من عمل له.

قوله تعالى : **"وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ"** لما كان حبوط العمل يراد به عدم قبوله من عامله ، والعامل إنما يعمل لينال جزاء عمله فى العاجل أو الآجل أو فيهما معا ، ففى العاجل كعمل أهل الدنيا الغافلين عن الآخرة ، وفى الآجل كعمل أهل العلم بالله الفانون عن إخلاصهم التائبون من توبتهم ، وأما الراغبون فى أجرى الدنيا والآخرة فهم أهل التمكين ، ممن سبقت لهم من الله الحسنى ، فجعلوا همومهم فى الدنيا الوصول إلى اليقين الحق فى شهود معانى الصفات الربانية الكاملة متجلية فى الخلق ، فنالوا الجنة العاجلة فى دنياهم ، ونالوا الرضوان الأكبر فى أخراهم ، وهذا هو الفوز المبين ن أما من فقد الإيمان وترك العمل بمقتضاه فى الدنيا كان ممن توعدهم الله بالخلود فى نار جهنم لحبوط عمله ،

([1]) سورة النساء : 25.

([2]) سورة الأنعام : 151.

ومعنى حبوط الأعمال الحرمان من اجرها فى الدنيا "وهو فى الآخرة من الخاسرين" لأن أى أجر فى الدنيا مهما على شأنه فهو الخسران المبين لفنائه وعدم دوامه.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"**(6).

معلوم أن الصلاة هى الصلة بين العبد وربه ، وهى الحجة على أن العبد عرف نفسه أنه عبد لرب أبدعه من العدم وأمده بكل ما يحتاج إليه مما يوجب له عليه الشكر عقدا وشرعا ن ومعلوم أن الشكر عمل والحمد قول ، والشكر عمل خاص يناسب المنعم على قدر نعمته ، ولما كان الشكر لله تعالى يجب أن يكون مناسبا بقدر جلاله لغناه المطلق عن العالم واحتياج كل من سواه إليه جل جلاله ، فيجب أن يكون الشكر مناسبا لعظمته تعالى وواسع إحسانه ، ويكون أيضا بقدر العبد ، ولا شكر لله أكمل وأتم بالنسبة للإنسان من الصلاة ، لأنها جمعت شكر الله بكل قوى الإنسان ، فشكر الروح هو استحضار عظمة الله تعالى وجلائل نعمه ، وشكر القلوب تصرف النوايا فى الله وفقه كلامه تعالى أو غيره من أعمال الصلاة ، وشكر الجسم حركاته وسكناته الدالة عل الخشوع والخضوع والذل ، والصلاة هى الصلة التى تحفظ نسب العبد لربه حتى قال الله تعالى " **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**"[1] وقال تعالى **"إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ"**[2] ولما بشرنا بقوله تعالى **"قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ"** بين أكمل صفاتهم بقوله تعالى **"الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ"**[3] وورد فى الحديث الشريف "تارك الصلاة ملعون . . . الخ الحديث" ولا يترك الصلاة مسلم أبدأ ن وأن صرفه الله فى ملكه وأطلعه على مكنون غيبه . اللهم إلا إذا سلب عقله فقد سقط عنه التكليف لأنه لا يعقل شيئا ، وحكمه حكم المجانين الذين هم كالأطفال فى نشأتهم الأولي ، وهؤلاء يجب على العقلاء رحمتهم وإبعادهم عن الناس بحبسهم فى المستشفيات عند أطباء الرحمة ، وأما تاركي الصلاة من غير هؤلاء المجانين – الذين لا يميزون بين النافع والضار – فهم جهلاء فى استحوذ عليهم الشيطان فأغواهم ، وبذلك استحقوا لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . فالصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين . ومن هدمها فقد هدم الدين ودليلنا على ذلك أن رسول اللهε حمل إلى الصلاة فى مرض موته فصلاها بالناس ورجع فرفعه الله إليه ، وحمل عمر إلى الصلاة بعد أن طعنه عدو الله لؤلؤة المجوسي فصلى بالناس ورجع فتوفاه الله تعالى . وهل بعد عمل رسول اللهε وعمل خليفته الثاني يدعى مغرور أو منافق أن الصلاة تسقط عن حى مسلم عاقل يميز بين الحلو والحامض . ويعرف الضار من النافع.

الواجب على المسلم إذا حل وقت الصلاة وكان محدثا أن يطهر نفسه ظاهرا وباطنا استعدادا للوقوف بين يدى الله ، أما طهارة الباطن فإن أعظمها وأجلها عقد القلب على عقيدة التوحيد التى بينها قوله "لا إله إلا الله" وعلى أركان الإيمان المبينة فى قوله تعالى **"آمَنَ الرَّسُولُ"**[4] . . الآية ، وعلى الإيمان بكل شعبه من أعلاها إلى أدناها بقدر الاستطاعة.

([1]) سورة العلق : 19.
(2) سورة العنكبوت : 45.
(3) سورة المؤمنون : 2.
([4]) سورة البقرة : 285.

وأما طهارة الظاهر فقد بينها سبحانه فى هذه الآية وهى قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ"** ومعناها إذا تعينت عليكم الصلاة ودخل وقتها وأنتم محدثون فتطهروا فاغسلوا وجوهكم ، وما بينه الله تعالى فى هذه الآية فهو فرائض الوضوء ، وما عملهع مما زاد على ما فى الآية هو سنن الوضوء ، وحدود الوجه من منابت شعر الرأس المعتاد إلى منتهى عظم الذقن ، ومن وتد الأذن اليمنى إلى وتد اليسرى.

قوله تعالى **"وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ"** معطوف على الوجه ، أى واغسلوا أيديكم إلى المرافق ، والمرفق هو المفصل الذى يفصل الذراع من العضد ، وما لا يتم الواجب إلا به فيجب غسل المرفق وأخذ جزء من العضد.

قوله تعالى **"وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ"** نوع العمل فى فرائض الوضوء بعد أن قال سبحانه **"فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ"** ، قال تعالى **"وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ"** فالمسح غير الغسل ، ولما كانت الأحكام الشرعية إنما يقصد منها عبادة الله وطاعة أمره مع رعاية حفظ الصحة على المسلم ن أو عودتها إليه أن فقدها ، أمرنا سبحانه بمسح رءوسنا لأن للشعر مسام تمتص الماء الموضوع عليه ، فيضر الرأس بما ينتج من غسله فى اليوم خمس مرات ، فسبحان اللطيف الحكيم ، ولذلك فأن السنة عند غسل الجنابة أن يبل المغتسل يديه ثم يدلك بهما رأسه قبل وضع الماء عليها ليسد مسام الشعر وقاية لها من الماء.

وفى قوله تعالى **"وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ"** إشارة إلى التخفيف ولذلك فقد اختلف العلماء فى فهم هذه الآية ، فتأولها الشافعي بجزء من مقدم الرأس ، وتأولها أبو حنيفة بربع الرأس ، وتأولها بعض السلف منهم الإمام أبن عمر وهو أفقه المؤمنين وأعلمهم بأحكام الشريعة بمسح جزء من الرأس ، وتأولها غيرهم بمسح جميع الرأس حتى قال مالك يمسح الرأس من مقدم الوجه إلى آخرها ثم يرد المسح من مؤخر الرأس إلى مقدمها ومن ترك شيئا منها يبطل وضوئه ، وكل هذه التأويلات ثابتة من قوله تعالى **"وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ"**.

قوله تعالى **"وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ"** وأرجلكم معطوفة على وجوهكم ، فهى عضو فرضه فى الوضوء الغسل أى واغسلوا أرجلكم ، فالآية تفيد غسل الكعبين ، وقد تقدم أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولا يطمئن القلب بغسل الرجلين إلى الكعبين إلا إذا غسل جزء من الساق ، وهذه الأحكام التى بينها الله تعالى فى هذه الآية هى فرائض الوضوء فمن ترك شيئا منها عامدا بطل وضوءه.

قوله تعالى **"وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا"** قبل أن نتكلم فى معنى الآية الشريفة نبين موجبات الغسل يجب الغسل فى خمس مواضع:-

1- إنزال المنى فى نوم أو يقظة سواء فى جماع أو غير جماع.
2- ووطئ المرأة ولو بغير إنزال للمني.
3- والحيض والنفاس بالنسبة للمرأة.
4- وغسل واجب أيضا وهو غسل الكافر إذا أسلم.
5- وغسل للميت واجب على من حضروا وفاته.

فرض الله على المسلم إذا كان جنبا أن يغتسل ، وقد بين لنا رسول اللهε كيفية الغسل ، وبين لنا أنواع الجنابة ، وقد أنكر النصارى الطهر من الجنابة لأن المسيح عليه السلام كان أقرب إلى الروح منه إلى البشر ، ولذلك فأنه لم يتزوج وكان مقتديا بشريعة موسى عليه السلام متمما لها أخلاقا وأدبا ومعنا.

والحكة فى الغسل بعد الجنابة أن الأعمال الحيوانية الصرفه تجعل الإنسان ينحط إلى رتبة الحيوانات ، فيجب عليه إذا قام لعبادة الله أن يتطهر بالوضوء عند الحدث الأصغر والغسل عند الحدث الأكبر لأن تلك الأعمال حيوانية صرف ، والإنسان الذى يقف بين يدى الله للعبادة الأولي له أن يكون أشبه الخلق بالملائكة.

قوله تعال **"وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً"** بعد أن بين سبحانه كيفية الطهر بالماء للصلاة ، ولما كانت فريضة لا تسقط عن المؤمن ما دام مكلفا شرعا ، بين لنا ما يقوم مقام الماء عند فقده لعدم وجوده عينا ، أو عند عدم القدرة على استعماله بسبب مرض أو مانع شرعى يمنع عن استعمال الماء مع وجوده كما إذا كان على الماء وحش مفترس أو عدو قاتل فحكمه حكم فقده ، قال سبحانه "وأن كنتم مرضى أو على سفر" . أى وكنتم مرضى لا يمكنكم طلب الماء لمرضكم ، أو على سفر وليس معكم من الماء إلا ما يكفى للشرب ن أو أحدثتم حدثا أصغر كخروج شئ من السبيلين مثل الغائط أو ريح أو بول ، أو حصل منكم ملامسة النساء الموجبة للغسل فلم تجدوا ماء لفقده أو للعجز عن تحصيله ، أو لجهل محله ، أو لغلو ثمنه ، فإن قوله تعالى "فلم تجدوا ماء" ينسحب عل كل هذه المعاني.

قوله تعالى **"فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا"** الصعيد الطيب هو ما صعد على وجه الأرض ، فإذا لم يوجد التراب الطاهر جاز التيمم على الحجر والمدر والرخام الطبيعي غير الصناعي ، لأن الله تعالى يقول صعيدا طيبا ، وبين سبحانه فرائضه بقوله : **"فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ"** ومفهوم المسح فى هذه الآية هو ما أوضحناه فى قوله "فامسحوا برءوسكم" ، وهذه الآية دلت على أن المؤمن طاهر لا ينجس.

والذى فهمته فى حكمة التيمم أن المراد من الطهر بالماء أو التراب إنما هو محو الغفلة عن القلب وتذكيره بالعبودية أو العبودية ، ومحو الغفلة عن مشاهد التوحيد بالنظر إلى نفسه أنه له مكانة عالية فوق الخلق ، ويكون التيمم أعظم فى التأثير على القلوب لأنه يضع التراب على أشرف عضو فيه وهو وجهه ، فيتذكر أصله قبل أن يقف بين يد ربه ، ووضع التراب على الوجه يشعر العبد بأنه من التراب ، وللتراب مكانة عالية لأن الكافرين والمنافقين يوم القيامة يتمنون أن يكونوا ترابا ، وقوله تعالى "منه" أى من الصعيد الطيب ن والطيب هنا هو المقبول للنفس والنظر والشم.

قوله تعالى **"مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ"** ينفى الله سبحانه إرادة الضيق والإثم عنا ، لأن الحرج هو الضيق ،والحرج أيضا هو الإثم ،ومعنى "ما يرد الله" أى أنه سبحانه لم يحب أن يكلفنا ما لا نطيق ، لأن الإرادة كما بينت معناها فى سورة البقرة نوعان:-

1- إرادة كائنة وهى القدر المحتوم.

2- وإرادة محبوبة وهى ما أمرنا الله بعمله ونهانا عن فعله ، وهذه الإرادة قد تكون ولا تكون ، فقد يأمر العبد بالأمر ولم يقدره له ، وينهاه عن الأمر ويقدره عليه ، فأبو بكر أمره بالطاعة وقدرها له ، وأبو لهب أمره ولم يقدر له.

ومعنى قوله تعالى "ما يرد الله" أن الله سبحانه وتعالى لم يكلفنا بالغسل من الجنابة عند وجود مقتضاها ، أو بالوضوء عند الحدث أو بالتيمم عند فقد الماء مع قيام الحدث ليشق علينا ، ولكنه سبحانه أحب أن يطهرنا من نجاسة معنوية تقوم بالجسم عند قضاء حاجة الإنسان أو ملامسة النساء ، لأنه فى الحالتين يكون أقرب شبها بالحيوانات ، والمسلم إذا قام يصلى كان أقرب شبها بالملائكة فلأجل أن يدخل تلك الحضرة يجب أن يكون طاهرا فى ظاهره وباطنه ، وطهارة الظاهر زمر الطهارة الباطن ، فإذا تمضمض خرجت معاصى الفم واللسان مع الماء ، وإذا غسل الوجه خرجت معاصى العينين والأنف والوجه ، وإذا غسل اليدين سقطت معاصيهما ، وإذا مسح الرأس خرجت معاصى الوهم والخيال ،وإذا مسح الأذنين خرجت معاصيهما ، وإذا غسل الرجلين سقطت معاصيهما ، وليس الوضوء والغسل ليطهرنا الله بهما من نجاسات فى أجسامنا لأن المؤمن طهور لا ينجسه شئ ن والمؤمن أكرم على الله من الكعبة بل وأكرم على الله من الملائكة ، لأن الله تعالى خلق الإنسان بيديه ، قال تعالى لإبليس عند امتناعه عن السجود لآدم **"مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ"**[1] فكان شرف آدم بسجود الملائكة له ، لأن الله تعالى خلقه بيديه والعالم كله بيد واحدة ، فالعالم كله ملكا وملكوتا نصف الإنسان ، بدليل قوله تعالى **"فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ"** وقال سبحانه **"تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ"**[2] فالله تعالى خلق ملكوت السموات والأرض بيد واحدة، وخلق ملك السموات والأرض بيد واحدة ، وخلق الإنسان باليدين ، ولذلك فقد سخر الله للإنسان ما فى السموات والأرض جميعا منه ، وزاده النفخة المقدسة التى هى فوق السموات والأرض ملكا وملكوتا بدليل قوله تعالى **"فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"**[3].

ومعنى النفخة أنه خلقه من نور فضله الشامل لكل أشياء ملكه وشؤون ملكوته وزاده بأن جعله على صورته سبحانه ، لأن الله تنزه وتعالى ليس له فم وشفتان وحلقوم ينفخ منهما ، ومخلوق خلقه جل جلاله بيديه وأقامه خليفة عنه فى أرضه ، وأسجد له ملائكته وأعد له الملك الكبير والنعيم المقيم لا يحب سبحانه وتعالى أن يكلفه فوق ما يطيق.

قوله تعالى **"وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ"** شرحت لك معناها فى الآية السابقة ولكنى أزيدك بيانا هو أن الله تعالى يريد أن يزيل عنا ما علق بأجسامنا ن نجاسة معنوية ألمت بالإنسان عند مباشرته ملامسة النساء أو عند قضاء الحاجة، وقد بينت أن كل عمل يشترك فيه الإنسان مع الحيوان يحجب الإنسان عن مشاهد رتبته الإنسانية الكاملة ، فيجب عليه أن يتطهر بالماء أو بالتراب ، وطهارته تتم بشهوده أصله قبل وقوفه بين يدى ربه ليشهد قلبه التجرد من التشبيه بالرتبة السافلة ، فكأن الطهر بالماء أو التراب رمزا إلى طهارة القلب من ملابسة ما به غفله عن حضوره مع عالم الروحانيات العاليات والمجانسة لما فيه من الروح الملكية أو النفخة القدسية ، ولم نسمع أن حكومة من الحكومات عاقبت الآلة التى قتل بها القتيل وإنما المعاقب هو القاتل ، فالأيدي والأرجل بل والجوارح الأخرى ما هى إلا آلات تحت سلطان القلب، فالمعاقب هو القلب ، ولكن الشريعة أمرت بطهارة الآلات والأدوات مع أنها لم ترتكب إثما ، لتكون طهارة القلوب إولى ومن طهر جوارحه بالوضوء أو الغسل ، ومن لم يطهر قلبه بالتوبة والندم وتصريف النوايا من حسن إلى أحسن جهل حكمة أحكام الشريعة ،وقد أظهر الله تلك الحكمة فى هذه الآية بقوله تعالى "ولكن يرد ليطهركم" بقد قوله "ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج" فيما أنزله

([1]) صورة ص : 75.

(2) سورة الملك : 1.

([3]) سورة الحجر : 29.

إليكم من أحكام الطهارة ، ولكن الحكمة هى أن الله أحب طهارتنا وليس المراد طهارة الأجسام فحسب ، بل المقصود طهارة القلوب حتى يحصل للمسلم صفاء يجعله يقف بين يدى الله تعالى فيسمع منه سبحانه ما يورده عليه من معانى القراءة والتسبيح والتكبير فى الصلاة لله تعالى ومن معانى الحركات والسكنات فيها المنبئة بكمال العبودية لذاته العلية.

قوله تعالى **"وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"** معلوم أن النعمة نوعان نعمة الأشباح ونعمة الأرواح ، فنعمة الأشباح قد أتمها على غير المؤمنين كما نرى ، فقد مكنهم فى الأرض تمكينا حتى طاروا فى الجو ، وغاصوا فى البحار واخترعوا ما أدهش العقول من الصناعات والحرف ، حتى لم يبق فى الملكوت حقيقة من الحقائق النباتية أو الجمادية أو الحيوانية أو الكواكب السماوية إلا ومدهم الله بعلم من علوم الصناعات يستخدمون خواصها لنفع الإنسان ، ولا يزال سبحانه ولن يزال يفتح كنوزه التى أودعها لبنى الإنسان فى الأرض والسماء ، ونرى من أبدعوا تلك المخترعات والصناعات وهم الكفار بالله.

وقوله تعالى **"وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ"** المخاطب بها أهل الإيمان بالله تعالى ، فلم تكن تلك النعمة التى بشرنا سبحانه وتعالى بأنه يتمها علينا إلا نعمة الأرواح كما قال تعالى **"الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا"**[1].

قوله تعالى : **"وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"**(7).

بعد أن بين الله تعالى لنا أحكام وسائل الصلاة وما تقدمها من بيان الأحكام المتعلقة بالعبادات والمعاملات ، بين لنا فى هذه الآية ما يجب علينا القيام به لحضرته العلية من الشكر والثناء والحمد فقال تعالى : **"وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ"** ونعمة الله تعالى هو الخير العظيم المتعلق بالأرواح ، كالهداية للإسلام ، والتوفيق لمحابه ومراضيه ، وبيان الأعمال والأقوال والأحوال التى يحبها من العبد بعد أن بين لنا رسول اللهε ، فتكون أجسامنا على الثرى وقلوبنا معلقة بالعرش الأعلى ولديها تسوح أرواحنا سياحة ملكوتية وتقتبس الأنوار من المشكاة المحمدية ، وذكر النعمة معناه تذكرها وعدم نسيانها أو الغفلة عنها حتى يداوم على شكرها ، والمراد من إضافة النعمة إلى الله شمولها لكافة النعم.

قوله تعالى : **"وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ"** أن كان الخطاب للمؤمنين يكون هذا الميثاق هو بيعة الأنصار لرسول الله بمكة قل هجرته ، ومبايعته للصحابة تحت الشجرة عند بئر الحديبية ، والبيعة التى بايعوا رسول الله بها معلومة ، وهذا خطاب من الله تعالى يحيى به قلوب أهل الإيمان ليحافظوا علي القيام لله بما عاهدوا عليه رسول اللهε ، ونسب الميثاق لذاته بيانا على أن كل بيعة وعمل أمرهم به رسول الله هو من الله تعالى بدليل قوله تعالى **"إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ"**[2] وأن كان الخطاب عاما فيكون هذا ميثاق يوم ألست حيث أخذ ذرية بني آدم ن ظهورهم وأشهدهم سبحانه وقال : **" أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ"**[3] ثم عاهدهم بقوله : **"أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ"**.

وفى هذه الآية وعد من الله لأهل الإيمان الذين وفقهم لإتباع رسوله وأقامهم مسارعين إلى العمل بمحابه ومراضية سبحانه فى الشدة والرخاء، ووعيد لأهل الكفر ، وهم الذين لم يوفوا بعهد الله

([1]) سورة المائدة : 3.
([2]) سورة الفتح : 10.
(3) سورة الأعراف : 172.

وميثاقه ، وجائز أن يكون الخطاب لبني إسرائيل الذين لم يؤمنوا برسول الله ويكون الميثاق ما عاهدهم الله عليه على لسان موسى من الكلمات التسع.

قوله تعالى : **"إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا"** "إذ" ظرف للماضي من الزمان ، يعنى حين قلتم لرسول الله سمعنا كلامك وأطعنا أمرك وعاهدناك على أن نقوم لك ما جئتنا به من عند الله تعالى بقدر طاقتنا.

قوله **"وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"** تقدم الكلام على قوله "اتقوا الله" وقوله "أن الله عليم بذات الصدور" يعنى أن الله مطلع على خفايا نفوسكم وتصريف نواياكم وهمم ولمم ضمائركم ، فهو أعلم بأمور الظاهر من أعمال جوارحكم ن باب أولى تخويفا للظالمين ، وبشرى للمؤمنين الذين يتقون الله فيتفضل عليهم بما وعدهم وأعظم.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ"**(8).

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله كونوا مسارعين إلى محاب الله ورسولهε قياما بالجهاد الأكبر فى ذات الله تعالى ، وشهودا بالحق لإعلاء كلمته سبحانه ، وتنفيذ أمره وأمر نبيه بقدر طاقاتكم باليد واللسان والقلب ، أو بالقلب واللسان ، أو بالقلب فقط ، واجعلوا قيامكم بتنفيذ أوامر ربكم مصحوبا بإخلاص القلب ، وحسن السريرة وصدق النية وطبقوها على أنفسكم لتكونوا قد نفعتم أنفسكم أولا وتعلمتم ، بجهادها مواطن نزوعها إلى الباطل وطرق تزكيتها بالحكمة فتنفعون غيركم بما حصلتموه من العلم التجريبي على أنفسكم ، فينتفع بكم غيركم ويشفى الله بكم مرضى القلوب ، ومفسودى الأخلاق الذين ينكرون ما علم من الدين بالضرورة ، أو قهرتهم الأمارة بالسوء، أو مال بهم طبعهم الخبيث إلى ما يخاف الشريعة المطهرة.

وفى قوله **"شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ"** إشارة إلى أن شهيد بمعنى شاهد ، والشاهد هنا أما أن يكون شاهدا على غيره بحقائق شهدها أو علمها يقينا ، أو يكون شهد بنفسه أسرارا من الغيب تفضل الله بها عليه بحسب ما وهبه من النفس الملكية أو بحسب رياضته وجهاده ، وهنا يجب أن يحصن نفسه بحصون الأدب عند شهوده ، فإن للشيطان مكائد ودسائس ووسوسة لا ينجو منها إلا عباد الله المخلصين الذين أخلصهم سبحانه لذاته العلية.

قوله تعالى : **"وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى"** أى ولا يوقعكم فى الإثم بغض قوم على عدم العدل معهم ، وذلك لأن قريشا منعوا رسول اللهε أربعة آلاف وأربعمائة رجل خرجوا للعمرة فصدهم قريش عنها ، حتى أرسل رسول اللهε عثمان بن عفان ليتفاوض مع قريش ، فغاب هناك ليلتين أو أكثر حتى تواتر الكلام أنهم قتلوه فحصل الهلع للصحابة ، ثم انطلق رسول اللهε تحت الشجرة وأسرع الصحابة إليه يبايعونه على أن يموتوا فى سبيل الله أو يدخلوا الحرم.

هذه الحادثة هى سبب نزول الآية ، وقد يكون لها أسباب أخرى كثيرة مثل الحوادث العديدة التى قاموا بها اليهود والكفار لأذية رسول الله وأصحابه مما جعلت فى قلوب الصحابة غضاضة ، والله تعالى يحب الرحمة والعدل فأمرنا سبحانه أن لا يجرمنا بغض هؤلاء القوم فنترك العدل معهم ، بل يجب علينا أن نعمل بالعدل مع أوليائنا وأعدائنا على السواء وننزل أحبابنا وخصومنا عند الحكم منزلة واحدة ، وهذا لا يمنع من أن قلوبنا تبغضهم بغضا حقيقيا ، وأن لا نسعى فى نفعهم أبدلا فلا نخدمهم فى أعمالنا ولا نستعين بهم فى حاجة ، إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك ، ومن وإلي كافرا أو قبل منه مساعدة أو استعان به فى غير ضرورة ذل ذلك على ضعف إيمانه ، ومع ذلك فالعدل فى الحكم عليهم

مطلوب منا بنص هذه الآية الكريمة ، وتاريخ قضاة المسلمين ملئ بالكثير من قصص عدل المسلمين مع أعدائهم.

قوله تعالى "**عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا**" أي على أن لا تقوموا بالعدل لعدوكم على حبيبكم.

قوله تعالى "**اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**" يأمرنا ربنا جل جلاله بأن نقوم بالعدل أمرا واجبا مهما كان الداعي موجبا للانتقام فإن العدل أقرب للتقوى ، وهنا أبين لك التقوى وقد شرحتها فيما سبق مرارا "التقوى" أن تذكر الله فلا تنساه ، وأن تطيعه فلا تعصاه ، وأن توحده فلا تجحده ، وأن تشكره فلا تكفره ، وهذه هى التقوى التى قال الله فيها "اتقوا الله حق تقاته" فالتقوى بهذا المفهوم تجعل المتقى فى صفاء نفسي يتحرى به الحقيقة فيحكم بالعدل بين المتخاصمين.

قوله تعالى "**وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**" أمرنا جل جلاله بتقواه بالاسم العظيم وهو "الله" لأن الخطاب لأهل الإيمان به سبحانه ، ويكون الأمر بالتقوى هنا معينا للخوف من الله تعالى ، خوفا يجعلهم يسارعون إلى الوفاء بالعقود وإلى تنفيذ أوامر الله تعالى فيما أحبوا وما كرهوا وإلى رعاية العدل بقدر الطاقة فى من وإلا هم ومن خالفهم.

وتقوى الله تعالى هى مراقبة عظمته وكبريائه بالأرواح والقلوب ، وتنفيذ أوامره ونواهية بالعقول والأجسام ، وذلك بخلاف تقوى الرب ، فإن تقوى الرب خوف من العذاب ورغبة فى النعيم للخروج من الكفر إلى الإيمان ومن النفاق إلى الإخلاص.

"**إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**" هذه الآية بشرى لأهل الإيمان بالله وإنذار شديد لأهل الكفر والنفاق والمجاهرون بالمعصية ، فإن الله افتتح الآية بحرف التوكيد تقوية للخبر ثم أتى بالاسم العظيم الذى أحاط علما بهمات النفوس وخواطرها ، وخفى نواياها ومقاصدها ، وأعلم من باب أولى بحركات وسكنات وهمسات الأجسام ، فإذا تحقق العبد بأن الله خبير بما يعمل بقلبه وقالبه . وإنه سبحانه يحاسب على النقير والعظيم فيجازى بالإحسان ويزيد من فضله ، ويعذب المسئ بقدر إساءته عدلا من سبحانه ، أنزعج قلب المسارع إلى السوء وتاب من ذنبه ورجع عن عمله ، وفرح القائم لله بتنفيذ أوامره فاقبل مسارعا إلى محاب الله ومراضية سبحانه.

قوله تعالى : "**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**"(9).

الوعد والوعيد معلومان ، والوعد هو بشرى بنيل خير على عمل محبوب للآمر ، والوعيد هو إنذار بعقوبة تقع على المأمور المخالف ، ومعلوم من الدين بالضرورة أن الله تواب غفور ، فقد يخلف الوعيد ولكنه لا يخلف الوعد فضلا منه ولا وجوبا عليه . وهنا يخبرنا الله تعالى بأنه وعد الذين آمنوا أى عقدوا قلوبهم على توحيد الله تعالى ، وصححوا نواياهم على العمل بما أمرهم به ، وعزموا بإخلاص على ترك ما نهاهم عنه.

قوله تعالى "**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**" أى قاموا بتأدية فرائض الله وسنن نبيه التى جمع الله لنا بها كل خير فى ديننا ودنيانا وأخرتنا ، خيرا يعم الفرد فى نفسه وأسرته ومجتمعه الصغير والكبير إذا تمسك بما سنه رسول الله من أعمال صالحات . فما من حركة ولا سكنة من طرفة عين أو أكثر إلا ويتعلق بها حكم شرعى وأمر رباني علمه من علم وجهله من جهل.

قوله تعالى "**لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**" لما أن قال الله تعالى وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات اشتاقت نفوس أهل الإيمان إلى معرفة كنه هذا الوعد ، فكانت الآية كالجواب الموضح له ، وقوله تعالى "لهم مغفرة" أى للذين آمنوا وعملوا الصالحات مغفرة.

والمغفرة هى ستر الذنوب حتى عن الكتبة الكرام وعن نفس المذنب وعن معالمه وجوارحه من الأرض ، كما قالε "إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه وأنس ذلك معالمه وجوارحه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب" وقوله "وأجر عظيم" والأجر العظيم بحسب ما تفهمه العقول هو الفوز بالنعيم المقيم فى فردوس الله الأعلى ، أما بحسب أنه خبر من الله تعالى فذلك ما لا تتصوره قلوب البشر ، ولا يخطر حتى على قلوب الأخيار منهم ، وغاية ما تنتهى إليه العبارة أنه النظر إلى وجهه الكريم ، لأن قوله تعالى "عظيم" قول فوق عقولنا وأرواحنا حيث لا يعلم مدى عظمته إلا الله تعالى ، وفى نسبه الوعد إلى الله الغني عمن سواه المفتقر إليه كل ما عداه المنزه فى ذاته وأسمائه وأفعاله وصفاته ، حجة على أن هذا الوعد متحقق الحصول لا يخلف أبدا ، وما الذى يمنع وقوعه والذى وعد به هو القادر المطلق المقدرة الذى خلق السموات وما فيها ومن فيها بل وما فوقها ، والأرض وما عليها وما حولها وما تحتها بكلمة واحدة ، فسبحان من لا يخلف وعده فضلا منه وكرما ، وقد يخلف وعيده رحمة منه وإحسانا ، وأن كان الوعيد عدلا.

قوله تعالى : **"وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ"**(10).

بعد أن بين ما أعده لأهل الإيمان به فى الآية السابقة أردفه بما توعد به أعداءه ممن لم يؤمنوا بحبيبه محمدε بقوله تعالى **"وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ"** الطلق العبارة فى مقام الوعد إطلاقا واسعا ، وهنا قيده بالحصر المقضي بالخلود فى الجحيم وعيدا من الله تعالى ،والذين كفروا سترهم الحظ والهوى عن التسليم لله تعالى ولرسوله . فكفروا أى ستروا وكذبوا بآياتنا ، أى كذبوا بما أقام الله تعالى من الآيات دليلا على توحيده وعلى صدق نبيه محمدε.

"أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ" اسم الإشارة ، عائدا إلى الذين كفروا وكذبوا ، وأصحاب الجحيم ، أهلها الذين لا يفارقونها أبدا ، والجحيم هو طبقة من طبقات جهنم أشد عذابا من عذاب الحطمة ، نعوذ بالله تعالى من موجبات غضبه سبحانه.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"**(11).

يذكرنا ربنا سبحانه وتعالى بعديد نعمه بعد أن مكن لرسولهε وأصحابه فى الأرض ، وبما تفضل به علينا من القوة بعد الضعف والظهور بعد الخفاء حيث أيام مكة قبل الهجرة ، وما فعله بنوا النضير وقينقاع وقريظة وأخل خيبر بعد الهجرة ، مما يجعل النفوس تميل إلى الانتقام منهم عند النصر والغلبة ،وهو الأمر الذى لا يحبه الله من أهل الإيمان به سبحانه ، ويحب منهم أن يتجملوا بأخلاقه العلية التى منها العدل فى معاملة الأعداء والفضل فى معاملة الاوداء ، والنعمة المضافة إلى الله تعالى تفيد نعم الروح والجسد ، فمن نعم الروح الهداية للإسلام والإيمان برسولهε وبيان أسرار آياته وما يحبه ويرضاه م العقيدة التى بينها لنا فى القرآن.

قوله تعالى **"وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"** يأمرنا الله تعالى بملازمة تقواه سبحانه معتقدين أنه سبحانه يعصمنا من الناس ، لأن التقوى هى سبب كل خير ومن أراد الدنيا أو أراد الآخرة أو أراد العافية أو أراد رضوان الله الأكبر فعليه بالتقوى "وعلى الله فليتوكل المؤمنون" والتوكل هو تفويض كل الأمور إلى القوى القريب المجيب ، الذى يلبى من دعاه ويغيث من استغاث ويقبل توبة من تاب إليه ، ولا يكون التوكل على الله حقا إلا إذا كان من المؤمنين لأن المؤمن هو الذى صدق بما جاء من عند الله تعالى ، والواجب علينا أن نفوض جميع أمورنا لله تعالى راضين عن الله فيما قدره.

قوله تعالى : **"وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ"**(12).

بعد أن بين الله تعالى لنا ما هم به بنوا إسرائيل من بسط أيديهم إلينا بالنكاية والانتقام منا ، حسدا على ما تفضل الله به علينا من بعثة رسول اللهε ومن هدايتنا للإيمان ومن تشريفنا بإنزال القرآن لنا على لسان حبيبه ومصطفاه عليه الصلاة والسلام ، أخبرنا جل جلاله أنه أخذ ميثاق هؤلاء القوم على أن يطيعوه فى تنفيذ ما أمرهم به من الإيمان بالرسل وإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك مما بينه سبحانه فى هذه الآية ، فأبى سلفهم إلا خيانة الله تعالى وترك الوفاء بما واثقوه سبحانه عليه ، وليس عمل خلفهم المعاصرين لرسول اللهε ببدع بل هو سنة سلفهم وفطرتهم التى فطروا عليها ، فأنهم آذوا الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وخرجوا عليهم وكم قتلوا منهم ، وهذه الآية الشريفة أنزلها الله تعالى ليطمئن بها قلب النبيε وقلوبنا ، فإنا لا نزال ولن نزال نرى أعداء الله اليهود يسارعون إلى مساخط الله تعالى بمحاربة الإسلام وأهله ونصرة أعدائنا الإفرنج علينا.

قوله تعالى : **"وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا"** افتتح الآية بمؤكدين للخبر لأن اللام للقسم وقد للتحقيق ، وقوله أخذ الله ميثاق أى واثقناهم ميثاقا مؤكدا **"وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا"** والنقيب هو القائم بشأن من أقيم رئيسا عليهم ، والنقب هو الثقب فى الحائط ، والرئيس الذى يبحث عن شئون القوم ويراعى مصالحهم قياما بواجبه يسمى نقيبا.

يخبرنا ربنا جل جلاله أنه بعث من بنى إسرائيل أثنى عشر نقيبا أى أمر كليمه عليه السلام أن يبعث من كل سبط من أسباط بنى إسرائيل رجلا يمتاز بالحكمة والفطنة ليردوا أرض الجبارين التى وعد الله كليمه عليه السلام أو يورثها له ولقومه بعد هلاك العمالقة إذا وفى اليهود بميثاق الله تعالى ، فلما ذهب النقباء إلى أرض الجبارين ليتجسسوا عن أحوالهم وقوتهم ، لقيهم رجل منهم يسمى "عاج" ولعله المشهور "بعوج من عنق" وحملهم وذهب بهم إلى داره ووضعهم أمام زوجته ، وقال لها انظرى إلى هؤلاء الذين يريدون أن يقاتلونا ، وهم بقتلهم فمنعه وقالت دعهم ليخبروا قومهم بما رأوه ، فلما نجوا تعاهدوا أن لا يخبروا أسباطهم بما رأوه خوفا من ذعرهم وخروجهم على كليم الله عليه السلام ، فلما وصلوا أفشى عشرة منهم هذا السر ، وكتمه رجلان منهم هما يوشع بن لون ، وكلاب بن لوقيا ، فلما دعاهم موسى عليه السلام إلى حرب العالقة قالوا له **"فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ"**[1].

وهذا دليل على أن القوم فطروا على مخالفة الله تعالى ، والإنكار على رسله عليهم الصلاة والسلام من لدن الكليم عليه الصلاة والسلام.

"وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي" أى أأيدكم بنصرى وأعينكم بعنايتي إذا أنتم خرجتم لقتال العمالقة مع رسولي موسى فستقهروهم وتتمكنون من الأرض التى جعلناها لكم ، والمعية هنا يعنى الإغاثة والنجدة والعناية والتأييد ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل تقدم شرحها فى الآيات السابقة.

([1]) سورة المائدة آية : 24.

وهنا آخر قوله تعالى **"وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي"** عن قوله تعالى **"أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ"** لحكمة هى أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تقتضيان الإيمان بالرسل ن وذكر الإيمان بالرسل بعد ذلك من ذكر الخاص بعد العام لميزة خاصة هى الإيمان بكل الرسل وخصوصا بمحمدε ، لأن اليهود كانوا يصلون ويزكون بحكم التوراة ولكنهم لم يؤمنوا بخاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ، فذكر الله هنا الإيمان بالرسل بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لتقوم الحجة عليهم أن كفرهم بمحمدε كفرهم بالله وبجميع رسله وكتبه.

"وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا" معنى عزرتموهم أى أيدتموهم ونصرتموهم وعظمتموهم بحسن إتباعهم **"وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا"** القرض أن يقدم لغيره خيرا ينتفع به ، ويرده عليه بعد ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى ضمانا لنفسه أجره من الله . وهذا القرض الذى يستقرضه فى غيره من الخلق.

وفى هذه الآية الشريفة يبين الله لنا أن علم الخير الذى يقوم به العامل مما ينفع المسلمين فى دينهم أو دنياهم أو أبدانهم كأننا نعامل الله تعالى به تنزلا منه سبحانه وتعالى ليسارع فاعل الخير إلى عطائه ، فجعل سبحانه وتعالى ما نقدمه لرسول اللهε من المال والخيل والسلاح للجهاد فى سبيل الله قرضا اقترضه الله منا هو سبحانه وتعالى تنزه عن الاحتياج ولكنه جل جلاله يتفضل علينا بالمال وبالتوفيق لبذله فى سبيله ، ثم يتفضل فينسب ذلك إلينا وأنه اقترضه منا ، وهذا فضل من الله تعالى على فضل ، وهو المتفضل جل جلاله كما قال تعالى "والله ذو الفضل العظيم" وفى قوله العظيم بعد الفضل برهان على ما بينت فله الحمد سبحانه وله الشكر.

"لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ" أى لأسترن عنكم ذنوبكم حتى تلقوني وليس عليكم شاهد بذنب **"وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ"** اللام هنا داخلة على جواب القسم وهى القسم ،وجواب القسم صار جواباً للشرط فى قوله تعالى "لئن أقمتم الصلاة" وتكفير السيئات وإدخال الجنة مقيد بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وبالإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام ، والجنات هى البساتين الكثيرة والأشجار التى يستر شجرها من بداخلها عمن بخارجها ، وتجرى من تحتها الأنهار أى من تحت أشجارها.

"فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" أي فمن جحد بما واثق الله عليه من الإيمان بالله والإيمان برسله جميعا وخصوصا بمحمدε فقد ضل سواء السبيل ، والفاء رابطة للجواب وقد للتحقيق ، وضل أى مال وفارق وخالف وسواء السبيل هو وسط الطريق المستقيم وهو أقرب طريق يوصل إلى الله تعالى أو الرسول اللهε ، وكتاب الله هو الحبل الممدود بين الرسول وبين الله تعالى من يمسك به يصل إليه سبحانه ومن خالفه ، ضل سواء السبيل وكان من أصحاب النار الذين يخلدون فيها أبدا.

قوله تعالى : **"فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"**(13).

هذه الآية مرتبطة بالتى قبلها وهى قوله تعالى **"فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ"** فنقضوا عهدهم وميثاقهم الذى واثقهم الله به ، وكفورا بالله وبنبيه محمدε وبكفرهم قال الله تعالى **"فَبِمَا**

نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ" أي فبنقضهم الميثاق الذى واثقهم الله عليه لعنهم الله تعالى أى أبعدهم وصدهم عن سبيله وجعل مالهم إلى النار.

"وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً" أى جامدة جافية لا تقبل نور الإيمان ، والقلب القاسي هو الذى عليه قفل ، والقاسي أيضا فى اللغة هو الدينار المزيف المختلط بحديد ونحاس وذهب ،وكذلك القلب القاسى هو الممتلئ تجويفه نفاقا وجحودا لله تعالى ولرسولهε وبذلك يكون معنى "قلوبهم قاسية" كالدنانير المغشوشة المزيفة التى لا يطهرها من زيفها إلا النار.

وفى هذه الآية بيان لرسول اللهε أن اليهود جبلوا على نقض الميثاق وعلى خيانة الله ورسوله من منذ موسى عليه السلام فلا عجب أن هم أظهروا ما جبلت عليه نفوسهم مع خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه.

"يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ" أى يغيرون أحكام الله تعالى وبشائره بنيه محمدε ، وكم غيروا أحكاما وأخفوا أخبارا لنيل ما يفنى من متاع الدنيا وتاريخهم خير شاهد على ذلك.

قوله تعالى **"وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ"** أى تركوا نصيبا وافرا مما ذكرهم الله به وبينته لهم الأنبياء من لدن موسى عليه السلام ، وقد تقدم تفسير هذه الآية فيما سبق.

"وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" أثبت الله بهذه الآية ما عليه اليهود من خبث الطبع ومن الانقياد للنفس الإمارة بالسوء النزاعة إلى ما يغضب الله تعالى ، ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يخبر حبيبه ومصطفاهε أن اليهود لا ينفكون يخادعون الله ورسوله ويصدون عن سبيله سبحانه وقوله تعالى **"عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ"** يراد بها القوم إذ لو كان المراد به واحدا لقال خائن ، وأن كان بعض العرب يدخل حرف التاء على المشتقات كاسم الفاعل واسم المفعول أيضا وعلى المصدر بمعنى خاص ، ولكن تأويل الآية يناسب قوله "إلا قليلا" مستثني من الهاء والميم فى قوله "منهم" المتقدمة ، ولما كان من حكمة بعثة الرسل أن يكونوا حجة على الجاحدين منهم أراد جل جلاله أن تكون الحجة عليهم من كل أنحاء الدعوى فقال **"فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ"**.

هذا إذا كان الأمر من الله تعالى لرسوله بالعفو عن جميع اليهود ، أما إذا كان مراد الله تعالى العفو والصفح عمن استثناهم فتكون الآية محكمة لا نسخ فيها ، ويكون العفو والصفح عن صغائر من استثناهم الله تعالى ، لأن قوله الله تعالى فاعف واصفح بذكر العفو والصفح هنا دليل على أن الصفح والعفو لا يجتمعان إلا لمؤمن ، ويكون العفو والصفح عن هفواته وصغائره وسيئاته التى لم يتوعد الله تعالى فى القرآن بدخول النار عليها.

"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" الإحسان نتيجة اليقين الحق ، ولا يكون ذلك إلا إذا تفضل الله على المؤمن بمشاهد التوحيد العلية التى بها يكون محسنا فى أعمال القلب وأعمال الجوارح إحسانا يرفعه إلى مقامات الشهود بعد كمال الإخلاص ، فإن الرجل قد يكون مخلصا ولا يخلو قلبه من شوب الشرك كما قالε "والمخلصون على خطر عظيم".

وقد بشر الله المحسنين بمحبته لهم ، وليس فوق محبة الله تعالى للعبد مقام يعرف لأن الله تعالى إذا أحب عبدا جمله بمعاني صفاته فصار يبصر الله ويسمع بالله ويتكلم بالله ويبطش بالله ،ومن منح هذا المقام من الله تعالى فقد أوتي خيرا كثيرا ، قالε فى الحديث الطويل برواية البخاري ، "ولا يزال

عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذي يبصر به" الحديث . . .

وفى قوله "**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**" فى ختام الآية إشارة إلى أن المؤمن إذا عفا عن المسئ وصفح عنه فقد أحسن كما قال ابن عباس رضى الله عنهما "من عفا من المسئ فهو محسن" وليس كل من عفا فقد أحسن ، وإنما العفو الذى يكون فاعله محسنا هو عفو الدعاة إلى الله الذين جعل الله لهم ما يشاؤن عنده ، فيعفون مع قدرتهم على أن يفرقوا قومهم أو يخسفوا بهم الأرض أو يهلكوهم كما فعل نوح وموسى ، ولكن رسول اللهε كان كما أوذى من قريش أو من أهل مكة قال اللهم أهد قومى فإنهم لا يعلمون وهذا العفو هو الإحسان الأكمل.

قوله تعالى : "**وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**"(14).

بعد أن بين لنا سبحانه وتعالى ما جبل عليه اليهود – قاتلهم الله – من الكفر بالله وبرسله ،ومن تحريفهم أحكام الله وأخباره فى التوراة وخصوصا ما أنزله الله على موسى عليه الصلاة والسلام من نعوت نبيناصلى الله عليه وسلم ، وهنا يبين لنا ما عليه النصارى من الكفر بالله ورسوله وتحريف كلامه سبحانه.

قوله تعالى "**وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ**" أى أن الله تعالى يخبرنا أنه أخذ ميثاق الذين قالوا أنا نصارى "فنسوا حظا مما ذكروا به". أى فتركوا نصيبا مما ذكرهم الله به فى الإنجيل على لسان عيسى من صفات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد أخبرهم المسيح عليه السلام أنه يتمني أن يحمل حذاءه ، وأنه سيكون رسول الحرب والملاحم ينتقم الله به من أعدائه وأعداء أنبيائه وقد سماه "البرقليط" أي راكب الجمل باللغة العبرية.

قالوا : "أنا نصارى" ولم يقل من النصارى ، إشارة إلى أنهم كذبوا فى ادعائهم نصر المسيح ، لأنه ورد أن المسيح قال من أنصارى إلى الله ، فقال الحواريون نحن أنصار الله ، فمعنى نصارى هنا أن ناصرون وليسوا منسوبين إلى البلد الذى ولد فيه عيسى حيث كانوا يسمون المسيح بالناصري ، ولو كان هذا الاسم بالنسبة لكان يقال ناصريون ، ويكونون كذبوا فى النسبة أيضا لفظا ومعنى ، أما اللفظ فظاهر أمره ، وأما المعنى فلانهم خالفوه بمغالاتهم فيه التى بلغت حد الإغراق بقول بعضهم من النسطورية أنه ابن الله ، وقول بعضهم "أنه الله" كقول اليعقوبية منهم ، وقول بعضهم "أنه أقنوم الكلمة" وهم القائلون بالحلول كالملكانية منهم.

بينت لك أن هذه الآية معجزة لأن القوم اختلفوا عند رفع المسيح مباشرة ، فالذى جاء منهم إلى مصر وهو "مرقس" نشر الدين ممزوجا بالعقائد الوثنية التى كانت قبل المسيح ببضع آلاف سنة ، وذلك أن "التثليث" كان دينا فرعونيا وهنديا ، أما الفراعنة فكانوا يعتقدون أن الآلهة ثلاث "الشمس والماء والهواء" ويرمزون إليها "باونيس" يعنى الأب "وازوذريس" يعنى الأم "وأمون رفع" يعنى الابن وبعضهم كان يقول "الشمس والماء والأرض" أو الشمس والأرض والنبات ، وعند الهنود القدماء كان معبودهم "الثالوث المقدس" وهو جسم إنسان عليه ثلاث رءوس كما يرمز الفراعنة بصفة القوة بجسم سبع عليه رأس إنسان "أبو الهول" وأما الذى فر إلى إيطاليا فإنه قال بالحلول صار البابا هناك يبلغ مقام القداسة لأن المسيح حل فيه ، وغيرهم من المانوية والملكان لهم مذاهب تقرب من تلك المذاهب وبينهم من الحروب والخصومات ما بقى أثره إلى اليوم.

هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى أن ما أصابهم فى الحياة الدنيا بسبب الكفر لا ينجيهم من العذاب على الكفر يوم القيامة ، فإن قوله تعالى "وسوف" تدل على الزمن البعيد الذى هو يوم القيامة . وقوله تعالى "ينبئهم الله" . أى يقيم عليهم الحجة بكفرهم ولديها يساقون إلى نار جهنم وبئس المصير.

قوله تعالى : **"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ"**(15).

قوله تعالى : **"يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"**(16).

المنادي هنا هم اليهود والنصارى لأن "ال" الداخلة على الكتاب للجنس أو للنوع أى يا أهل التوراة ويا أهل الإنجيل "قد جاءكم رسولنا" يعنى محمدε يظهر لكم صحة أحكام كثيرة كنتم تخفونها عن الناس عملا بالحظ والهوى ، ومما بينهε حكم الرجم الذى أخفاه اليهود ، وقد ورد أن وفدا من اليهود قدموا على رسول الله يسألونه عن الرجم فقال لهم "من أعلمكم فقالوا بن صوريا" ، فقال له رسول الله أأنت أعلمهم فقال سل ما شئت فقال لهε سألتك أأنت أعلمهم فلم تجبنى قال "أنهم يزعمون ذلك" فناشده بالذى أنزل التوراة على موسى والذى رفع الطور كأنه ظلة ، وناشده بالمواثيق التى أخذت عليه حتى أخذه الخوف والوجل فقال "أن نساءنا نساء حسان فكثر فينا القتل فاختصرنا العقوبة فجلدنا مائة وحلقنا الرءوس وجعلنا بدل حلق الرؤوس الدواب والإبل ، فحكم رسول الله عليهم بالرجم وأنزل الله فيهم "يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب.

"أى يترك كثيرا مما أخفيتموه عن الناس سترا لحالكم" ولأنه موضح فى القرآن ، ولم يترك رسول اللهε بيان ما أخفوه إقرارا على باطل بل لأن الله تعالى بين ذلك كله فى كتابه العزيز قوله تعالى **"قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ"** النور هو رسول الله محمدε ، لأن النور تنكشف به الحقائق لطالبها كالشمس ، وكذلك رسول اللهε ، فإنه شمس الله تعالى الذى يبين للقلوب العقائد فتنعقد عليها ، ويوضح للعقول آيات الله فتتفكر فيها ، ويكشف للأرواح جمال الله الظاهر فى أفاق الكون من معانى صفاته وأسرار أسمائه سبحانه وتعالى ، وبهذا النور تكون النجاة فى الدنيا والآخرة ، وبغيره يكون الهلاك فيهما معا.

فرسول الله هو النور الذى جاءنا من عند الله ، والكتاب هو القرآن المجيد ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والقرآن المجيد مهيمن على كل الكتب السماوية ، ناسخ لها فى الحقيقة مبين للغيب المصون.

يهدى به الله من أتبع رضوانه سبل معنى من المعان العالية وهو ضد السخط ،والرضا من الله تعالى عن العمل قبوله ، وعن العبد مواجهته بجمال وجهه ،وليس الرضا من العبد عن الله هو أنس القلب بواقع مر القضاء ، وإنما الرضا عن الله فيما قدره والصبر لله فى المسارعة للقيام بما أمر به وترك ما نهى عنه وفق ما أخبر به رسول الله وخاتم النبيين.

فالهداية يشترط فيها إتباع رضوان الله تعالى ، ومن اتبع رضوان الله تعالى ، ومن اتبع رضوان الله تعالى أقام الحجة لنفسه أن الله هداه سبل السلام أى طرق السلام الموصلة إلى الله تعالى – والسلام هو الله – المعنى يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام التى هى الصراط المستقيم ، وإنما أتى به

مجموعا هنا فقال سبله ن وأفرده فى غير هذه الآية مثل قوله "**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ**"[1] وقوله "**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**"[2] والمعنى واحد لأن "ال" الصراط للجنس ، والمراد به كل وجهة من أوجه العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات التى يكلف بها المسلم فهى أى سبيل من سبل الله تعالى ، والمراد أن أتبع طرق الله التى وضعها لعباده مستقيمة قويمة ، وهى أقرب طريق بين نقطتين معلومتين ، وهو أقصر الطرق وأقربها.

"**وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ**" الهاء والميم فى ويخرجهم عائدة إلى "من" فى قوله "ومن أتبع" والظلمات هى الكفر والنفاق ، ويلتحق بهما البدع المضلة و "إلى النور" أى إلى الإيمان أو إلى الاستقامة و "بأذنه" أى بتوفيقه بالحسنى السابقة.

"**وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**" أى ويرشدهم ويقبل بهم ويسدد خطاهم إلى صراط أى طريق مستقيم قصير جدا ، لأن الصراط المستقيم هو الخط المحدود بين نقطتين معلومتين وهو أقرب خط بينهما بخلاف الطرق المعوجة فإنها مع طولها كثيرة العقبات والمهاوى ، وهذا الصراط المستقيم كالحبل الذى يكون طرفه فى يد السالك والطرف الآخر عن المقصد الأعظم فمن تمسك به وسار على هديه لا يضل أبدا.

قوله تعالى : "**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**"(17).

الكفر معلوم وهو ستر الحقيقة وتغطيتها ، وهذه الآية قاصمة لظهور النصارى لأن المسيح بن مريم إنسان خرج من بطن أمه بعد أن مكث تسعة شهور دخل المشيمة وبين ذوراتها وفضلات الحيض ، وجنين فى مشيمة لا تسع أكثر من ثلاثة أرطال يستحيل على العقل بل وعلى البهائم السائمة أن تتصور أن بديع السموات والأرض وقيومها تسعة المشيمة أو تجانسة وهو العلى العظيم ، فقوله تعالى لقد "كفر" أى غطى عنهم الحق وستر لأن القوم انحطوا عن أسفل دركات الجماد ، لأنهم يعتقدون أن المسيح الذى عاش فى ذل وهوان وخزى ومهانة هو الله أو هو ابن الله ، ولا يعتقد هذه العقيدة من سطع على قلبه ساطعة نور من أنوار الحق فتحقق كفرهم أى تغطية الحق عنهم ولما كان الإنسان دينيا بالفطرة ، كانت النفوس الخبيثة البعيدة عن الحق تقبل الباطل مسلمة من غير نظرة عبرة ولا استدلال بآية.

وفى هذه الآية الشريفة حجة دامغة على انفراد الله بالألوهية الكاملة وانفراد المسيح بالعبودية التامة ، فلا فرق بين المسيح وبين أى مخلوق من مخلوقات الله إلا بما فضله الله به من أنه خلقه سبحانه من غير أب كما خلق حواء من غير أم ، وكما خلق آدم من غير أم ولا أب ، بل وكما خلق الكون جميعه من لا شئ ، ولذلك فإن الله تعالى يأمر سيد الرسل عليه الصلاة والسلام أن يقول للنصارى وخصوصا اليعقوبية منهم القائلين بالحلول "فمن يملك من الله شيئا أن أراد يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا" الفاء هنا للتعظيم ومن للاستفهام الإنكارى ، ويملك من الله شيئا أى يقدر أن يمنع إرادة الله إذا قدرت إهلاك المسيح وأمه ، لأن الله هو الاله القادر الفعال المختار سبحانه ، وكل ما عداه ومن سواه عبيد مقهورون وعباد مربوبون لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، وقد أهلك الله مريم أم المسيح فلم يملك المسيح لها من الله شيئا ، وسلط أعداءه ، اليهود على المسيح فأذلوه وأهانوه وهموا بصلبه

([1]) سورة النحل : 125.

(2) سورة الفاتحة : 6.

ولكن الله رفعه إليه . لا لأنه ابن الله تنزه وتعالى بل لأنه عبد فضله الله بالرسالة فاهانه أعداء الله تعالى كفرا بالله وجحدا لآياته فأكرمه الله برفعه إلى السماء ، وسيهلكه بالموت بعد نزوله من السماء من غير أن يقدر أحد على أن يمنع ما قدره الله على عبد من عبيده.

قوله تعالى **"وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا"** هذه الآية حجة دامغة على أن الأرض ومن فيها عبيد أذلاء مضطرون لا حول ولا قوة لهم إلا بالله العلي العظيم ، وأنه سبحانه هو المنفرد بالقوة والقدرة والقهر.

"وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" هذه الآية الشريفة من مقولة رسول اللهε الذى أمره الله بأن يقول للنصارى ، وهى حجة بعد حجة لأن ما فى السموات وما فى الأرض مملوك لله مخلوق له سبحانه ، وليس فى الأرض من كائن سواء كان نباتا أو حيوانا أو إنسانا إلا وهو مقهور بقهر الله تعالى وليس فيها نوع فيه شئ من الألوهة بل ولا فى الله سبحانه وتعالى شئ من الكون ، وتنزه ربنا وتعالى من أن يكون فى الأرض أو فى السموات منه شئ ، أو من أن يكون من الكائنات فى ذاته شئ ، فقوله سبحانه وتعالى "ولله ملك السموات والأرض" بمعنى الإيجاد والإمداد ، فالمسيح وأمه ومن فوقهما عبيد لله مملكون له سبحانه ، وكل رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم عبيد له سبحانه بل هم أعلم الخلق به وأشدهم خوفا منه وتعظيما لذاته جل جلاله ، وما كان لإنسان يرى مخلوقا يأكل ويشرب ويمرض ويتغوط ويفرح ويحزن ويخاف ويأمن ثم يتوهم أن فيه من الله شيئا ، أو أن ينتسب لله بغير العبودية الخاصة كما قال تعالى **"إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا"**[1] فإذا كان سكان السموات ومن فوقهم من الأرواح العالية وما فوق ذلك مما لا يعلم علمه إلا الله تعالى عبيد مقهورون وعباد مربوبون فكيف يتوهم أقل الناس عقلا أو واحدا منهم إله أو ابن للإله أعاذنا الله تعالى من الكفر به سبحانه.

"يخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" يعنى أنه سبحانه هو الخلاق العظيم ، إذا شاء أن يخلق خلقا لا يكرهه غيره على خلق ما لا يشاؤه أو ما لا يشاؤه ، وهو سبحانه إذا شاء أن يخلق إنسانا من الطين خلق كآدم ، أو إذا شاء أن يخلق إنسانه من إنسان خلق كما خلق حواء من آدم ، أو إذا شاء أن يخلق إنسانا من امرأة خلق كما خلق عيسى ، أو إذا شاء أن يخلق من مات ومضى عليه بضع مئات سنين خلق وأعاد سبحانه كما فعل بأصحاب الكهف ، وكما خلق وأعاد عزيرا ، وكل مخلوق خلقه الله فهو عبد الله سبحانه ليست له إرادة ولا اختيار فى وجوده من العدم وفى إمداده بسوابغ النعم ، لا فرق بين عيسى وغيره من الخلق من حيث الإيجاد والإمداد والحياة والممات . أما ما كان يقوم به عبد الله عيسى بن مريم من معجزات ، فهى من فعل الله وإذنه وليس لعيس – عليه السلام – بذاته قدرة على فعل شئ وإنما هى إكرام من الله لرسله لتكون حجة لهم على قومهم.

قوله تعالى : **"وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ"**(18).

هذه الآية خبر من الله تعالى عن اليهود والنصارى أنزلها سبحانه ليرتب عليها حكمة عليهم بكذبهم عليه سبحانه ، أما اليهود فقد ورد عن ابن عباس "رضى الله عنه" قال أتى رسول اللهε عثمان بن أصر ونجوى بن عمر وشاس بن عدى فكلموه وكلمهمε فدعاهم إلى الله وحظرهم نقمته ، فقالوا ما

([1]) سورة مريم : 93.

تخوفنا يا محمد نحن والله أبناء الله وأحباؤه ، وهو قول النصارى أيضا ، فأنزل الله هذه الآية فيهم جميعا.

فكما قالوا المسيح بن الله ، والمسيح معبودهم فجعلوا أنفسهم أبناء الله ، وجائز أنهم تمسكوا بقول المسيح فى الإنجيل اعبدوا أبى وأباكم الذى فى السماء ، وعلى فرض صحة هذه الكلمة عن عيسى عليه السلام ، فإن المراد بأبوة الله له ولهم إنما هى الرحمة والعناية والشفقة بسبب ما أسداه للخلق من سوابغ النعم ، وليس مراد عيسى عليه السلام بالأب كأبوة الرجل لابنه من ظهره . تنزه الله وتعالى علوا كبيرا.

فأثبت أنه جل جلاله لم يتخذ من الخلق أبناء ولا أحباء لأنه لم يحب أحد من الخلق بذاته ، لأنه ينتسب إليه كنسب الخلق إلى الخلق ولكن الذى يحبه الله فى العبد ما زاد على الإنسان من العلم والعمل ، ومن الأدب لله فى الخشية منه وحسن إتباع رسله عليهم السلام قال تعالى : **"إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"** ثم أقام الله الحجة على كذبهم وافتراتهم بهذه الآية.

"قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ" يأمر حبيبه محمداع بقوله قل لليهود والنصارى الذين يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه أن دعواكم هذه كذب بدليل أنه سبحانه وتعالى عذبهم فى الدنيا بنتق الجبل فوقهم ،وبخسئهم قردة وخنازير ، وبأمرهم أن يقتل بعضهم بعضا لعبادة العجل ، وبإجلائهم من بيت المقدس على أيدي الرومان ، وبضرب الجزية عليهم وبإلقاء العداوة والبغضاء بينهم وبين النصارى وبين بعضهم ، وهذا عذاب أثبت غضب الله عليهم ،والعذاب من الله تعالى فى الدنيا وفى الآخرة، وقد تحقق وقوعه فى الدنيا فيكون وقعه فى الآخرة أشد لأنه سيكون بالخلود فى نار جهنم.

وأمهال الله بعض الكافرين ، إنما يكون إذا كان أهل الإسلام تركوا العمل بكتاب الله وبسنة رسول الله فسلط الله عليهم من لا يرحمهم وأنا نرى الله تعالى فى هذا الزمان أمهل أعدائه الكافرين تأديبا لنا ، لأننا أهملنا العمل بكتابه وبسنة نبيه ، وأني أسأل الله أن يكون أمهاله للكافرين تأديبا لنا وليس انتقاما منا ، فالله تعالى وأن أمهل لا يهمل فنسأله أن يوفقنا للتوبة والإنابة إليه حتى يباغت أعدائه وأعداءنا بعاجل نقمته نصرة لنا كما وعدنا بقوله **"وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ"**[1].

"بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ" أي يوفق من يشاء للإيمان ويشرح صدره للإسلام ويهديه صراطه المستقيم ويغفر له ذنوبه التى ارتكبها قبل الإسلام ، فينعم عليه فى الدنيا بالعلم النافع والعمل الرافع والقلب الخاشع ، ويعذب من يشاء ممن لم يرد له الهداية ولم يقدر له العناية فيعيش كافرا ويموت كافرا فيعذبه فى الدنيا بحرمانه من الفوز بمعرفته سبحانه ومن المسارعة إلى عبادته ويعذبه فى الآخرة بالخلود فى نار جهنم.

"وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ" هذه الآية الشريفة بيان من الله تعالى لأهل الإيمان به ، وإقامة للحجة على اليهود والنصارى أنهم كانوا فى دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وعلى زعمهم بنوة المسيح والعزير عليهما السلام لله تعالى ، تنزه من له ملك السموات والأرض وهو الملك المتصرف فى ملكه ، وما سواه ومن سواه تحت تصريف قدرته وإرادته وقهره ومشيئته تنزه أن يكون له ولد يدلي إليه بنسب أبوة وبنوه أو يكون له حبيب مجانس له وهو العلى العظيم . وإنما حب الله للعبد هو إرادة الله تعالى اسباغ نعم الأرواح والأشباح عليه . ورحمته تعالى هى إرادة الله منح العبد نعم الدنيا فقط وواسع رحمته جل جلاله هى إرادة الله تعالى أن يعطى العبد نعم الدنيا وثواب الآخرة.

([1]) سورة الروم : 47.

قوله تعالى **"وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ"** أى أن الله تعالى هو الذى افتتح وجود الكائنات بقدرته وإرادته وقدر لها ما به حفظ بقائها حتى تتم دورتها ، وبعد فنائها ينشئها النشأة الآخرة وتعود إليه سبحانه كما بدأها أولا فيكون مصيرها إليه جل جلاله ، بذلك تبطل مزاعم أهل الكفر بالله وتخرصات أهل الأهواء والغواية.

قوله تعالى : **"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"**(19).

سبب نزول هذه الآية أن معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة ابن وهبة لليهود بعد أن دعاهم رسول اللهε إلى الإسلام فقالوا ما بعث الله من نبى بعد موسى ولا أنزل بعد التوراة كتابا فقالوا لليهود " يا معشر اليهود اتقوا الله فو الله أنكم لتعلمون أنه رسول الله لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته" فقال نافع بن حرمله ووهب بن يهوذا "ما قلنا هذا لكم وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده" فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

قوله تعالى : **"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا"** وأهل الكتاب هنا هم اليهود فقط ، لأن الآية نزلت فيهم كما بينت لك و "قد" هنا للتحقيق و "رسولنا" نسبة سبحانه إليه بضمير الجمع "نا" التى تدل على العظمة تنبيها لقدرةε وأنه خاتم الرسل الجامع لكل ما جاء به الرسل وزيادة ، فإن إضافة رسول الله إلى الضمير المفيد للعظمة دليل على كمال خصوصيتهε .

قوله تعالى : **"يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ"** أى يظهر لكم ما أخفيتموه من التوراة بسبب حسدكم لهε ، ويظهر ما به كمال دين الله تعالى مما لم ينزله الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الإسفار السابقة . و "على فترة من الرسل" أى على انقطاع من بعثة الرسل ، فإن المدة الزمنية الفاصلة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام مختلف فيها ، فمنهم من قال هى ستمائة سنة ، وبعضهم يقول خمسمائة وخمسون ، وبعضهم يقول غير ذلك ، و "الفترة" – هى مدة الانقطاع كما يقولون فتر الرجل – أى انقطع عنه ما كان يقوم به فى شئونه – وتلك الفترة كما هو مقرر نسخ فيها الدين السابق ،وأهل الفترة ليسوا أهل دين ، فإن كان نبي يموت تنسخ شريعته ، لأن الله قدر أن يبعث بعد كل رسول رسولا حتى يأتي بخاتم الأنبياءε .

قوله تعالى : **"أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ"** هذه الآية حجة على اليهود الذين يعملون من كتابهم بعثة الله للنبي العربي الذى هو من ولد إسماعيل ، كما بشر بذلك إبراهيم فمن بعده من الرسل إلى عيسى عليه السلام.

وقد صرحت الأناجيل التي هي بأيديهم مع ما فيها من التغيير والتبديل بذكر الرسولε ، وفى صريح التوراة نعت رسول الله ومكان مولده وهجرته ، وكان اليهود قاتلهم الله يهددون أهل الجاهلية بظهوره – فيقولون "سيظهر نبي آخر الزمان وسنقاتلكم معه " ، فلما أظهره الله حسده معاصروهε من اليهود فجحدوا ما فى التوراة وحرفوا الكلم عن مواضعه ، وكأن لقائل أن يقول أن الله تعالى إذا أقام الناس للحساب يوم القيامة وكانوا أهل فترة يقولون "ما جاءنا من بشير ولا نذير" فأقام الله الحجة عليهم بقوله "أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير" وبشير معناها الأخبار بخبر ثواب ونذير معناها التحذير من سوء العقاب.

قوله تعالى : **"فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"** ، تقدم معنى بشير ونذير فى الآيات السابقة ، وهذه الآية حجة أخرى دالة على أن صاحب القدرة والقوة المطلقة والحكم العدل الخبير الحكيم قادر على أن يبعث من شاء إلى من شاء من ولد يعقوب ومن ولد إسماعيل ، لأنه جل جلاله قادر لا يعجزه شئ وكل من سواه وما عداه عبيد مقهورون كما قدمت بيانه فيما سبق.

قوله تعالى : **"وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ"**(20).

يبين الله تعالى لرسولهε سرا من أسرار التوراة لا يعمله إلا الله لتقوم الحجة عليهم فتقصم ظهورهم ، ومعنى الآية واذكروا وقت قول موسى عليه السلام لقومه بعد عبادة العجل " يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم" أى تذكروا ما تفضل الله به عليكم ، ونعمة الله تعالى كما بينت قبلا هى كل الحقائق المتعلقة بالأرواح من إثبات عقائد التوحيد علما أو إظهار معجزة تدل عليها ، وكل ما تقوى به أنوار الروح من علم أو إكرام الهي.

"إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ" قبل ظهور موسى وفى زمانه ، أما قبل ظهوره ففيما أخبرنا الله به عن الأسباط ومن ذكرهم فى الآيات القرآنية قبل موسى ، وأما فى زمانه فمنهم السبعون الذين اختارهم موسى ليكونوا شفعاء عند الله ليغفر لقومه عبادتهم العجل.

"وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا" أى جعل كل واحد منكم ملكا ، لأن الملك شرعا هو من له بيت يؤويه وزوجة تؤنسه وخادم يعينه ، منحه الله بيتا يؤويه وقوتا يقويه فهو غنى ، وأن تزوج صار ملكا.

"وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ" أى أعطاكم المن والسلوى ، والحجر ، والعصا ، وظل عليكم الغمام ومنحكم الحرية بعد أن كنتم أرقاء تحت أيدى فرعون ، وملككم أنفسكم وغير ذلك مما لم يفز به أمة من الأمم قبلكم.

والمراد بقوله ما لم يؤت أحدا من العالمين فى عصرهم ، وإلا فإنه سبحانه أتانا ما لم يؤت بني إسرائيل فى الدنيا وفى الآخرة وما لا يحصى ولا يعد.

قوله تعالى : **"يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ"**(21).

هذه الآية الشريفة من كليم الله تعالى دلت على أنه وقف معهم موقف بشير ونذير ، ففيها بشرى بأن الله كتب لهم الأرض المقدسة إغراء على جهاد الجبابرة وتخويف من غضب الله عليه إذا هم أدبروا وتقاعسوا عن القيام بما أمر الله به ، فقوله تعالى "يا قومي" بالإضافة إلى ياء المتكلم تشريف لبني إسرائيل.

قوله تعالى : **"ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ"** أى يخذوا الاهبة واستعدوا للقاء عدوكم ، لأن الأرض المقدسة التى يعنيها الأمر هى الأرض التى كان يسكنها الجبارون من العمالقة ،ولا يمكن الحلول بها إلا بقهر العمالقة وإخراجهم منها ، وتلك الأرض المقدسة كما قاله بعض العلماء أن الخليل وقف على جبل لبنان فأوحى الله إليه أنظر بعينيك فما وصل إليه طرفك فهى الأرض المقدسة التى كتبناها لبنيك ، وقال آخرون وهى الطور وما حواليه ، وقال بعضهم هى أريحيا ، وقال غيرهم هى فلسطين والأردن ودمشق ، وقال آخرون هى ما بين العريش من أعمال مصر وبين نهر الفرات ، وتشمل فلسطين والأردن وسوريا والطور.

"الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ" هذا الخطاب عام والمراد به خاص بدليل قوله تعالى "فإنها محرمة عليهم أربعين سنة" والظاهر أن المخاطبين لم يدخلوا الأرض المقدسة فما الجمع بينهما ، والجمع

بينهما أن الخطاب عام والمرد به خاص ، ولك أن تقول أن القوم دخلوا الأرض المقدسة وعاشوا فيها بعد الأربعين سنة.

قوله تعالى : **"وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ"** هذه الآية الشريفة بينت أن الاثنى عشر نقيبا الذين أرسلهم موسى عليه السلام إلى أرض الجبابرة بعد أن رجعوا إلى قومهم أخبروا موسى عليه السلام بحقيقة الأمر ، فأمرهم أن لا يخبروا القوم بذلك فأبى عشرة منهم وأخبروا بنى إسرائيل بالحقيقة فملئت قلوبهم جبنا ، فأنذرهم سيدنا موسى بقوله "يا قومى أدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا" أى ولا ترجعوا بظهوركم "فتنقلبوا" أى ترجعوا القهقرى "خاسرين" أما أن ترجعوا إلى مصر فتكونوا أرقاء تحت يد فرعون ، وأما ان تقيموا فى الطور فى شظف العيش وفى ذل معصية الله تعالى ومعصية رسوله عليه السلام ، ويزيد على ذلك الخسران يوم القيامة ، وقد تقدم الكلام على معنى الخسران.

قوله تعالى : **"قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ"**(22).

بعد أن بين الكليم عليه السلام لقومه ما بينه من أن الله تعالى كتب فى لوحة المحفوظ أن الأرض المقدسة لبني إسرائيل وأنه تعالى قدرها لهم ، وبعد أن بشرهم بهذا الخبر أنذرهم عاقبة المخالفة بقوله فتنقلبوا خاسرين ، أبى القوم دخول الأرض المقدسة بعد أن أخبرهم النقباء بما عليه الجبارون من ضخامة الأجسام وقوة الأبدان ، هذا الخبر من النقباء ، جعل بنى إسرائيل الذين عاشوا فى ذل ومهانة تحت سيطرة فرعون فهلعت قلوبهم هلعا جعلهم لا يصغون لأمر الكليم عليه السلام.

"وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا" نفوا عنهم دخولها نفيا مؤبدا ، لأن "لن" تفيد التأييد إلا ما قامت قرينة على غيره "حتى يخرجوا منها" أى أنهم لا يطيعون أمر الله تعالى بدخولهم الأرض المقدسة إلا بعد خروج الجبارين منها.

هذه الآية تطمئن قلوب المؤمنين ، لأن الله تعالى يبين لنا ما كان عليه اليهود من المخالفة والعناد مع كليم الله ، الذى يحتجون به لعينا ، فإذا كان هذا حالهم مع موسى عليه السلام ، وهو الذى يدعون أن الله لم يرسل بعده نبيا ولم ينزل بعد كتابه كتابا ، فكيف يكون حالهم مع النبيε ، والقوم أهل فرية وبهتان.

قوله تعالى : **"فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ"** الفاء هنا للفصيحة ، وأن شرطية ، ويخرجوا فعل الشرط "فإنا داخلون" الفاء رابطة للجواب ، وأن واسمها وخبرها جواب الشرط ، وصدر الجواب بأن التوكيدية تقوية للخبر بمعنى أنهم لن يدخلوها أبدا ما دام العمالقة فيها وهذا التأكيد دليل أكيد على ضعف إيمانهم بالله تعالى رغم ما أظهره الله عل يد موسى من معجزات باهرات.

قوله تعالى : **"قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"**(23).

بعد أن جلل اليهود أنفسهم بالخزى والنزوع إلى ما يغضب الله تعالى بقولهم ما قالوا لموسى عليه السلام ، **"قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ "** ، وظاهر اللفظ يفيد أن الرجلين من بنى إسرائيل لأن قوله "يخافون" أى يخافون من العمالقة كما يخاف قومهم **"أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا"** أي من عليهم باليقين والتثبيت والمسارعة إلى الجهاد فى سبيل الله تعالى ، **"ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ"** وهذه الآية تدل على أنهما يعلمان ضعف قلوب العمالقة رغم ضخامة أجسامهم.

قوله تعالى **"وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا"** أي اجعلوا توكلكم على الله ربكم فينصركم على أعداكم **"إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"** أي أن كنتم صدقتم الله ورسوله فتوكلوا على الله ، وقد تقدم الكلام على التوكيل وعلى صفات المتوكلين الذين آمنوا بالله ورسوله.

قوله تعالى : **"قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ"**(24).

هذه الآية الشريفة بينت ما جبل عليه اليهود فى زمان موسى عليه السلام ، فلا غرابة من سوء أعمالهم مع رسول اللهε وأصحابه ، ومعنى هذه الآية الشريفة أنهم قرروا عدم دخول الأرض المقدسة ما دام الجبارون فيها وتجاوزوا الأدب المناسب للمؤمنين مع رب العالمين حتى أثبتوا لأنفسهم الكفر بقولهم **"فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا"** فجعلوا لله جسما يذهب فيقاتل ، كما أنهم بالغوا فى عدم دخولهم الأرض المقدسة مبالغة حتى جعلوه مستحيلا، وجائز أن يكون مرادهم فاذهب أنت وربك يعينك على قتال العمالقة ،ومهما كان التأويل فإن سوء الأدب مخرج عن الإيمان.

"إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ" أى أنهم لا يرجعون إلى مصر خوفا من الفراعنة ، ولا يدخلون الأرض المقدسة خوفا من الجبارين ويقعدون فى الطور مخالفين لأمر الله تعالى ، ظنا منهم أن الله يديهم لهم ما أنعم به عليهم من تظليل بالغمام ، ومن إنزال المن والسلوى ، ومن الماء الذى تفجر فى الحجر ، والظاهر أن القوم مسخوا فانحطوا عن مرتبة الإنسانية إلى دركات الحيوانات الداجنة جبنا وبلادة وظلما لأنفسهم ، ولذلك فإن الله تعالى عاقبهم بالتيه أربعين سنة فى الطور كما سيأتي.

قوله تعالى : **"قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ"**(25).

بعد أن قال بنوا إسرائيل ما قولوه مما أغضب موسى عليه السلام وأقاموا الحجة على أنهم قوم عناديون ، دعا عليهم وأظهر نفسه بين يدى ربه بحقيقته التى هى كمال العبودية والعجز ، وهذا الكلام دليل على كمال الالتجاء إلى الله تعالى والشكوك إليه سبحانه من قومه.

"فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ" دعاء من موسى عليه السلام على من واجهوه من بنى إسرائيل بما لا يحبه منهم ، ومعنى أفرق أى باعد وأفصل، والفاسق هو الذى خرج من الحق إلى الباطل كما بينت لك من أن الفسق هو خلع الحية ثوبها فيقال فسقت الحية ، والفقس كما يقال فقست الدجاجة بيضها ن وفى هذه الآية بيان لطبائع اليهود وغرازهم من منذ الكليم عليه السلام ولا تزال تلك الخبائث تزداد منهم إلى زمان رسول اللهε وإلى زماننا هذا وإلى ما شاء الله تعالى.

قوله تعالى : **"قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ"**(26).

تفضل الله تعالى فاستجاب لموسى دعاؤه على قومه فحكم بتحريم الأرض المقدسة عليهم لا يدخلها واحد ممن قالوا "فإذهب أنت وربك فقاتلا" ، وهذا التحريم قد يكون تحريم عبادة أو تحريم منع ، فإن كان تحريم عبادة وجب عليهم شرعا أن لا يخرجوا من أرضهم أربعين سنة ، خصوصا من كانوا سببا فى هذا الحكم ، وإن كان التحريم قدرا قدره الله تعالى عليهم إنتقاما منهم ، فإن القدر نافذ سوءا هموا بالرجوع إلى مصر أو الخروج من الأرض إلى غيرها ، وظاهر الآية يدل على أن الأمر كان انتقاما منهم لا تعبدا بدليل قوله تعالى : **"يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ"**.

ولما كان الانتقام أو العذاب لا يقع على الرسل عليهم السلام ، لأن العذاب أو الانتقام مؤاخذة لله العبد بالآلام لمعصيته أمره سبحانه ،وهذا مستحيل على الرسل لأن الله عصمهم من معصيته ،

فإن كان التيه حصل لموسى وقومه فيكون هذا بالنسبة لموسى بردا وسلاما كما كانت النار بردا وسلاما بالنسبة للخليل عليه السلام.

"فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ" هذه الآية الشريفة أنزلها الله تعالى تعزية لموسى عليه السلام لأنه بعد أن دعا على بنى إسرائيل واستجاب الله دعاؤه ندم على عجلته لأن المصيبة عمت والحكم شمل ، فقال له الله لا تأس على القوم الفاسقين أي لا تحزن لحكمي على هؤلاء القوم الذين خرجوا من حظيرة السمع والطاعة لامري وأنى أعلم بنوايا قومك فانتقمن من الظالمين الفاسقين ولأرحمن الطائعين المتقين.

قوله تعالى : **"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ"**(27).

هذه الآية الشريفة بيان لما كان عليه اليهود فى كل زمان ومكان ، لأن ذكر ابني آدم وما وقع من قابيل وقتله لأخيه هابيل بسبب لا يقتضي القتل حجة على أن النفوس التى فطرها الله على الشر والخبث لا تنجو منه ولو كانت من صلب الأنبياء.

ومعنى الآية أتل يا محمد على بني إسرائيل المعاصرين لك نبأ ابنى آدم وهما هابيل وقابيل إذ قربا قربانا ، ولما كان زمنهم ليس فيه فقراء يتصدق عليهم كان الذى يريد أن يتصدق يقرب القربان إلى الله تعالى فيخرجه من ذمته فإذا قبله الله تعالى أرسل نارا فأخذته وإذا لم يقبله بقى ، وقد صح أنهما أرادا أن يتقربا إلى الله كل بشئ مما لديه من نوع القربات ، فقرب هابيل حملا من أجمل ما لديه من الشياة وقيل بقرة لأنه كان راعيا يرعى الإبل والغنم وقرب قابيل قمحا فى سنابله لأنه كان مزارعا يفلح الأرض، وكان هابيل مخلصا لله تعالى سمحت نفسه بالقربان ، وكان قابيل غير مخلص فتقبل الله قربان هابيل ، فقال له قابيل أنا لا أطيق أن أمشى فى أخوتي فيقال إنك أكرم عند الله منى فتقبل قربانك ولم يتقبل قربانى قال لأقتلنك ، وكان هابيل أقوى جسما وأعز مكانة وقابيل دونه قوة وجسما ، ومع ذلك رد عليهما أخبرنا الله به "قال إنما يتقبل الله من المتقين" وكان آدم حيا عندما قتل قابيل هابيل بعد أن طوعت له نفسه قتله ، فكان دمه أول دم سفك على الأرض حراما.

والتقوى هى الخوف وهى فى أنواع ، منها الخوف من الله الذى يجعل العبد يخلص الأعمال لوجهه الكريم ، والخوف الذى يجعل العبد يحفظ جوارحه ، والخوف الذى يجعل العبد يراقب ربه بقلبه ، والخوف الذى يكشف للعبد قدرى الدنيا والآخرة ، فينأى عن الدنيا احتقارا لها ، ويرغب فى الآخرة حرصا على نعيمها المقيم وملاذها الدائمة.

ومعنى **"إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ"** لأن التقى كما بينت لا يعمل إلا ما يحبه الله تعالى ، والله أكرم من أن يرد عملا محبوبا له سبحانه من عبد قام به ابتغاء مرضاته جل جلاله ، وكل أعمال غير الأتقياء لا تقبل ، لأن غير الأتقياء تكون عباداتهم عادات اعتادتها جوارحهم بحسب التقليد ، ومحبتهم لله طمع فى متاع الدنيا الفاني ، وشتان بين من عبد الله بوجد صادق ومن عبده عبادة معتاد عليها لا يتذوق طعم الخشوع فيها ، وبين من أحب الله وجدا بعد العلم بجماله وبهائه وضيائه ونوره وكماله ، وبين من أحب الله طمعا فى نيل مسرات الدنيا من شهرة وسيادة ونفوذ كلمة ، أو أحبه لنعيم الآخرة فجعل الله تعالى وسيلة لمقصد دونه ولكن الله تعالى هو المقصد الأعلى لأهل القلوب ، ولهذا قال أبو هريرة رضى الله عنه ، يا حبذا نوم الأكياس فهو خير من قيام أهل الأطماع.

قوله تعالى : **"لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ"**(28).

هذه الآية الشريفة هى المثل الأعلى فى الأخلاق الفاضلة ، لأن هابيل كان شجاعا جريئا قويا يرعى ماشيته أين ما يوجد الكلأ ، ويدفع عنها وحوش البر والبحر ، وكان قابيل صاحب حرص أقرب إلى الجبن من غيره.

وقد ظهر هذه المثل الأعلى فى يوسف الصديق عليه السلام ، حيث بعد أن رماه أخوته فى الجب وأخرجه المارة ، أسرع إليه من دفعوه فى الجب فقالوا أنه مملوكنا ، وكان يمكنه أن يكذبهم ويثبت حريته بأن ينتسب إلى يعقوب ، وكان قريبا منه ، فدعته نفسه الطاهرة إلى أن يكون أخوته ويصدقهم فى دعواهم من أن مملوك حتى رضى الرق وكره أن يفضح أخوته فأحسن إليهم ، وكمال الإحسان هو أن يحسن المسلم إلى من أساء إليه ، وهذا ميزان النفوس الذى توزن به مكنة العبد من ربه ، وقليل ما هم ، وأعجب من هذا أن الله تعالى لم يعب على أنباء يعقوب فى كل إساءاتهم إلى أخيهم وهذا هو الفضل العظيم ن نسأل الله أن يجملنا بأخلاقه سبحانه.

قوله تعالى "**إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**" يعنى يمنعني الخوف من الله أن أبسط يدى إليك بالبطش لتحققي من مراقبة الله تعالى مراقبة تجعلنى أراه معي فى شدتي ومسرتي ، وغضبى ورضائي ، وأن نازعتني نفسي أن أدفع عنها فبقدر ما لا يدفعني إلى أن أقتل ، لأن مشهدي الذي جملني الله به يمنعني أن أريد ذلك فضلا عن أن أفعل.

وهذه الآية حجة قائمة لهابيل على صفاء نفسه لأنه يمتنع عن إرادة السوء فضلا على أن يختاره ، والإرادة دون الاختيار ، فالإرادة فوق الخاطر وفوقها الاختيار قالε "من هم بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة" ولكن هابيل فى هذا المقام كره أن يريد سيئة لأخيه رغم ما كان فيه من عسرة ، وهو يملك القدرة على دفعها.

والخوف معلوم ، وهو توقع حصول الضرر ، أو توقع الحرمان من خير ، ففى الأولى يدافع عن نفسه ، وفى الثانية يسارع إلى رضاء ربه ومعنى "أني أخاف الله رب العالمين" أى أني أخاف عظمة الله فأسارع إلى علم ما يرضيه وأهاب كل عمل يؤدي إلى سخطه . وفى قوله "رب العالمين" إشارة إلى الخوف من وقوع الضرر فى الدنيا والآخرة ، أو فى الدنيا فقط ، أو فى الآخرة فقط ، ولذلك امتنع هابيل من أن يدافع عن نفسه ، لأن المدافعة محرمة شرعا فى هذا المقام ، لا يمكن أن يدفع أخاه عنه إلا بقتله ففضل الاستسلام للقتل حتى لا يبوء بإثم قتل أخيه قابيل.

قوله تعالى : "**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ**"(29).

هذه الآية الشريفة دلت على أنها خبر من الله لنا عن أبنى آدم ، وهابيل يحاول منع أخيه من قتله ووقوعه فيما يوجب عذابه يوم القيامة ، لأن كل كلام هابيل يتضمن استعطاف وتخويف قابيل من الوقوع فى قتله ، وفى قوله "بإثمي" أى بإثم قتلي ، وجائز أن يكون بإثمي أى باستسلامي لك وتركي الدفع عن نفسي حتى لا أقتلك ، حفظني الله من هذا الإثم ، ورد عليك.

وهنا نبين أن الواجب شرعا أن يدافع الإنسان عن نفسه ومالهما لم يعلم أنه إذا صصمم إلى المدافعة لزم قتل من يدافعه فإنه يمسك عن قتله – خصوصا إذا كان أخيه – ولو قلته الآخر ، وهذه شيمة كبار الصديقين "رضى الله عنهم" وأحكام الشريعة تبيح للمسلم أن يدافع عن نفسه ، وعرضه ، وماله ، ولو بقتل خصمه إلا من رغب فى رضوان الله الأكبر فإنه لا ينال إلا بإيثار ما عند الله على ما عند الأغيار ، وقليل ما هم.

قوله تعالى **"فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ"** أى من المخلدين فى النار ، لأن صاحب الدار هو الذى يدوم فيها ، والمعنى أن قابيل إذا قتل أخاه هابيل باء بغضب من الله تعالى ، وقد قال سبحانه فى كتابه العزيز : **" وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا"**[1] . .

قوله تعالى **"وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ"** الإشارة عائدة إلى قوله "فتكون من أصحاب النار" أى والخلود فى النار جزاء الظالمين أى الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب ما حرمه الله عليهم ووقوعهم فيما نهي عنه.

قوله تعالى : **"فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ"**(30).

معلوم أن النفوس العنادية لا يكبح جماحها وعدا ولا وعيدا ، بل كلما قامت الحجج ووضحت الدلائل تزداد عنادا وتحمسا وميلا إلى الباطل دون الحق ، وهذه كانت حال قابيل بعد أن قامت الحجة ووضحت المحة أن أخاه محق وأنه مبطل ، لم يرعوى عن قتل أخيه من غير ذنب جناه سوى ما أسعره الشيطان فى قلبه من نار الشهوة وحب الأثرة فعزم على قتله ، فسهلت له نفسه أمر القتل وشجعته عليه ويسرته له وهو معنى طوع.

"فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ" وطوع من طاعني الأمر أي سهله علي ، فيكون طوعت له نفسه أى سهلت ويسرت عليه قتل أخيه فقتله ، أى أوقع القتل به.

"فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ" أى الذين خسروا الدنيا والآخرة لأنه بقتل أخيه صار من حزب الخاسرين ، أما خسران الدنيا فعدم فوزه بمراده من القتل وبما ناله من غضب والديه وأخوته وبسلب إيمانه ، لأنه بعد قتل أخيه وسوس إليه الشيطان بقوله أن النار ما أكلت قربان هابيل إلا لأنه كان يعبدها فأعبدها أنت فبني بيتا للنار وعبدها ، فخسر الإيمان بالله وخسر الاستقامة على شريعته التى كان عليها أبوه ، أما خسران الآخرة فحرمانه من النعيم المقيم فى روضات الجنات وخلوده فى نار جهنم.

قوله تعالى : **"فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ"**(31).

لما قتل قابيل هابيل ولم يبين لنا الله تعالى كيف قتله ، وكان أول من مات على وجه الأرض من الأناسي وقد أسود وجه قابيل ، فلما رآه أبوه آدم قال له "أين أخوك" ، فأخبره كذبا فقال له لعلك قتلته ، فقال لم ؟ قال "لأن وجهك أسود" فذهب قابيل إلى مكان جثة هابيل ينظر إليه فرآه ملقي قد تغير جسمه ، فبعث الله كما أخبرنا غرابا حيا يبحث فى الأرض ليدفن غرابا ميتا ليعلم قابيل كيف يوارى سوءة أخيه أى "جيفته".

"قَالَ يَا وَيْلَتَا" كلمة تقال عند الحسرة والندامة **"أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ"** استفهام توبيخي **"فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي"** أي أخفي جيفته فى التراب **"فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ"** أي بعد أن قتله مدفوعا بنار الحقد والغيظ تلهب قلبه سقط فى يده وندم ، لا على أنه قتل أخاه ، بل على حرمانه من زواج توأمة ، لأن أباه آدم وأخوته حزنوا على هابيل حزنا جعلهم يقهرون قابيل على ترك توأمة ، ولو أنه ندم على قتل أخيه لكان الندم توبة منه قد يقبلها الله لو لا يقبلها فى الحديث "الندم توبة".

([1]) سورة الفرقان : 68 – 69.

قوله تعالى : **"مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ"**(32).

هذه الآية الشريفة متشابهة أكثر منها محكمة ، لأن سياق الآية يتكلم عن قتل قابيل لأخيه هابيل ، وتخصيص بنى إسرائيل بهذه الآية فيه غرابة اللهم إلا أن نقول أن القتل كان فى بنى إسرائيل وأن الآية نزلت لمناسبة قتل قابيل لأخيه هابيل وهما أبنا آدم ، ومعلوم أن اليهود قاتلهم الله قتلوا أنبياء وصديقين ، ويظهر لنا أن أكثر بنى إسرائيل هم من ذرية قابيل وأبنائه إلا الخليل عليه السلام وسبط الأنبياء منه ، لذلك فإنا نرى الكتب المقدسة تصف اليهود بالافتراء والعدوان ، ونرى التاريخ فى كل عصر من العصور يخبرنا عن مظالم اليهود المستمرة فى كل عصر ، ولو لم يكن من خبث طبعهم وظلم نفوسهم وسوء أعمالهم إلا ما هو ماثل بين أعيننا فى فلسطين لكان ذلك كافيا على أنهم من أولاد قابيل.

ومعنى كتبنا أى قدرنا ، فكتبنا فى اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه الأقدار التى قدرها على بنى إسرائيل.

"أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا".

معنى هذه الآية الشريفة أن المكتوب هو من قتل نفسا أى أفقدها الحياة بغير نفس ، أى بغير أن يكون صاحبها قد قتل نفسا فاستحق القتل شرعا قصاصا ، أو فسادا فى الأرض أى أن يكون أفسد فى الأرض بسلب الأموال أو بقطع طريق العامة ، أو بابتداع بدعة مضلة فى الدين ، فمن قتل من لم يفعل ذلك كان كمن قتل الناس جميعا ، لأن من قتل نفسا واحدة ، أو أفسد ولو فى بلد صغير يخلد فى النار كما يخلد من قتل الناس جميعا وأفسد فى الأرض جميعها – هذا قول بعض العلماء – والأولي أن يكون ذلك الحكم لمن قتل نبيا أو وليا ن أولياء الله تعالى ، لأنه بقتل النبي يكون كأنما قتل الناس جميعا برمانهم من الحياة الإيمانية ، لأن الحياة الجسمانية المجردة من الإيمان أضل من حياة البهائم السائمة ولا تعتبر الحياة حياة إلا بالإيمان ، فمن قتل نبيا أفقد العالم أجمع حياة الإيمان بالله ورسوله فصاروا بذلك أضل من الأنعام ، وتأويل الإفساد فى الأرض هو إفساد أله الأهواء المضلة ، والآراء المفسدة ، والمذاهب الباطلة ، وإفساد هؤلاء فى الأرض ولو فى بلد صغير إفساد للأرض كلها.

وقد عظم الله تعالى خطيئة قابيل تعظيما جعل العقول تحتار فيها ، لأنا نرى حكاما ظلمة وخصوصا فى عصرنا هذا قد اخترعوا مخترعات جهنمية لحصد النفوس الإنسانية ، فترى الظالم منهم يقود قومه ومعه المقذوفت النارية والغازات السامة والصواريخ الماحقة والآلات الجهنمية التى تحملها أيدى الأبالسة الذين نزعت من قلوبهم الرحمة فنسوا يوم الحساب ، ومع ذلك نرى الله تعالى يمهلهم مع فظاعة العمل ، حتى غر كثير من المسلمين هذا الإمهال فسارعوا فيهم.

والجواب أن قتل قابيل لهابيل أول بدعة حدثت على وجه الأرض ، وقابيل وهابيل ابنا آدم ولم يمت إنسان قبل قتل قابيل لهابيل ، وكان سببها لا يستوجب العتاب فضلا عن القتل ، وما قابل به هابيل أخاه قابيل مما يوجب العطف والرحمة شئ كثير ، ومما يوجب الخوف من الله والانزعاج منه سبحانه أكثر ، فدل ذلك على أن قابيل كانت نفسه خبيثة عنادية وأنه فتح بابا الشر على مصراعيه لبني آدم إلى يوم القيامة ، فكان تشديد الله تعالى عليه فى هذا عبرة للمعتبرين بعده.

وفى قوله تعالى **"مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ"** أي من أجل قتل قابيل لأخيه هابيل، أو من أجل قتل بنى إسرائيل أبناؤهم كتبنا هذه الآية التى يدل ظاهرها أن أحكام الله تعالى معللة بمصالح الخلق ، وهذا

التأويل يستحيل شرعا وعقلا لأن أحكام الله تعالى لا تعلل ، ولكنه جل جلاله يخاطب عباده على قدر عقولهم ، وما علينا إلا أن نسلم لأحكامه تسليما من غير أن نفتح أبواب الفتن علينا ، بعد أن ثبت أن رسول الله وأصحابه الكرام وتابعيه أمسكوا عن الخوض فيما خاض فيه أهل الكلام وغيرهم من أهل المذاهب ، ون أطلع على ما قولوه وصغى إليه أفسد على القلب خشوعه ، وعلى العقل نوره ، وعلى النفس سكونها إلى منفسها ، وعلى الجسم نشاطه لعبادة الله . قال تعالى **"فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا"**[1] وقد تقدم شرح معنى هذه الآية الشريفة.

قوله تعالى **"وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ"** اللام للقسم وقد للتحقيق ومجئ الرسل كان لبنى إسرائيل "بالبينات" أى بالآيات المبينات لسبل الله تعالى ولما حرمه الله من قتل الأنبياء.

قوله تعالى : **"ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ"** معنى هذه الآية أن كثيرا من بنى إسرائيل بعد بعثة الرسل بالبينات ، وبعد المواثيق التي أخذ عليهم ، وبعد ما أظهره الله تعالى على أيدي الرسل من المعجزات فإنهم في الأرض لمسرفون فى قتل الأنبياء والمسارعة إلى مغاضب الله تعالى. وفى هذه الآية الشريفة دلالة واضحة على أن القوم ممن أضلهم الله على علم فلا تزيدهم الآيات البينات والمعجزات الباهرات إلا طغيانا مبينا.

قوله تعالى : **"إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"**(33).

كان إفساد بنى إسرائيل فى الأرض قد أجمله الله فى الآية السابقة ، ثم فصله جل جلاله فى هذه الآية بمعنى أن جزاء الذين يحاربون الله أن يقتلوا أو يصلبوا . . الخ ، والله سبحانه وتعالى على عظيم عن أن يحاربه مخلقو مقهور ، والمراد يحاربون رسول اللهε فإن محاربة رسول اللهε محاربة لله تعالى ، ومن خالف أوامر الله التى أرسل بها رسله فهو محارب لله من حيث لا يعلم.

ولكمة "أو" هذه الآية ليست للتخير ولكن معنى أن يقتلوا أو يصلبوا أن الذي يتقل هو من قتل النفس بغير حق ، والذى يصلب هو من قطع الطريق واستعمل القوة فى سلب الأموال فى القرى أو فى الأمصار ، والذين تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف هم اللصوص الذين يسرفون أموال الناس دون استعمال القوة.

وقوله تعالى **"مِنْ خِلَافٍ"** أي تقطع الرجل اليسرى واليد اليمني أو بالعكس ، ، والذى ينفي من الأرض هو من قطع الطريق ولم يقتل نفسا ولم يسرق شيئا ، والنفي من الأرض هنا لا يكون بإخراجه من بلد إلى آخر من بلاد المسلمين لأنه يخشى منه على المسلمين ، ولا إلى أرض الكفار لأنه يخشى عليهم منهم أن يفسدوا عليه عقيدته ، وإنما النفي هو السجن الذى تدوم له فيه المراقبة ، وللإمام العدل أن يرى فيه رأيه بحسب هذه الآية الشريفة ، فقد يقتل أو يصلب أو تقطع يده أو ينفى بحسب اجتهاد الحاكم ، وليس له ولا لولي الدم أن يعفوا عن القاتل عمدا.

"ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ" الإشارة عائدة إلى ما حكم الله به عليهم من القتل أو الصلب أو النفى و "لهم" أى لمن حكم الله عليهم فنفذ فيهم الحكم "خزى" أى هوان وذل وصغار فى الحياة الدنيا ، ومع أنه شر الآلام فى الدنيا فكيف يكون عذاب يوم القيامة الذى أخبر الله عنه بقوله "ولهم فى الآخرة عذاب أليم" اللهم أنا نعوذ بك من الذنوب التى تغير النعم

([1]) سورة النساء : 65.

، والعذاب الأليم أي المؤلم ، وهذا العذاب الأليم لا تفي ببيانه العبارة لهوله وشدته ، وما تصوره ذو عقل إلا أقلع عن صغائر الهفوات فضلا عن كبائر السيئات.

قوله تعالى : **"إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"**(34).

معلوم أن الواجب قبل الاستثناء أن يقتلوا أو يصلبوا . . الخ ، والمستثني من هذا الجزاء هم الذين حكم الله عليهم بالصلب والقتل والنفي من الأرض ، والتوبة تقدم الكلام عليها ، ولا بد أن يكون تأويل هذه الآية أن التائبين هم الذين كانوا كفارا وفعلوا ما فعلوه مما أخبرنا الله عنه ، وكانوا مسلمين وحاربوا الله ورسوله مرتدين عن الإسلام ولهم عصبة قوية ، ورجعوا إلى بلاد الحرب ثم تابوا ، والتوبة هنا تسقط ما عليهم من الحدود والحقوق للناس بشرط أن يكونوا سلموا أنفسهم للإمام أو مندوبه من قبل أن يقدر عليهم ، وأما من لم تكن لهم عصبة ولم يرجعوا إلى بلاد الحرب ولم يسلموا أنفسهم فإن الحد يقام عليهم.

وأما أهل الإسلام الذين يقطعون السبيل أو يسلبون المال أو يقتلون النفس ولو كانت لهم عصبة وسلموا أنفسهم ، أو لم تكن لهم عصبة وسلموا أنفسهم قبل القدرة عليهم فعليهم الحد وعليهم مغرم ما أفسدوا ، قال بعضهم أن حقوق الله تسقط عنهم ولا يسقط عنهم حقوق العباد إذا سلموا أنفسهم قبل القدرة عليهم وهم مسلمون ، لأن أهل الكفر بالله أو المرتدين تجب التوبة ما قبلها لأنها دخول فى الإسلام جديد ، وأما أهل الإسلام فلن تجب توبتهم ما عليهم من الحقوق ، لأن هذا الباب لو اتسع لأفسد أخلاق كثيرين من أهل النفوس الضالة ، هذا ما فهم العلماء فى هذه الآية ، والله جل جلاله هو الولي الكبير له الملك المطلق ، المطلع على سرائر القلوب وخفاياها ، يغفر لمن يشاء بتوبة وبغير توبة لا يسأل عما يفعل ولا يتقيد سبحانه بشئ قوله تعالى **"مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ"** أي من قبل أن تمد إليهم يد الإمام بالبطش ، وقد فصلنا ذلك فيما سبق.

"فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" الفاء للفصيحة ، والتقدير إذا علمتم حكم الله على من حارب الله ورسوله وأفسدوا فى الأرض ، ولطف الله تعالى بهم ووفقهم للتوبة والدخول فى الإسلام فالله تعالى يغفر لهم ويرحمهم ، وهذه الآية بيان من الله تعالى للأئمة أن يؤمنوا التائبين الذين دخلوا فى الإسلام ، وينفذوا أحكام الله فيمن لم يتب قبل أن يقدروا عليه ،والمغفرة هى الستر والتغطية ، والرحمة هى إرادة الله الخير لعباده ، وغفور أى ستور تواب ، والرحمة هى إرادة الله الخير لعبادة ، وغفور أى يستر خطايا العبد حتى عن نفسه بل وعن الملائكة.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"**(35).

تأويل هذه الآية الشريفة يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله أيدوا دعواكم الإيمان بتقوى الله تعالى ، فإن التقوى تحفظ القلوب من نوايا السوء، وتحفظ الجوارح من عمل الشر ن ومن أدعي الإيمان بالله ورسوله وترك التقوى أقام الحجة على كذبه فى إيمانه – وقد تقدم بيان التقوى – وهذا الخطاب ن الله تعالى للمؤمنين دليل على عنايته سبحانه وتعالى بهم ، لأنه إذا قال سبحانه يا أيها الذين آمنوا أعقبها بقوله اعبدوا الله واتقوا الله ، بخلاف ما إذا خاطب الناس أو أهل الكفر به سبحانه فإنه يقول "يا أيها الناس اعبدوا ربكم" أو "يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعلمون".

"وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ" معلوم أن التقوى – هي التجرد مما يخالف الشريعة فى النفس والعقل والحس والجسم ، وابتغاء الوسيلة هو المسارعة إلى محاب الله ومراضية قياما بما أمر والانتهاء عما نه سبحانه ، فالوسيلة إلى الله تعالى هى الأخذ بالعزائم التى ترضيه سبحانه ، وخير الوسائل إلى الله

تعالى هو رسول اللهε ، واتخاذه وسيلة أن يعلى كلمته ويحيى سنته فى ثقة وغيرة قدر الاستطاعة ،ومن الوسائل أيضا صحبة أهل العلم والتقوى من المعاصرين لطالب الوسيلة فيقلدهم فى عقيدتهم وفى أحوالهم واستقامتهم مما تحقق فيه صحبة الاتباع لرسول اللهε ،وليس من الشرك أن يتوسل رجل برجل صالح تقى قريب من الله فيسأله الدعاء ويتلقى منه الأدعية التى يقبلها الله تعالى مع اعتقاده أن الضار النافع هو الله ، وأن غيره لا يضر ولا ينفع بذاته ولو كان نبيا مرسلا ، ولكنهم عليهم الصلاة والسلام وورثتهم رضى الله عنهم كالشمس والقمر والأنجم ، وكالماء والهواء ينفع الله بهم من شاء من عباده ويضر بهم من شاء ، فمن عمل بالسنة اتباعا لرسول اللهε نفعه الله برسولهε ، ومن خالف النبي عليه الصلاة والسلام أضره الله بسبب مخالفته ، وكذلك من استعمل الماء والهواء والشمس والقمر والنجوم بالحالة الوسطى نفعه الله بهم ، ومن تعدى الحالة الوسطى أضره الله سبحانه بهم ، وليس من مسلم مؤمن كائن من كان إلا وهو يعتقد أن الضار النافع هو الله تعالى ، وأن الله تعالى جعل أحبابه كالشموس المضيئة يهتدي بها الخلق إلى سبيله سبحانه.

قوله تعالى : **"وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ"** الجهاد نوعان:

1- جهاد العدو الخارجي.

2- جهاد العدو الداخلي.

فعدوك الداخلي نفسك التى بين جنبيك ، وجهادها هو الجهاد الأكبر لأنها أمارة بالسوء وهى التى تصد عن سبيل الله بالطمع فى الأموال والأولاد وإيثار النفس ما ليس لها ن ومن جاهدها حق الجهاد آثره الله تعالي فهداه واجتباه ، ومن أهمل جهاد نفسه دفعته إلى محاربة الله ورسوله وفارق الدنيا والله عليه غضبان فيدخل نار جهنم ويندم على ما فرط فى جنب الله ولات حين مندم ، والنفس جهادها صعب شديد وهو فى موضعين.

النوع الأول هو جهاد الطمع والشهوة فى البطن والفرج ، فقد يطمع فى مال اليتامى والجيران وما أؤتمن عليه ليسده شهوة بطنه مع أن رزقه مضمون على الله تعالى ، وشر الجوارح جارحة البطن وبها كل الشرور فى الدنيا ، وما ملأها بن آدم ولو م حلال إلا أورثته الغرور وأفسدت عليه حاله – فغضب وخاصم وفجر – فإذا ملأها من حرام هوت به إلى أسفل سافلين.

النوع الثاني من جهاد النفس هو الطمع ،وهذا النوع قد يشاب بما يجعله من القربات إلى الله تعال وهو شر القواطع ن كما طمع آدم فى الخلود فى الجنة ليدوم له الفرح بربه جل جلاله الذى أنعم عليه بتلك النعم ، وكما يطمع أهل المجاهدات فى أن يفوزوا بالتفريد فى عصورهم أو بالمقامات التى علموها فى سيرهم ، فيضيعون ما به نيل محاب الله ومراضية من تأدية الفرائض والواجبات بفعل نوافل البر وترك المباحات الشرعية من أكل وغيره وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، قالε برواية الإمام البخاري فى الحديث الطويل "وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه" فبين لنا رسول اللهε فى الحديث أن أحب شئ إلى الله من العبد هو تقربه إليه بأداء ما افترضه عليه ، أما نوافل البر فإنها تصح إلا بعد القيام بما افترضه الله علينا ، فقد يقوم الرجل الليل فى ذكر وفكر وصلاة ثم ينام عند طلوع الفجر ويظن أنه تقرب إلى الله بما فعله ، ومن ذلك ما يروى عن سليمان الفارسي مع أخيه أبي قتادة رضى الله عنهما حين كان منه فى بيته وصلي سليمان العشاء وختم صلاته وأضطجع فنام ، وقام أبو قتادة يصلى فى جوف الليل ، فأجلسه سليمان ، ولكنه قام بعد نومة سليمان فأجلسه ثانية ، لكنه عاد فقام بعد نومه فأجلسه ثالثة ، فقام أبو قتادة للمرة

الرابعة وظل ينتقل حتى طلع الفجر ، فقام سليمان فتوضا وتنفل ثم وجد قتادة نائما فوكزه برجله وقال له قم الآن فصل ، فغضب أبو قتادة وشكاه إلى رسول اللهε ، فلما جاء سليمان وأخبر رسول اللهε بما رآه منه ، قار رسول اللهε لأبي قتادة "أن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا ،وهذا الطمع فى نوال الخير يكون من المعاصي الخفية إذا لم يكن مؤيدا بالكتاب والسنة ، وللنفس دسائس تخفى إلا على أهل العلم بالله تعالى ، فيجب على السالك أن يعرض حاله على من فوقه فى العلم ليسلم من دسائسها الخفية.

أما جهاد أهل المعاصى فإنهم أعلم بظاهر حالهم ، وما على الواعظ إلا أن يبين له ما يحبه الله من الأعمال وما يكره ، ويفتح لهم أبواب التوبة واسعة ليطهروا ظاهرهم من رجس المخالفات.

وأما السالكون فإنهم يخشى عليهم من خفى المكر الإلهي ، وسوء عاقبة الرياء ، وحب الشهوة والجاه فى قلوب الناس ، والعمل للمنزلة بين الخلق.

وأني أحذر السالكين من شرور النساء ، فإن رجلا م خيرة الصحابة قال سددت فى وجه إبليس كل باب من أبوابه فلم يقهرني إلا من باب فتنة النساء، ولا أبيح السالك أن يخلو بأجنبية ليست ذات محرم أبدا إلا إذا دعت ضرورة سفر أو داعية إغاثة لدفع خطر ، اللهم إلا ما أباحه الشرع الشريف بقوله سبحانه **"وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ"**[1]. فإذا دعت الضرورة للخلوة بمثل هذه فما على المختلي بها حرج ، وكذلك الرجل إذا بلغ هذا الحد من السن حتى صار لا ترغب فيه النساء ولا يرى فى قلبه ميلا إليهن كما قال تعالى **"غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ"**[2] وأعلم حفظني الله وإياك أن طريق الله وعر المسالك وبالتالي فسالكه فى حاجة إلى صحبة مرشد على بصيرة يرشده إلى تجنب وسوسة الشيطان وميل النفوس الأمارة بالسوء ، وعلى كل من وقع فى معصية ظاهرة أو خفية أن يسارع إلى التوبة والاستغفار وهو على يقين من الله تعالى هو التواب الغفور.

قوله تعالى **"لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"** لعل هنا بمعنى "اللام" أى لتفلحون ، والافلاح هو بلوغ المقاصد كلها ، يقال أفلح المؤمن أى فاز بكل ما يبتغيه من ربه ، فمن ابتغى الجنة فاز بها ومن ابتغى الرضوان الأكبر تفضل الله به عليه قال تعالى **"قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ"**[3].

قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"**(36).

أي أن الذين جحدوا نبوة محمدε وأشركوا بالله تعالى مع وضوح الحجة استقامة ، وأبوا أن يقبلوا شريعة الإسلام **"لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا"** والجملة خبر أن والمعني لو أن لهم ما فى الأرض جميعا من جاه ومنزلة ونفوذ كلمة وكنوز وذخائر وقدموا كل ذلك ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ، وهذا تمثيل لما يحل بهم يومئذ من شديد العذاب وأليم العقاب ، وهى الحالة التى تهون فيها النفوس والنفائس ، مع أن هؤلاء الكفار دعاهم رسول اللهε بالحجة والموعظة الحسنة والمحجة البالغة والمعجزة الباهرة لأن يقولوا لا إله إلا الله فأبوا أن يقولوها ، وكان الواجب

([1]) سورة النور : 60.

(2) سورة النور : 31.

([3]) سورة المؤمنون : 1.

أن يؤمنوا بالغيب بمعنى أنهم لا يحوجون الرسل إلى إقامة الدلائل والبراهين والمعجزات ، فإن حقيقة التوحيد كالشمس فى رابعة النهار ن لأن الداعي إذا بينها هشت له القلوب وقبلتها العقول ، فكيف وقد قامت الحجج الناصعة عليها فأنكروا وجحدوا ، ولم تطالبهم الرسل عليهم السلام إلا بالإقرار بأنه لا إله إلا الله ، كذلك كان العدل أن لا تقبل منهم فدية مهما كانت قيمتها، ومن العدل أن يخلدوا فى نار جهنم لجحودهم ما لا يخفى على العقول.

قوله تعالى **"مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"** الواو هنا للحال ، ومعنى لهم دالة على خلودهم فى العذاب الأليم لأن الخلود متعلق باللام فى كل أحوال يوم القيامة.

وقوله تعالى : **"يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ"**(37).

معنى هذه الآية أن أهل النار يحبون الخروج منها لما يعانونه من شديد الآلام التى أنضجت جلودهم وليس كل محبوب ينال خصوصا عند أهل النار ، فإن الله حكم عليهم بالعذاب أبدا ولا معقب لحكمه سبحانه ، أما أهل الجنة فإن كان محبوب ينالونه لأن الله تعالى تفضل عليهم بالخلود فى الجنة فى نعيم مقيم قال تعالى : **"لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ"**[1].

وقوله تعالى **"وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا"** نفى الله عنهم الفوز بما يريدونه من الخروج من النار – والهاء المتصلة بمن عائدة إلى النار – وأكد الخبر باسمية الجملة.

قوله تعالى **"وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ"** الواو للحال "ولهم" تهديد وتشديد لأنه جعل العذاب لهم أي مصاحبهم لا يفارقهم "مقيم" أي دائم.

قوله تعالى : **"وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"**(38).

"ال" هذا اسم موصول بمعني "الذى" وسارق صلتها ، وتكون المعنى والذين يسرقون ، ولذلك صح رفعها ولو كانت "ال" هنا بمعنى التعريف أو للجنس لنصبها فقال "السارق والسارقة بالفتح".

قوله **"فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا"** حكم عام على كل سارق وسارقة واليد التى تقطع هى اليمين ، وقيمة ما تقطع فيه اليد اختلف العلماء فيه ، فقال مالك ثلاثة دراهم ، وقال أبو حنيفة عشرة دراهم ، وقال غيرهما ربع دينار ، وقال بعضهم نقطع اليد على السرقة ولو فى درهم ، لأن النفس الخبيثة متى عمدت إلى اغتصاب مال الغير كان القليل والكثير سواء ، ولكل رأي أدلة من عمل رسول اللهε ، وعمل الأئمة رضوان الله عليهم ، وفى المثل العامي . سارق البيضة يسرق الجمل.

قوله تعالى **"جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ"** . أى أن قطع اليد عقوبة من الله تعالى ، تنكيلا بهم بسبب مخالفتهم لأمر الله تعالى ، وهذا النكال هو من الله تعالى الذى بين لهم الحق والباطل والحلال والحرام فخالفوا أمره سبحانه وتعالى.

"وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" أي فله قورة وقهر فى بيان حكمه سبحانه وتعالى ، وفى تنفيذ قدره – أي ذو حكمة فيما قدره وفيما أمر ونهي.

قوله تعالى : **"فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"**(39).

([1]) سورة الزمر : 34.

والتوبة هى رد المظالم إلى أهلها ، والندم على ما فات ، والعزم على أن لا يعود ، ومن ندم المسلم على ما فعل أن يسارع إلى الإمام ليقيم عليه الحد راضي بحكم الله تعالى ، ومن رد المظالم إلى أهلها أن يرد ما سرقه من الأموال السر بالسر والعلانية بالعلانية ، وأن يعتذر إلى من اغتابه أو سبه أو أذاه السر بالسر والعلانية بالعلانية . وبرهان قبول توبته من الله تعالى قبوله إقامة الحدود عليه ، فقد ورد أن رجلا قال رسول اللهε "زنيت يا رسول الله" فقال رسول اللهε "بيدك درء الحد" فقال "لا" – فقال رسول اللهε بعينك قال "لا" وأصر على اعترافه بجريمة الزنا ن فقالε لمن معه "أفى عقل هذا الرجل شئ" فقالوا " يا رسول الله لا نعلم عليه إلا خيرا" منذ هداه الله للإسلام ، فأمرε برجمة فرجم حتى مات فسئلε "هل قبلت توبته" فقال عليه الصلاة والسلام ، لقد تاب توبة لو فرقت على مائتين من الناس لوسعتهم.

قوله تعالى "**مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ**" أى من بعد ظلمة لنفسه أو بالوقوع فى السرقة وغيرها ، وأصلح برد المصالح إلى أهلها واستقام فيما بقى من عمره.

قوله تعالى : "**فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ**" أي يقبل توبته ، وقبول توبته عفوه عن خطيئته فلا يعاقبه عليها يوم القيامة ، أو يعفو عنها ، ويبدلها حسنات.

قوله تعالى "**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**" أى يستر ويغطى الذنوب عن العبد وعن الملائكة ، و "**رَحِيمٌ**" أى يرحمه فيبدل السيئات حسنات.

قوله تعالى : "**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**"(40).

الهمزة للاستفهام وتقريره ، فالعرب تكلم المخاطب والمراد غيره ، وتأويل الآية هنا – ألم تعلم بنى إسرائيل وغيرهم الذين يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه أن الله تنزه وتعالى عن أن يكون له ولد أو له حبيب لعلة من نسب أو عمل ، لأنه سبحانه وتعالى كما قال جلت قدرته "**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**" يعنى أن السموات والأرض مملوكان لله تعالى أبدعهما بعد أن لم يكونا شيئا ، ومن المستحيل أن مالكا أبدع ملكه بقدرته وإرادته وأوجده بعد ان لم يكن شيئا يكون له فى ملكة ولد أو حبيب يدلى إليه بنسب تنزه وتعالى، وإذا تقرر أنه جل جلاله هو المنفرد بملك السموات والأرض.

قوله تعالى : "**يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ**" والله على وبإيجادهما ثبت أنه المريد المختار يبرز ما أراده ويختار ما يشاؤه وهو على كل شئ قدير، معنى هذه الآية أنه ليس لموجود كائن من كان حق على الله تعالى والله سبحانه وتعالى هو الملك المطلق المتصرف فى ملكه بما شاء ، وكل أفعاله جل جلاله عدل وفضل ، ويعذب من شاء بالعدل ويغفر لمن يشاء بالفضل ، لأنه جل جلاله هو الموفق لما يحب ، المعين على ما يرضى ، الهادي لمن شاء ، ثم يتفضل فينسب الأعمال إلى من هداهم بسابق حسناه جل جلاله ويرفعهم يوم القيامة إلى المقامات العلا ، ويضل من يشاء بسابق أرادته وبعلمه فيهم ، ثم ينتقم منهم عدلا منه.

وفى قوله "**يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ**" بيان لإطلاق تصريفه وعده "**وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ**" بإحسانه ورحمته وفضله ، وقدم العذاب هنا على المغفرة لأنه قدم السارق على التائب فى الآية السابقة.

"**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**" والله هو الملك المطلق الذى لا يعجزه شئ وقدرته جل جلاله صالحة أن تنفذ ما أراده مما سبق فى علمه سبحانه فما من شئ قال أو كثر إلا وهو قادر على أن ينفذه بقدرته العلية كما شاء ، فيتوب سبحانه على مرتكبي الكبائر ويغفر لهم من غير أن يسأل عما يفعل ، ويعذب من شاء بعدله كما تقدم وهو القادر الحكيم.

قولـه تعـالى : **"يَـا أَيُّهَـا الرَّسُـولُ لَا يَحْزُنْـكَ الَّـذِينَ يُسَـارِعُونَ فِـي الْكُفْـرِ مِـنَ الَّـذِينَ قَـالُوا آمَنَّـا بِـأَفْوَاهِهِمْ وَلَـمْ تُـؤْمِنْ قُلُـوبُهُمْ وَمِـنَ الَّـذِينَ هَـادُوا سَـمَّاعُونَ لِلْكَـذِبِ سَـمَّاعُونَ لِقَـوْمٍ آخَـرِينَ لَـمْ يَـأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَـمْ تُؤْتَـوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَـنْ يُـرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُـرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُـوبَهُمْ لَـهُمْ فِـي الـدُّنْيَا خِـزْيٌ وَلَـهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"**(41).

ينادي الله النبيε بيا أيها الرسول ولم يناد بهذا الاسم الشريف فى القرآن الكريم إلا مرتين ، وفى بقيته ينادي بيا أيها النبي . فالنداء بيا أيها الرسول – للتشريف والتعظيم – وإدخال السرور على قلبهε . بالنسبة لما ألم به من الحزن على ارتداد بعض المنـافقين ، فينهاه الله تعالى عن الحزن على من سارعوا إلى الارتداء – أي وقعوا ودخلوا فى الكفر – لأن هؤلاء المسارعون إلى الكفر هم الذين قـالوا آمنـا بـأفواهم ليحفظـوا دمـاءهم وأمـوالهم فـى هذه الحيـاة الـدنيا "قـالوا آمنـا بـأفواهم" أي صـدقنا محمدε والحال أن قلوبهم منعقدة على الكفر لأنها مقفلة عن سماع بيان الإيمان.

"وَلَـمْ تُـؤْمِنْ قُلُـوبُهُمْ" أي لـم تصـدق ، وهـؤلاء مـن المشـركين الـذين بلـغ بهـم الخـوف علـى أموالهم وأنفسهم مبلغا يظهرون الإسلام ويخفون الكفر ، وهانحن الآن نرى أمثالهم بين ظهرانينا بالنسبة لإهمال المسلمين فيما أوجبه الله عليهم ، وبالنسبة لمخالفتهم وصايا رسول اللهε ، تفرقوا أيدى سبا فتمكن منهم عدو الله وعدوهم الإفرنج ، فترى أهل الكفر بالله الذين كانوا فى ذمتنا انقلبوا فصاروا يجاهرون بالعداوة للإسلام ويقف بعضهم بين أمثاله فيطعن على الإسلام ، ونسأل الله أن يسرع بنصره حتى نفرح بذلك النصر كما قال تعالى : **"وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ"**[1].

"وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ" بعد أن بين لنا سبحانه نفاق من آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، أخبرنا جل جلاله بما كان عليه اليهود من معاصرى رسول اللهε خصوصا فى المدينة فقوله تعالى **"وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا"** قوم أهل جحد ومحاربة لله ورسوله كما فى المشركين ممن أسلموا نفاقا – والمنافقون من المشركين ومن أهل الكتاب سماعون للكذب – أى أن هؤلاء القوم من اليهود ومن منافقى المشركين – يسمعون سماع قبول الكذب من أحبار اليهود الذين غيروا ما جاء فى التوراة من نعت رسول اللهε ومن اسمه وبلده وهجرته ، ومن أنه خاتم الرسل ، وأنكروا كل ذلك كما هو معلوم.

"لَـمْ يَـأْتُوكَ" أى أن الذين حضروا إلى رسول الله من يهود خيبر وغيرهم من المشركين سماعون لكذب قوم آخرين من أحبار اليهود الذين قطع الحسد نياط قلوبهم ، ومحا الكبر إيمانهم بالتوراة ، لم يأتك هؤلاء القوم بما هم عليه من خبث الطبع وسوء النية ، وإنما أظهروا غير ما يبطنون.

وسبب نزول هذه الآية الشريفة أن امرأة ورجلا من خاصة أشراف اليهود زنيا ، وحكم الزانى المحصن فى التوراة الرجم ، فغير الأحبار حكم التوراة وحكما فى هذه الحادثة بالجلد ، حتى زني رجل وامرأة من العامة فحكموا عليهما بالرجم ، فهب الضعفاء من العامة فى وجوهم وقالوا أن أردتم رجمهما فأرجموا معهما من حكمتم عليهما بالجلد ، ووقع اليهود فى أمر جلل من الحيرة فقال بعضهم نبعث إلى محمد ونسأله ، فإن قال حكمهما الجلد قبلنا وأن قال حكمهما الرجم خالفناه ،

([1]) سورة الروم : 4 ، 5.

وغيروا حكم التوراة ، وهم القوم الذين اسمعوا اليهود هذا الكذب ولم يأتوا رسول اللهε حسدا وعلوا وكبرا ، واختلفت الروايات عن سبب نزول هذه الآية ولا مانع من وقوع أحداث كثيرة تكون هى سبب نزول هذه الآية الشريفة.

"يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ" يعنى أن أخبار اليهود يغيرون أحكام الله بعد أن أحكمها ووضعها فى مواضعها ، والتحريف هنا بمعنى التغيير ، فإنه سبحانه حكم أن الزاني المحصن يرجم فى صريح التوراة فغيروا الحكم فوضعوا موضع الرجم الجلد ، ووضع سبحانه سير الأنبياء السابقين فيما ، ونبأ جل جلاله عن محمدε ومولده كما تقدم وسيرته فحرفوا ذلك وغيروه بعد أن وضع كلام الله فى مواضعه الخاصة به.

قوله تعالى : **"يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا"** أي يقول القوم الذين لم يأتوا رسول الله والذين اسمعوا اليهود كلام التوراة محرفا "أن أجابكم محمد بأن حكم الزاني المحصن الجلد فاقبلوا منه ، وأن كان جوابه الرجم فاحذروا أن تقبلوا منه أو تشيعوا كلامه بين اليهود " ، وقد سمع ابن صوريا الحكم من رسول اللهε وصدق لأنه كان عالمهم ، ولكنه أرتد بعد أن رجع إلى قومه هو ويغره ممن تقدم الكلام عنهم ، فأحزن ذلك رسول اللهε فنهاه الله عن الحزن وأخبره سبحانه وتعالى بأن الذين يسارعون فالكفر من المشركين واليهود لم تؤمن قلوبهم بل آمن بعضهم من المشركين وبعضهم من اليهود بأفواههم ، لأن الإيمان إذا باشر القلوب هشت له وبشت وعقدت عليه ، وإذا لم يباشر القلوب كان النطق به جنة لدفع خطر يلحق النفس أو المال أو يلحقهما ، وأمثال هؤلاء ليسوا بمؤمنين ودليل ذلك أنه نراهم يسارعون إلى الكفر لأول بارقة من أمل لهم ، وعلى هذا يكون الذين يسارعون إلى معصية الله وإلى الوقوع فيا حرمه سبحانه والتساهل فى ا أوجبه لم يباشر الإيمان سويداء قلوبهم ، وأن تجملوا أمام المؤمنين بأعمال المؤمنين وأحوالهم.

"وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا" أي من سبق فى قدر الله تعالى أن يوقعه فى التردد والشك والريب حتى يحرم الإيمان **"فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا"** نفى الله تعالى عن رسولهε مل هداية من ختم الله بضلالتهم وشقوتهم ، لأن الله تعالى ملكهε هداية البيان ، فهو يملك أن يبين لمن سبقت لهم الحسنى سبل الله تعالى فيهديهم الله هداية الإحسان التى لا يملكها غيره جل جلاله ، فالرسول يملك أن يبين لغير من سبقت لهم من الله الحسنى ولكن لا يملك أن يهديهم هداية الإحسان والقبول.

وإذا كان خاتم الرسل لا يملك من الله هداية لأحد لم يقدر الله لهم فى أزله هداية الإحسان ، فكيف يملك غيرهε أن يهدى أحدا.

"أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ" الإشارة عائدة إلى المسارعين فى الكفر بعد إيمانهم بألسنتهم والمرتدين عن الإيمان – بحسب ما ظهر لنا – الذين هم فى الحقيقة كفار بل وشر من الكفار كما هو واضح من قول الله تعالى **"إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ"**[1] لأنه لم يسبق فى قدره تعالى إرادة طهارة قلوبهم من رجس الكفر فعاشوا كفارا وشرا من الكفار ، لأنهم خدعوا المؤمنين بإظهارهم الإيمان بأفواههم والله يعلم ما

([1]) سورة النساء : 145.

فى قلوبهم "لهم فى الدنيا خزى" وهو خزى الجزية والذمة وصغار ضعف الحجة وذل المسكنة "ولهم فى الآخرة عذاب عظيم" ، أى عذاب لا تقوى على تحمله جسومهم.

قوله تعالى : **"سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"**(42).

أي يصغون لأباطيل اليهود والمشركين وأكاذيبهم فى تحريف أحكام التوراة خصوصا فى زنا المحصن ، لأن الحكم عليه فى التوراة الجرم ، فكانوا إذا زنا المحصن من أشرافهم الأغنياء بشريفة غنية حكموا عليهما بأربعين جلدة ، وإذا زنا الفقير بالفقيرة بعد الإحصان حكموا بالرجم ، وأيضا يسمعون تغيير أخبار التوراة التى أنزلها الله تعالى فى نعت محمدε.

"أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ" السحت أنواع شرها ما يدفعه الزاني للباغية أجرا علىالزنا بها ، وما يأخذه من يتعرض للوساطة بين أصحاب القضايا والحكام ، أو بين أهل الخصومات ، ويلتحق بذلك أن يقرض الرجل مالا ثم يتعرض للأكل عنده ، ويكلفه بقضاء حوائجه لما عليه من الدين ،وهذا أشبه بالربا ، ، أما ما يعطى للحكام من الرشاوى ، فليس من السحت فى شئ بل هو كفر صريح لقول الله تعالى " **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**"[1]. والمرتشي إذا حكم لصالح من رشاه حكم بغير ما أنزل الله ، والصاغى إلى الكذاب وشاهد الزور وآكل السحت أقام الحجة على أن قلوبهم نجسة ، بالكفر أو بالنفاق ، فإن القلب إذا باشر الإيمان راقب الله بكل دقة.

"فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا" يعنى تعالى أن هؤلاء القوم الذين سمعوا الكذب وأكلوا السحت إذا دعتهم الضرورة إليك لبلاء نزل بهم يلتمسون عندك تأييد حظهم وهواهم ، أو يجحدون بك وينفرون منك إذا لم يجدوا عندك ما به تنفيذ شهواتهم وتأييدهم على باطلهم ،ومثال هؤلاء لك الخيار فيهم – أما أن تحكم بينهم بالحق الذى علمك الله أو تعرض عنهم – قال تعالى : "وإذا حكمت" أى إذا شرح الله صدرك للحكم ، فاحكم بينهم بالقسط وعند القدرة نفذ ما حكمت به عليهم "والقسط" هو العدل ،وهو حكم الله تعالى الذى أنزله عليك.

ولما كان الأعراض عن هؤلاء يثير ضغن الصدور وهذا يكرهه رسول اللهε ، لأنه كان يحب تأليف الأعداء ، ثبت الله جاشه ، وطمأن قلبه وبشره بأن أعراضه عن أعدائه مع تأييد الله ونصرته سبحانه أياه لا يضره شيئا قليلا ولا كثيرا ، فلم تنف الآية وقوع إثارة الخواطر من اليهود الذين يعرض عنهم ، أو من المشركين ،ولكنها أسكنت النفس إلى منفسها ، لأنهم وأن أثاروا العداوة والبغضاء فلا يضر ذلك رسول الله شيئا ، وفى هذه الآية بيان للدعاة إلى الله تعالى الذين يسارعون إلى محاب الله ومراضية جل جلاله أن الله يؤيدهم وينصرهم ويكبت أعدائهم.

"وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" .. يعنى جل جلاله أن اليهود إذا أتوك يستفتونك فى أمر من أمورهم فاحكم بينهم بالقسط ، أى بالذى أنت أهله ومحله بحسب ما صرح به القرآن ، ووافق التوراة أو لم يوافق ، لأنه عصم حبيبهε من الحكم بغير القسط ، ولكنه سبحانه جعله رحمة للعالمين ، فأمره بالحكم بالقسط بيان لما فطره الله عليه وتعليم لنا فى ذاتهε.

([1]) سورة المائدة : 44.

"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" أى يحب الذين جملهم سبحانه بالعدالة والرحمة إذا حكموا بين الناس ، لأن الحاكم إذا أخذ الرشا كفر ن وأثم الراعي لأنه أراد الحكم بغير ما أنزل الله ، ولأن الحاكم حكم بغير ما أنزل الله "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . . ." وأما أهل القسط والعدل فهم الذين جملهم الله بمحابه ومراضية ، وما جمل الله عبدا بجماله إلا أحبه لأنه سبحانه يحب جماله ، وهذه الآية سببها خاص وهو الحكم فى قضية زان وزانية من أشراف اليهود ن والحكم عام لكل زانية وزان فى حال الإحصان وهو الرجم ، ولما كان الزنا أعاذنا الله منه قد توعد الله عليه بالخلود فى جهنم لا فرق بين أن يزنى المحصن أو غير المحصن ، وجب على أهل التقوى أو يسارعوا إلى الزواج أو يكثروا الصيام لأنه وجاء من هذا البلاء أى وقاية.

وقوله تعالى : **"وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ"**(43).

تحكيم اليهود لرسول اللهε فى شأن المرأة التى زنت وهى محصنة ،دليل على أن القوم لا يؤمنون بالتوراة بل يناقدون للهوى والطمع ،لأن حكم الزانى والزانية مبين فى التوراة ببيان الله تعالى الذى يجب عليهم أن ينفذوه إن كانوا مؤمنين بكتب الله تعالى ،ولكنهم قبحهم الله أرادوا بتحكيم رسول اللهε الطمع فى فوزهم منه عليه الصلاة والسلام بما حكمت به أهواؤهم من الاكتفاء بجلد الزانية المحصنة تحريفا لحكم الله الذى فى التوراة ،ولذلك فالله تعالى يقول : **"وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ"** أي أن العجب كل العجب من تحكيمهم إياك مع أن التوراة بين أيديهم فيها حكم الله مبينا ، أنزله الله على كليمه عليه السلام وعمل به من أيام موسى إلى ظهور خاتم الأنبياءε ولكن أهل الفرية تقهرهم أهواؤهم فيغيرون أحكام الله ويحكمون على الزانية المحصنة الغيبة بالجلد وعلى غيرها الفقيرة بالرجم ، فإذا عارضهم الفقراء عفي ذلك احتكموا إلى رسول الله فى أمرهم واجمعوا على أن يقبلوا منه الحكم إذا وافق أهواءهم وأن يردوه فى حالة إذا وافق التوراة.

"ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ" أي أنهم أخزاهم الله بعد أن قامت عليهم الحجة أن حكم التوراة على الزانية المحصنة هو الرجم انقلبوا على أعقابهم منكرين الحق كافرين بالله وبكليمه موسى وبمحمد صلوات الله وسلامه عليهم وبالتوراة وبالقرآن.

"وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ" "ما" نافية ، والإشارة عائدة إلى الذين أتوا رسول الله وطلبوا منه بيان الحكم على الزانية والزاني "وبالمؤمنين" أى انتفي عنهم الإيمان بالله وبرسله عليهم السلام وبكتبه لأنهم أنكروا حكما معلوما من الدين بالضرورة فى التوراة والقرآن فثبت كفرهم.

قوله تعالى : **"إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ"**(44).

يعنى سبحانه بصيغة "أنا أنزلنا" الدالة على عظمته جل جلاله تعظيما للتوراة لأن منزلها عظيما – أنزلنا التوراة- على موسى جمعنا له فيها بيان الأحكام والعبادات والمعاملات بحسب زمانه ، وفيها أيضا بيان العقائد التى يجب أن تعقد عليها قلوب أهل الإيمان بدليل قوله "ونور" لأن النور يكشف الظلمات حتى تستبين الحقائق لمن أدركها ، كما تستبين حقائق الكائنات بالشمس إذا أشرقت "يحكم بها" أى بأحكامها التى جمعها الله فيها "النبيون" الذين نبأهم الله بشرع يعملون به ويعلمون غيرهم ، لأن المراد هنا بالأنبياء الرسل بدليل قوله **"يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا"** أي فوضوا أمورهم لله مسلمين جميع شئونهم له سبحانه من أنبياء بني إسرائيل الذين بعثهم الله من بعد موسى ،

وخاتم الأنبياء محمدε رسول منهم ، فهو يحكم بما أنزل الله تعالى فى التوراة من البيان والنور ،وبما أنزل الله عليه فى القرآن إذا لم يكن الحكم فى التوراة أو كان فيها مخالفا لما فى القرآن ، فإن القرآن نسخ أحكام التوراة وغيرها ، والقرآن كتاب الله المهيمن على سائر الكتب وهو خاتم كتب الله تعالى ، وتلك الأحكام التى يحكم بها الأنبياء "الذين أسلموا" أى الحكم بأحكام توراة أنبياء الله الذين اصطفاهم لرسالته "للذين هادوا" وهم بنوا إسرائيل ، ومعنى هادوا لغة أى رجعوا إلى الله تعال والنبيون هم الذين كانوا ينفذون أحكام التوراة ابتغاء مرضاة الله ولا يغيرونها ولا يحرفونها.

"وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ" الربانيون هم الذين منحهم الله القدرة على تربية تلاميذهم بصغار المسائل حتى يبلغوا أشدهم فيبينون لهم غوامض العلم وهم المنسوبون إلى الرب جل جلاله ، "والأحبار" هم الذين حصلوا العلم ولم يمنحوا الحكمة وهم أمناء الشريعة وأنصار الحكام على بيان الأحكام.

"بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ" الجار والمجرور متعلق بيحكم ، وما هنا مصدرية ، واستحفظوا بمعنى استودعوا أى جعلهم الله خزانا للعالم يقومون بتأدية الأمانة عند مقتضاها – وسبب الآية خاص وهو أن ابنى صويا عاهدهما رسول اللهε على أن يصدقا معه فى الإجابة عما سألهما عنه ، وكان أولهما ربانيا والآخر حبرا فأخبرا رسول اللهε بحقيقة ما فى التوراة من شأن الزانى والزانية وبشأن ما أنزله الله فيها من بعثتهε ، بما أنه خاتم الأنبياء وأنه من ولد إسماعيل ، وأخبرا رسول اللهε بما حرفته اليهود طمعا فى الدنيا الفانية ، والحكم عام فإن رباني المسلمين وأحبارهم يحكمون كذلك بما أنزل الله تعالى وبما أودعهم الله من العلم النافع واستحفظهم عليه جل جلاله ، وهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة كالنجوم بأيهم اقتدينا اهتدينا.

"وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ" أى وكانوا على نبوة محمدε وتصديق ما جاء به من الدين ، ومن كذب اليهود عليهε وعلى أممهم بسبب تحريفهم أحكام الله فى التوراة وكلماته سبحانه شهداء بما استودعهم الله تعالى من العلم ، ولا يزال هذا الثناء من الله تعالى دائم على كل قائم بمحاب الله ومراضية فى كل زمان ومكان حفظا لآيات الله وأحكامه . قال تعالى : **"إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"**[1].

"وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا" أي ولا تبيعوا أحكامي فتغيرونها طمعا فى عرض يزول مهما كان مقداره ، وهذا العرض بالنسبة لما ينال مغير حكم الله من العذاب شئ قليل جدا ، وهذه الآية يراد بها الحكام وهم الولاة الذين ولاهم الله أمور المسلمين ، وأن كانت الآية نزلت فى اليهود فإن خصوص السبب لا يقتضي خصوص الحكم.

"وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ" . هذه الآيات مرتبطة بالآية المتعلقة بحكم الزاني المحصن ، والزانية المحصنة التى سبق الكلام عنها ن وقد كرر الله هذه الآية فى القرآن بمعناها وبغير لفظها ، فقال : "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون" ، "وأولئك هم الفاسقون". . . والظلم والفسق بمعنى الكفر ، والمراد بهذه الآيات كلها اليهود ، وقيل أن الآية الأولى للمسلمين وهى قوله تعالى : "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" . والثانية هى لليهود وهى قوله تعالى "فأولئك هم الظالمون" والثالثة للنصارى وهى قوله تعالى "فأولئك هم الفاسقون" ،

([1]) سورة الحجر : 9.

وتحقيق الأمر فى هذه الآية أن من حكم بغير ما أنزل الله جاحدا حكم الله تعالى فهو كافر ، ومن حكم بغير ما أنزل الله وهو مؤمن بالله ورسوله ولكن هواه وطمعه دفعاه فهو كافر بالحكم فقط ، ومن حكم بغير ما أنزل الله تعالى جاحدا بالحكم فهو كافر أو ظالم أو فاسق أو آثم آثما عظيما ، وكفر دون ظلم ، وظلم دون فسق ، وفسق دون أثم ، أما الكفر الذى به مفارقة الملة فلا يحكم به إلا على من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، لأن كل كبيرة جعل لها القرآن حدا مطهرا لا توقع فى كفر ، أما المرتد فقتله ليس مطهرا لأنه يقتل كافرا ومن قبيل هذا قولهε "آية ما بيننا وبين المنافقين شهود العشاء والصبح" أى صلاتهما فى الجماعة ، وليس كل مسلم لم يشهد العشاء والصبح فى جماعة يكون منافقا ويكون فى الدرك الأسفل من النار . . بل المراد بالنفاق العملي المتعلق بالعزيمة وليس النفاق العلمي المتعلق بالعقيدة ، وكذلك الكفر والظلم والفسق المحكوم بها على من حكم بغير ما أنزل الله ، ، المراد بها إذا تعلقت بأهل الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر يكون كفرا بالحكم لا بالحاكم جل وعلا ، والخلاف بين العلماء فى هذه الآية لفظى ، فالفرق شاسع بين الكفر والظلم والفسق الذى يخلد صاحبه فى النار ، وكفر أى يحكم بغير ما أنزل الله لعاطفته أو مصلحته مع كمال الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر . فقال تعالى : **"فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ"**[1] فالحسنات يوم القيامة بمثقال الذرة.

قوله تعالى : **"وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"**(45).

بعد أن بين الله تعالى سوء نوايا اليهود ،وقبح أعمالهم عندما يغيرون أحكام الله بحسب المحكوم عليه ،ناسب أن يبين لنا سبحانه وتعالى ما حكم به فى الحدود والقصاص مما هو صريح فى التوراة وغيروه وحرفوه .

يقول الله تعالى :" **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ**" يعنى أنه من قتل نفسا قتل بها ،فغيروا هذا الحكم فكانوا إذا قتل الغني الشريف نفسا حكموا عليه بالدية ، وإذا قتل الفقير نفسا بغير نفس قتلوه بها ، وكذلك كانوا يفعلون فى قوله تعالى : **"وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ**" مع أن الله تعالى شدد على بنى إسرائيل فى أحكام الجنايات فلم يجعل فيها دية ، وإنما حكم بالقصاص أو العفو فمن فقع عين آخر فقعت عينه بها ، ومن قطع أنف غيره قطعت أنفه بها ، ومن خرق أذن غيره خرقت أذنه ، وكذلك قوله : "السن بالسين" "والجروح قصاص" أى قصاصة فيقتص الحاكم من الجاني بقدر جنايته ، وهذا التشديد عليهم لما جبلت عليه نفوسهم ، وفى هذه الآية رهبة لأهل الإسلام الذين يتولون الأحكام ، وأن حكم الله الذى أنزل على كل نبي قبل القرآن يجب العمل به ، إذا لم ينسخه القرآن بصريح آية.

وقد حكم رسول اللهε بهذا الحكم فرجم الزاني المحصن كما ورد ، وأن لم نجد فى القرآن المقروء بين ظهرانينا آية الرجم ، فإن الزاني المحصن لا توبة له إلا بالرجم عملا بحكم التوراة الذى أخبرنا الله تعالى به فى القرآن المجيد.

"فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ" أي فمن تصدق بالقصاص من الجاني فعفا عنه ، فهو أي العفو كفارة للتصدق على الجاني جزاء عفوه ، وقال بعض العلماء "الهاء فى له عائدة إلى الجاني"

([1]) سورة الزلزلة : 7 – 8.

لأن المحتاج إلى العفو هو الجاني ، وأما إذا اقتص من الجاني فإن القصاص يكون له توبة . وأما العفو فلا تتحقق به التوبة ، اللهم إلا أنه ترفع عنه عقوبة الدنيا فقط ، فإن الزاني والسارق والذى يسب المؤمن الغافل والمحصنة الغافلة ولو عفا المجني عليه فإن عفوه عن الجاني لا يسقط عقوبة يوم القيامة وأن أسقطها فى الدنيا ، وأن تأول البعض فهو كفارة له أى للجاني.

وتأويل الآية بهذا لا يجعل المجني عليه يعفو مطمئنا قلبه ، وقد ورد أن قرشيا دفع رجلا من الأنصار فاندقت ثنيته ،فرفعه الأنصاري إلى معاوية . فلما ألخ عليه الرجل قال معاوية "شأنك وصاحبك" وكان أبو الدرداء عند معاوية فقال سمعت رسول اللهε يقول : "ما من مسلم يصاب بشئ فى جسمه فيهبه إلى الله رفعه الله به درجة وحط عنه خطيئة" ، فقال الأنصاري "أنت سمعته من رسول اللهε " قال "سمعته أذناي ووعاه قلبي" فخلي سبيل القرشي ، فقال معاوية مروا له بمال.

"وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ" هذه الآية الشريفة نزلت فى اليهود الذين حرفوا أحكام الله تعالى فيما بينت لك قبلا ، وهذا الظلم هو الكفر لأنهم يعلمون أحكام الله ويغيرونها عنادا وطعما وتهاونا ، وهذا الحكام يشمل الحكام من غير اليهود.

قوله تعالى : **"وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ"**(46).

أي أتبعنا موسى بعيسى ابن مريم أتباعا على أثار الأنبياء السابقين حال كونه مصدقا لما بين يديه ، أى ما سبقه من كتاب الله الذى أنزله علي موسى عليه السلام والمسمي بالتوراة ، وزدنا عيسى بن مريم عليه السلام الإنجيل الذى أنزل الله عليه "فيه هدى" أى بيان لأهل عصره "ونور" أى كشف للحقائق التى غيرها بنوا إسرائيل للأهواء والأطماع ، وهذا الإنجيل صدق التوراة وأثبت ما بها من الأحكام ، وأخبر أنها هى كتابه المعمول به ، إلا ما نسخه الإنجيل مما خفف الله به على بنى إسرائيل.

"وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ" أى أن عيسى عليه السلام صدق من سبقه من الرسل ن وكان "هدى" أى بيانا ونورا أى كشفا للحقائق ، فكذلك الإنجيل كان هدي وموعظة للذين يتقون الله تعالى.

قوله تعالى : **"وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ"**(47).

وليحكم بكسر اللام وفتح الياء ، والميم الأخيرة ، وجعل اللام "لام كي" والجار والمجرور في هذا التأويل متعلق بقوله تعالى : **"وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ"** . كي يحكم أهل الإنجيل بما أنزلنا فيه ، فتكون اللام بمعنى كي وقرئت بسكون اللام وسكون الميم الأخيرة ، بتأويل أن اللام للأمر وهى قراءة الحجازيين وغيرهم والقراءتان صحيحتان.

هذا الأمر من الله تعالى لأهل الإنجيل أن يحكموا بما فى الإنجيل من البشائر بمحمدε ويسارعون إلى الإسلام ، وجائز أن يكون المراد أن يحكموا بما وافقه القرآن ولم ينسخه فيكون الحكم للقرآن.

"وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" . هذه الآية "الشريفة" فى النصارى الذين أنكروا بيان عيسى عليه السلام ، نعت رسول اللهε "والظلم ، والفسق ، والكفر" سيان ، وقد بينت ذلك فيما تقدم ذكره.

قولـه تعـالى : **"وَأَنْزَلْنَـا إِلَيْكَ الْكِتَـابَ بِـالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَـا بَـيْنَ يَدَيْـهِ مِـنَ الْكِتَـابِ وَمُهَيْمِنًـا عَلَيْـهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ"**(48).

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أحوال اليهود من حيث تغيير كلام الله وتحريف أحكامه فى التوراة التى أنزلها الله على موسى كما فى الإنجيل الذى أنزله علي عيسى ، تفضل جل جلاله فبين لنا ما خص به حبيبه محمدε من التعظيم بأنواع كثيرة منها قوله تعالى : "بالحق" أى بالصدق واليقين الذى تشوبه شائبة ، وقد تقدم تأويل قوله **"وَأَنْزَلْنَـا إِلَيْكَ الْكِتَـابَ" "مُصَدِّقًا"** هنا حال من الكتاب **"لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ"** أى لما سبق من الكتب المنزلة على الرسل قبله ، وفى هذا من الشرف للرسل السابقين مما قصم ظهور المنكرين عليهم خصوصا أهل الإنكار على عيسى عليه السلام – الذين رموه بأنه ابن زنا – فتصديق القرآن للإنجيل تأييد من الله تعالى "ومهيمنا عليه" للهيمنة معان كثيرة وسياق الآية يدل عليها جميعا . منها أن القرآن الكريم مهمين على الكتب وحفيظ وشهيد ، فهو مثبت وناسخ ، وهو الذى أكمل الله به دينه وأتم به نعمته على أهل الإسلام ، وهو حبل الله المتين الذى جعله الله بينه وبين عبادة ، فطرفه الأعلى بين الله تعالى وطرفه الآخر بين المسلم ، من تمسك به وصل إلى الله تعالى.

وجائز أن يكون مهيمنا عليه بفتح الميم الأخيرة أى مؤتمنا على الكتاب الذى أنزله الله تعالى – وآل هنا للاستغراق – أى جعله الله أمينا عليه بمعنى أنه يظهر ما غيره أهل الكتاب من أخبار الله تعالى وأحكامه المتعلقة برسول اللهε وبإحكام الجنايات ، ومن قال أن مهيمنا حال من الكاف فى قوله "أوليئك" فتكون الهيمنة لرسول اللهε ، ونظم الآية لا يؤيد هذا التأويل، لأنه لو كان كذلك لكان النظم – وأنزلنا إليك الكتاب مصدقا لما بين يديك ومهيمنا عليه – أى أنت يا محمد.

"فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ" بعد أن أخبر الله تعالى النبيε بقوله "أنا أنزلنا إليك الكتاب" وما سبق وصفه بأنه مصدق للكتب السابقة ومهيمن عليها ، أمره سبحانه وتعالى بقوله جل جلاله "فاحكم بينهم" والفاء هنا للفصيحة أى إذا جاءك أهل الكتابين فى أن تحكم بينهم فى شأن من شئونهم فأحكم بينهم بما أنزل الله تعالى **"وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ"** أي فنفذ فيهم الحكم بما أنزل الله إليك ثم نهاه سبحانه وتعالى بقوله "ولا تتبع أهواءهم" والله تعالى يعلم أنهε لا يتبع أهواءهم وكيف يتبع أهواء أهل الكتاب بعد أن وقف أمام قريش منفردا يقرر حقائق التوحيد وهم أهل جاهلية عمياء وحمية صماء وتعصب لالهتهم ، وهذا النهى من الله تعالى يظهر ما عليه اليهود من الخبث ، ومن عبادة الهوي من دعواهم أنهم أهل كتاب وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فيكون لكلامهم تأثير على قلوب السذج الحداث عهد بالإسلام ، فهذه الآية الشريفة بينت أن الله سبحانه يحذر رسولهε من خبث اليهود وسوء مقاصدهم مع أنه معصوم من إتباع أهواءهم، فكيف يكون حال من دخل الإسلام حديثا ولم يتذوق حلاوة الإيمان بعد ، وقوله "عما جاءك من الحق" أى أن القوم أهل فرية وقد علتهم مهانة الكذب على الله فتدفعهم الزلة والخزى إلى أن يدفعون عن نفسهم بعبادات ظاهرها دين وباطنها ضلال يسندونها إلى الكتب السماوية افتراء على الله تعالى لأنهم يحرفون الكلم عن مواضعة ، وفى هذه الآية عبرة للمسلمين ،ويقظة لقلوب أهل الإيمان وحفظ من الإصغاء إليهم والوقوع فى شبك بهتانهم.

قولـه تعـالى "**لِكُلٍّ جَعَلْنَـا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًـا**" الجـار والمجـرور بـاللام متعلـق بجعلنـا ، ، والتنـوين فـى "كـل" عـرض الرسـل الـذين ذكـرهم الله فـى الآيـات السـابقة وهـم "موسـى ، وعيسـى ، ومحمد" ، صلوات الله وسلامه عليهم ، والشرعة والشريعة والشـارع هـى محـل ورود النـاس لشـرب المـاء ، او الطريق الواسع الذى يمر بـه النـاس ن وهـى هنـا كتـاب الله تعـالى الـذى شـرع فيـه شـرائعه وبين فيه ما به يكون المتمسكون به قد فازوا بالحسينين فى الدنيا والآخرة ، والشـريعة والشـرعة همـا الطريق العام لكل مسلم ، والمنهـاج هـو الطريـق الخـاص الـذى لا يسلكه إلا الأفـراد الـذين جملهـم الله بالعلم به سبحانه وبأيامه وبأحكامـه وبحكمـة أحكامـه ن ووفقهم سبحانه للقيام بمحابـة ومراضـية جـل جلالـه ، وبين الشـرعة والمنهـاج كمـا بـين المتعلم المبتدئ والمحصـل المنتهـي ، وأن جعلهمـا بعـض العلماء مترادفين ، إلا أن الواو هنا تفيد مغايرة المنهاج للشرعة فى معناه وأن وضـع موضـع الشـرعة فى عبارات الفصحاء – والمعنى أن الله جل جلاله نزل على كل رسول كتابا جمع لـه فيه العقيدة التـى هى أصل الدين وبها النجاة من هول يـوم القيامـة ، ثـم بـين فيـه الأحكـام والمعـاملات التـى تناسـب كـل زمان وكان ، فشريعة موسى عليه السلام أتت بعدها شريعة عيسى فخفف عن بنـى إسـرائيل مـا شـدد الله به عليهم ، قال عليه السلام "وما جئت لأهدم الناموس ولكنى جئـت لأتممـه" ثـم جـاء خـاتم الرسـل عليه السلام على فترة من الرسل فجمع الله لـه فى القرآن العقيدة مفصلة والعبادة التى جمعت شكر الله وحمده للروح والعقل والجسم وعبادته سبحانه بكل الجوارح ، وبالمعاملات التـى سـوت بـين الإنسـان والإنسان لا فرق بين المسلم وغيره حتى فاز المجتمع بالسعادة التى لم يفز بها مجتمع قبـل الإسـلام ن وبأخلاق التى جعلت الملائكـة يغبطـون المسـلمين لمـا جملهـم الله بـه مـن الأخـلاق الروحانيـة والمزايـا الملكوتية حتى صار كأنهم ليسوا من بنى الإنسان لاتصالهم بالعالم الأعلى.

معلوم بالبديهة أن أصول الدين واحدة لا فرق بين ما نزل علـى محمـد ومـا أنـزل علـى الرسـل من قبل ، أما قولـه تعـالى "الكـل جعلنـا منكم شـرعة ومنهاجـا" فهـى للفـروع التـى بينـت ، وبهـذا صـح الجمع بين هذه الآية والآيات الأخرى ، ولو كان المنهاج هو الشرعة لما رفع الله الذين آمنـوا وعملـوا الصالحات والذين أوتوا العلم درجات ، ولكن للجنة بابا واحدا ، وإنمـا يتفاضـل المسـلمون بمـا تفضـل الله به عليهم من اليقين الحق والمحبة له جل جلاله والاستقامة على صـراطه المستقيم . و "مـنكم" أى الرسل الذين خاطبهم الله فى هذه الآية ، وهم من بينهم الله فى أول هذه الآيات.

"**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**" لو هنا حرف امتنـاع ، تنفـى المثبـت وتثبـت المنفـى ، وعلـى هذا يكون المعنـى "لم يشأ الله جعلكم أمة واحـدة فلم يجعلكم" والمشيئة لغـة عـن الإرادة ، والأمـة هـى جماعـة مـن النـاس متحـدين علـى ديـن واحـد وشـريعة واحـدة ، مشيئة الله هـى مقتضـى ظهـور معـانى صفاته ، ولكل اسم من أسمائه صفة لأن الله خلق أنواعا كثيـرة متحدة شكلا وعمـلا مـن أعلـى عليـين إلى أسفل سافلين ، وخلق الإنسان مظهرا لجميع معانى صفاته جل جلالـه ، فهـو وأن تناسب مـن حيـث الهيئة والشكل إلا أنه مختلف تمام الاختلاف من حيث الهمة والنزوع والقابل ، فمن الإنسـان مـن يبلـغ أن يكون من الاعلين وهم الرسل والصديقون ، ومـنهم مـن يكـون فـى الـدرك الأسـفل مـن النـار وهـم الكفار والمنافقون ، فكان الإنسان أكمل مظهر لمعانى الصفات ، وهذا هو السر فى أن الله خلقه بيديـه وأسجد له ملائكته وسخر لـه ما فى السموات وما فى الأرض جميعا وإقامة خليفة عنه سبحانـه . .

"**وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَـاكُمْ**" أى ولكنـه جعلكم أممـا متفرقـة لكـل أمـة شـريعة ومنهـاج بحسـب الرسـول المرسل إليهـا ، للابتلاء من الله تعالى بمـا أنزلـه علـى الأمـم مـن الأحكـام أمـرا ونهيـا ، أو بمـا بينـه رسـله صلوات الله وسلامه عليهم نم نوافل البر التـى هـى سـننهم إبـرازا لمـا قـدره أزلا حسـب مـا

تقتضيه صفاته العلية جل جلاله . وهذه الآية دلت دلالة صريحة على أن ما عليه الإنسان هو تقدير الله أزلا وإرادته التى خصص بها ما شاءه من حضرة علمه.

"فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ" أي سارعوا إلى القيام بمحاب الله ومراضية التى بينها فيما أنزله على خاتم أنبيائه صلوات الله عليهم وسلم ، وهذا الأمر لا يقتضي مخالفة لقوله تعالى **"وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً"** فإنه تعالى أخفي القدر عنا وأظهر لنا ما كلفنا به أمرا ونهيا من عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاق ، وهذا الأمر مرتب على ظاهر الأمر والنهي ويؤخذ منه أنه إذا أمر من منحوا القابل منه وسبقت لهم منه الحسنى سمعوا فوعوا فقبلوا واقبلوا بتوفيقه وعنايته ، فكان هو سبحانه المقدر وهو الأمر والمعين والموفق للعمل ، وهو المتفضل على من أسمعهم وأقبل بهم وأعانهم ، ثم تفضل بنسبة العمل إليهم ليفوزوا بالجزاء الحسن – وهو معنى الفضل العظيم – ومن لم يفز بقسط وافر من مشاهد التوحيد العالية لم يتذوق من أسرار القرآن شيئا.

"إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" . إذا تأولنا قوله سبحانه فاستبقوا الخيرات أمرا لأمة محمدε ، فيكون المعنى إلى الله مصيركم يا أمة محمد ، وأن كان الأمر مرادا به جميع المختلفين من الأمم ، فيكون المعنى إلى الله مصيركم أيها المختلفون من المحقين والمبطلين – بعد الموت – وبعد أن بين لكم سبل نجاتكم على السنة رسله صلوات الله وسلامه عليهم بإقامة الحجج ، قوله تعالى **"فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ"** وتنبيئ الله إياهم يوم القيامة مؤيد بوجود ما نبأهم به فى الدنيا وجود عيان بعد أن كان بيانا فى الدنيا – فأن بيان الله تلك الحقائق فى الدنيا كان اختبارا وابتلاء منه لهم لتقوم الحجة على إيمانهم بالغيب أو الكفر به ، وكونه نبأهم يوم القيامة بما كانوا يختلفون فيه على الرسل ، إنما يكون ذلك البيان بكشف الحقائق التى توعدهم بها على اختلافهم فى الدنيا ، فثبت أن الله تعالى بين لهم فى الدنيا سبيل النجاة وطريق الهلاك فآمن من آمن وكفر من كفر ، ثم كشف الحجاب لينبئهم بما كذبوا به فى الدنيا ، لديها يصح إيمانهم حيث لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانهم خيرا.

قوله تعالى : **"وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ"**(49).

الواو هنا للعطف ، وأن "ما" دخلت عليه فى تأويل مصدر معطوف على الكتاب فى قوله "وأنزلنا إليك الكتاب" وقوله "وان أحكم" قد تقدم أمر الله تعالى لهε بالحكم فى قوله "فاحكم بينهم بما أنزل الله" فيكون الأمر بالحكم هنا فى قوله "وأن أحكم" توكيدا لقوله تعالى "فاحكم" أو يكون "وأن أحكم الثانية" لمحادثة القتل والأولي لحادثة الزنا ، لأن اليهود رفعوا أمر الزنا وأمر القتل لرسول اللهε ليحكم بينهم "بما انزل الله" فأعلم الله رسولهε بخبث نوايا اليهود وسوء مقاصدهم فى رفع الأمر إليه وهم أهل فرية وكيد ، فكانت الآية كمعجزة عندهم خصوصا عند قوله تعالى "ولا تتبع أهواءهم" فإن اليهود أرادوا بذلك خدع رسول اللهε فيحكم بما حكموا به ، لأن ابن صوريا ومن كان معه من الأحبار قالوا يا أبا القاسم أنت تعلم أننا أحبار اليهود فإذا نحن آمنا بك اتبعنا أكثر اليهود وقد آمنا ، ثم طلبوا منه البيان فى حكم الزاني المحصن وفى حكم القاتل ، وأخفوا عنهε صريح التوراة ، وبينوا أنهم حكموا فى الزاني المحصن بالجلد وفى القتل النفس بالدية ، فجاء جبريل

لرسول اللهε بما فى التوراة فحكم بما أنزل الله فى التوراة وفى القرآن فأرتد الأحبار على أعقابهم كافرين.

وفى هذه الآية نهاه الله عن اتباع أهوائهم التى دفعتهم إلى تحريف كلام الله تعالى ، فرضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وكفروا بالله تعالى لأنهم حكموا بغير ما حكم الله به.

"وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ" هذه الآية الشريفة نزلت بعد أن وفد على رسول اللهε كعب بن أسد وابن صوريا وشاس بن قيس من أحبار اليهود وهموا أن يخدعوا رسول اللهε بما يقدم الكلام عنه فى هذا الشأن ، فحكم رسول اللهε بما أنزل الله وردهم بخزيهم ، فأنزل الله على رسوله قوله تعالى **"وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ"** بزخرف كلامهم وبضلالهم وافترائهم على الله تعالى عن ما رفعوه إليهε ليحكم لهم فيه من الزنا والقتل بعد أن غيروا حكم الله فيها ن وهذا هو البعض الذى يحذر الله رسولهε أن يفتتن بخداعهم فيها.

قوله تعالى **"فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ"** أي أنه بعد أن أبى الأحبار أن يقبلوا حكم الله الذى أنزله فى التوراة وغيروه، كما لم يقبلوا حكم الله الذى أنزله فى القرآن وحكم بهε ، كان معنى الآية فأعلم يا محمد علم يقين أن الله لم يقدر هدايتهم ولكنه سبحانه قدر إضلالهم وأن يعجل العقوبة عليهم فى الدنيا ، وتلك العقوبة هى إجلاء قريظة والنضير وقينقاع من ضواحى المدينة المنورة ، وضرب الجزية عليهم، ووقوعهم فى الخزي والمهانة بسبب كفرهم ، وعذابهم الأليم يوم القيامة.

قوله تعالى **"وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ"** المراد بالناس هنا هم اليهود "فأل" فى الناس للعهد ، وهذا خبر من الله تعالى مؤكدا الدلالة على أن اليهود جميعا من أولهم إلى أخرهم فاسقون إلا قليلا منهم ، ومن ذلك ما حصل ن الأسباط مع يوسف الصديق عليه السلام وما حصل منهم مع موسى عليه السلام ومع داوود وسليمان وزكريا ويحيا وعيسى وخروجهم على أكثر النبيين عليهم السلام ن "والفسق" هو الخروج من الدين كما تقدم بيانه.

قول تعالى : **"أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ"**(50).

هذا الاستفهام توبيخ لليهود وتهديد لهم وإقامة الحجة على كذبهم فى دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه وأهل كتابه ، فإن الله سبحانه سوى فى التوراة بين الناس فى القود وأرش [1] الجراح ولم يجعل لأحد على أحد فضلا إلا بالتقوى ، والتقى لا يقع فميا يوجب الفود منه ولا القصاص ن فلم يبق ثم من يقاد أو يقتص منه إلا الجاهلون بالله تعالى ، وليس بين هؤلاء تفاضل والكل سواء فى أحكام الله تعالى ، فينكر الله عليهم ابتغاءهم حكم الجاهلية فيما وقع بينهم مما يجب عليهم أن ينفذوا فيه حكم الله.

وسبب ذلك أنه كان بين بني قريظة والنضير خلاف قبل الإسلام ، وكان النضير يرفعون أنفسهم على قريظة فيأخذون منهم دية القتيل ضعف ما يعطونهم فيه ، حتى أظهر الله دينه وشرف المدينة بمقدم خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام عن ظلم بني النظير لهم ن فقالε فى حكمه عليهم "أى أحكم أن دم القرظي وفاء من دم النضرى ، ودم النضرى وفاء من دم القرظى ليس لا حدهما

([1]) القود قتل النفس بالنفس والأرش هو القصاص بالمثل.

فضل على الآخر فى دم ولا عقل [1] ولا جراح ، فغضب بنوا النضير وقالوا لا نرضى بحكمك فإنك عدو لنا ، فأنزل الله هذه الآية : **"أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ"** يعنى حكمهم الأول.

وقيل أن سبب الآية أنهم كانوا إذا وجب الحكم على ضعفائهم الزموهم أياه ، وإذا وجب على أقويائهم لم يأخذوهم به ، كما كان يعمل أهل الجاهلية الأولى الذين كانوا يأخذون بالنفس أنفسا علوا بغير الحق ، وكان القوى يأخذ لنفسه ما يشاء من الضعيف ، فتشبه اليهود بالجاهلية الأولى مع ادعائهم العلم والدين والخشية والتمسك بالتوراة خدعة منهم وافتراء على الله تعالى.

"وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ" أى ومن أحسن من الله الذى أنزل التوراة على كليمه موسى مبينا فيها محابه ومراضية ، وهذا الأحسن إنما أنزله الله تعالى بيانا لقوم يوقنون . أى لأهل الإيقان الذين منحهم الله القابل للحق والعقل فى دينه والفهم عنه سبحانه ، فاللام فى قوله لقوم للبيان وتقدم الكلام على اليقين.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"**(51).

معلوم أن خصوص السبب لا يقتضي خصوص الحكم لا سيما إذا أنزل الله الآيات عامة ، ولهذه الآية أسباب لا تخرجها عن العموم ، منها أن عبادة بن الصامت رضى الله عنه جاء إلى رسول اللهε فتبرأ عنده من موالاة اليهود ، فقال عبد الله بن أبى بن سلول "لكني لا أتبرأ من موالاتهم لأني أخاف الدوائر" ، فنزلت هذه الآية بيانا منه سبحانه أنه إذا تولاهم وتمسك بحلفهم فإنه منهم فى براءته من الله ورسوله كبراءتهم منهما.

والمعنى أي فلا تتولوا اليهود والنصارى ولاية تخرجكم عن ولاية الله تعالى ورسولهε ، فإن الشرك الخفى إذا اعتور القلوب أنساها ذكر الله وأيام الله ونعم الله على العبد ، فينتج من ذلك نسيان يوم القيامة ، والمؤمن إذا نسي يوم القيامة وقع فيما يغضب الله تعالى وهو بعيدا عن الكفر بالله سبحانه. قال تعالى "اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا" والله تعالى لا ينسى ، ولكن نسيانه لهم معناه حرمانهم من المغفرة والرحمة ومن النعيم المقيم إعاذنا الله وإخواننا المؤمنين.

قوله تعالى **"بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ"** يعني أن النصارى واليهود أنصار لبعضهم عليكم . فهم يحاربونكم كى يردوكم عن دينكم ويسلبوا أموالكم وأعراضكم وهم شر أعدائكم ،وكيف لا يكونون كذلك وهم قد كذبوا رسول الله وجحدوا الله ، وكل مسلم يحب من كذب رسول الله وجحد الله فهو كافر مثله ، وإذا كان بعضهم أنصارا لبعض وأعوانا عليكم فكيف توالونهم وهم أعداء الله وأعداء دينكم ، وولايتكم لهن نصرة للباطل وخذلان للإسلام ولأهل الإسلام ، ورجل يدعى أنه مسلم ويخذل الإسلام وأهل الإسلام كاذب فى دعواه وإن أعداء الله – أذلهم الله لنا – يخدعوننا عن ديننا ومجدنا وشرفنا بل ويسعون إلى سلب أموالنا بطرق شتى لا تخلو من الخداع والدهاء، ولهذا صار المسلم الذى يواليهم ويستعين بهم على إخوانه المسلمين كافر والإسلام منه براء.

ولو أن المسلم أحب الله ورسوله ورضى أن يجوع ويما ويشبع يوما حتى يفوز برضوان الله الأكبر **"يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ"**[2] لفاز بالحسين ولحفظ لنفسه شرف دينه ونفسه ومجد أمته ، ولكن قاتل الله الطمع والنفاق الذى ينسى الإنسان لقاء الله تعالى

([1]) العقل أي الدية فعقل القتيل أى دفع ديته.

([2]) سور الشعراء : 89.

وحسن ثوابه لمن إطاعة وسوء عقابه لمن عصاه سبحانه فيفرح بالحياة الدنيا ويرضى بها قال تعالى : **"وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ"**[1] ومن قال أن عالما بالله تعالى يزور الكفار وهو عالم سلب إيمانه قال تعالى "إنما يخشى الله من عباده العلماء" ورجل لا يخشى الله من الذى يحكم له بالعلم بعد قوله الله تعالى : **"وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ"** أي ومن يتولهم بالنصرة والتأييد فإنه كافر مثلهم ، وذلك لأن أهل الملل والعقائد الواحدة وأهل المذاهب الواحدة وأهل الآراء الواحدة قد تقوى العصبة بينهم أكثر من عصبة أبناء الأمم الواحدة ، وسر ذلك أن الله سبحانه قدر فى أزله أن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، وقالε "فكل ميسر لما خلق له" فإذا قدر الله أزلا السوءى على عبد سارع إلى أهلها فتشبه بهم أو أحبهم ، ومن أحب قوما فهو معهم ، والحجة على ذلك ولاية أهل المعاصى ، فكيف بمن يتولون أله الكفر بالله تعالى ن ولو أن رجلا عالما عاملا بالكتاب والسنة فى عبادته ود أهل الكفر بالله من غير أن يقي منهم تقاه بل لينال الوسعة فى دنياه أو نفوذ الكلمة والجاه فهو كافر بالله وبرسولهε وبكتابه ، ومن قال أنه مسلم أو عالم أو صالح فقد كذب على الله ورسوله نعوذ بالله من ولاية أهل الكفر بالله.

قوله تعالى : **"إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"** أي لا يبين لهم الحقائق الإسلامية بيانا مؤيدا بالقبول منهم ، لأنه لم يقدر لهم فى الأزل هداية ، "والظلم" هو التصرف فى ملك الغير ووضع الشئ فى غير موضعه ، والقوم "الظالمون" هم الذين خالفوا الله ورسوله واستعملوا نعم الله فى معاصيه ونسوا يوم الحساب . وقد تقدم الكلام على الظلام وعلى الهداية.

قوله تعالى : **"فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ"**(52).

لما أن حكم الله على أهل النفاق الذين اتخذوا اليهود والنصارى أولياء من دون المؤمنين – بأنه سبحانه لا يهديهم – رتب على عدم هدايتهم رؤيتهم يسارعون فيهم أى فى الكفار والـ "فاء" فى قوله فتري للترتيب . والمعنى أن الله يخاطب رسوله وكل من تصح منه الرؤيا من المؤمنين أن كل من لم يهدهم الله تعالى نراهم بالبصر يسارعون إلى الذين كفروا – فقوله تعالى : "يسارعون" حل على تأويل الرؤيا بصرية ، ومفعول ثان على تأويلها قلبية ، والمسارعة هى بذل ما فى الوسع لموالاة الكفار نصرة لهم وتأييدا ومحاربة لله ورسوله و"فيهم" بيان لأن هؤلاء المنافقين استقروا قلبا وقالبا فى مودة أهل الكفر ونصرتهم محاربة الله ورسوله ، وكان المقام يقتضي عبارة "إليهم" فالآيتان هنا نفى بيان ،لأنهم لم ينتقلوا من حال إلى حال بل هم مستقرون فى أسوأ الأحوال ، وأنهم أظهروا الإيمان كذبا والحقيقة أنهم لم يؤمنوا بل هم مع الكفار وهم كفار وأن اعتقدنا أنهم آمنوا ، وكان سبب المسارعة فيهم أن اليهود والنصارى كانوا أهل نافع مادية يقرضونهم الأموال بالربا ويواسونهم عند الحاجة إليهم ، فأشربت قلوبهم حبا لهم لأن القضاء سجل عليهم السوئى حفظنا الله وإخواننا المؤمنين.

قوله تعالى : **"يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ"** وهذا أخبار من الله تعال عن قولهم لأهل الإيمان إذا عتبوا عليهم تصرفاتهم الشائنة ، ومعنى الآية أنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من السوء أذى أنهزم المسلمون فى الحرب ، فهم يخشون نصرة اليهود على رسول الله فيترددون إلى الكفار خوفا من أن ينتصر اليهود فينتقمون منهم ، وكذبوا فى تعليلهم هذا لأن أهل الإيمان ينتظرون الفرج

---

(1) سورة آل عمران : 185.

من الله بعد وعده لرسولهε بالنصر بقوله تعالى : **"وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا"**[1] وقوله سبحانه **"وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ"**[2] فقولهم "نخشى أن تصيبنا دائرة" دليل على كفرهم وأن إيمانهم كان نفاقا ، والدائرة هى ما يعتور الإنسان ن غنى وفقر ، وعز وذل ومرض وعافية ، فهى حالة غير مستقرة كالدولة لا تثبت لأحد.

قوله تعالى : **"فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ"** عسى هنا لوجوب الوقوع لأنها ن الله تعالى تفيد تحقق الخبر ، والمراد بالفتح هنا يجوز أن يكون فتح مكة ، ويجوز أن يكون حصول الخبر لمن أحبهم الله تعالى ، والأمر من عنده أن يذل اليهود والنصارى بالجزية.

قوله تعالى : **"فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ"** أى أن الله سبحانه إذا أيد رسولهε وفتح له مكة وأذل اليهود والنصارى وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، فإن المنافقين بعد ذلك يجللهم الذل والهوان ويصبحون على ما أخفوه فى أنفسهم من نفاق المؤمنين نادمين حيث لا ينفعهم الندم ، والذى أسروه فى أنفسهم هو طمعهم فى أن يظهر اليهود والنصارى على المؤمنين بدليل موالاتهم لهم ، فلما أخزاهم اله وأذل اليهود والنصارى والمجوس والجاهلية ندم أهل النفاق وهم عبد الله بن أبى بن سلول ومن معه ممن كانوا يظهرون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم.

قوله تعالى : **"وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ"**(53).

بدأت الآية الشريفة بالواو على قراءة البصريين بالرفع وتأويل الكلام على هذا النحو "فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر ن عنده" بأن يؤيد خاتم الأنبياءε ويهلك الكافرين فيندم الكافرون والمنافقون الذين والوا النصارى واليهود "ويقول الذين آمنوا . . . الخ" أما تأويلها على حذف الواو فيكون .. "فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده" ما ينصر به المؤمنين ويذل به الكافرين ، فيصبح المنافقون على ما أخفوه من الغش نادمين "يقول الذين آمنوا" .. وعلى تأويل الآية عند حذف الواو مع وقوع النصر بالفعل ، "فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده" فيصبح المنافقون نادمين ، لديها "يقول الذين آمنوا . . . الخ".

وهذه الآية يشنع الله بها على المنافقين الذين يوالون اليهود والنصارى من دون المؤمنين ويتوددون إليهم خوفا من دائرة تدور عليهم ، كما أنها من أشد الآيات تخويفا لأهل الإيمان لأن الله تعالى يتوعد فيها المؤمنين الذين يتولون اليهود والنصارى بإنهم منهم – أى كفار مثلهم – وكيف يعلم المؤمن أنه سيكون من اليهود والنصارى إذا تولاهما أو أحدهما ويفارق الإسلام لغرض زائل ، اللهم إلا إذا دعت الضرورة الفادحة بأن خاف على دمه أو عرضه أو ماله فداراهم مداراة وقلبه مطمئن بالإيمان ، أما من طمع فى الدنيا فتتودد إلى اليهود والنصارى لينال مجدا أو جاها أو مالا فإنه كافر بنص القرآن الشريف ن ولم يحصل للمسلمين هذا الذل إلا بمخالفتهم أوامر دينهم ، وخصوصا فيما يتعلق بموالاة أهل الكفر بالله تعالى أعاذنا الله من مخالفته.

ومعنى قوله تعالى : **"أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ"** أن المؤمنين يعجبون كل العجب من أهل النفاق الذين يصلون معهم ويصومون مثلهم فكيف يوالون أهل الكفر بالله من اليهود والنصارى، ومولاتهم هذه تنافى تماما دعوتى الإسلام والإيمان وبالتالي فهم أشر من

([1]) سورة الفتح : 3.

(2) سورة الروم : 47.

الكفار علينا لأننا نثق بهم فنخبرهم عن عوراتنا فيكشفونا للكفار ، وما طعن الإسلام بأشر الطعنات إلا ن هؤلاء المنافقين قاتلهم الله ، وما عذر رجل معافا فى بدنه آمنا فى سربه عنده قوت سنة وهو يوالى أعداء الله تعالى من غير ضرورة تدعوه إلى ذلك ، اللهم إلا أن يكون الإيمان قد سلب من قلبه فأضله الله قال تعالى " **مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا**"[1] نعوذ بالله تعالى من سابقة السوء.

قوله تعالى "**حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ**" لأن المؤمنون رضوان الله عليهم يعجبون كل العجب مما كانوا يرونه من المنافقين من التجمل بالصلاة والصيام ، والإيمان المغلظة أنهم مع المؤمنين ، ثم إذ نصر الله نبيه وعز حزبه وفتح الله مكة وضرب الله الجزية على اليهود والنصارى يئس المنافقون وندموا لما نالهم من الخسران لقعودهم عن نصرة رسول الله ، وظهر أنهم أعداء الله ورسولهε ، فعجب المؤمنون كل العجب مما أظهره هؤلاء من النفاق ، وتحققوا أن خبر الله عنهم بآيات القرآن من معجزاتهε قوله تعالى : "حبطت أعمالهم" هذا خبر من الله تعالى ، والأعمال تحبط بمعنى تنعدم ، ولكن حبوطها حرمان أجرها يوم القيامة ، والمراد بإحباط الأعمال الحرمان من نوال المنافقين ثواب صلاتهم وصيامهم وغير ذلك من أعمالهم.

ومن هذه الآية نعلم أن أعمال الجوارح مبنية دائما على حسن الإخلاص فيها ن فقد يقتل القاتل وهو مثاب ، وقد يصوم الرجل ويزك ويجاهد ويحج وهو معاقب "وإنما الأعمال بالنيات" لأن الرجل إذا قتل دفاعا عن نفسه وعرضه وماله لا يكون قاتلا ، ولو تقرب إلى الله بكل القربات وهو سئ النية لا يكون متقربا ، قوله تعالى "فأصبحوا خاسرين" المراد بالإصباح هو كشف الحقائق عند رفع الحجاب ، وذلك لا يكون إلا عند الموت والبعث عندما يظهر غيب ما كان مستورا ويصير منظورا محسوسا ويتحقق كفرانهم بالإيمان فى الدنيا ، ويومئذ لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل "والخسران" هو فقد ما كان يطمع فيه من نجاة وسعادة ونعيم ، أعاذنا الله تعالى وإخواننا المؤمنين من الخسران فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى : "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**"(54).

أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسولهε "**مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ**" بعد أن قامت الحجة وظهرت المحجة "**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**".

هذه الآية الشريفة من أعظم معجزات رسول اللهε ، لأن أهل الردة لم يرتدوا إلا بعد رفعة إلى الرفيق الأعلى ، وعلى تأويل قوله تعالى "**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**" أنهم هم أبو بكر وأصحابه الذين قهر الله بهم أهل الردة ، أى فسوف يأتى الله بقوم يحبهم الله ويحبونه يقهرون المرتدين ويعيدونهم إلى الإسلام بالسيف أو بالحجة ، وعلى تأويل الآية بأن المرتدين هم من أهل اليمن من قوم أبا موسى كما أشار إلى ذلك رسول اللهε بقوله "هم من قوم هذا " ، يكون المراد فسوف يأتى الله بقوم بدلا عن المرتدين ينصرونه الله ورسوله وينشرون الإسلام حتى يظهر على الدين كله.

([1]) سورة الكهف : 17.

وفى الآية إشارة إلى أن الله غنى عن العالمين وأن الإسلام هو دينه الحق ، وأنه تعالى خلق قوما لمحبته وجملهم بحفظه سبحانه ، وخلق قوما للعذاب وأقامهم فيما يكره ، ولا علة لفضله كما لا لعلة لإضلالة من شاء ، وقد سبق القدر أزلا بهداية من شاء وإضلال من شاء وقد يعمل الإنسان بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبينها قيد شبر فيسبق عليه القضاء ، فيعمل بعمل أهل النار فيموت كافرا ، وقد يعمل بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينهما قيد شبرا فيسبق عليه القضاء فيعمل بحمل الجنة فيموت مؤمنا ، والعارف لا يعبد ربا تغضبه معاصيه وترضيه طاعاته ، لأنه الغضب للمعصية والرضا للطاعة من شأن العبد المقهور العاجز لا من شأن الرب الأزلي القادر.

وفى قوله **"يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ"** قد محبته سبحانه على محبة خلقه لتقوم الحجة أنه هو الفاعل المختار وليس لعبد وأن كمل أن يسبقه جل جلاله **"هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ"**[1] ، وقد بينت لنا تلك الآية أن كل محب لله محبوب لله ، لأنه أخبرنا أن محبته للعبد سبقت ، لأن محبته اقتضت أن يجمل العبد بما يحب الله من العلم والكشف والشهود والحال والعمل ، ولكن أهل المحبة يتفاوتون فمن منحه الله العقل فشهد آيات فأحب الله ، أو أحب الجنات فله مقام فى المحبة ، ومن صاغ الله نفسه من أصفى الجواهر منحها الإطلاق فساحت فى عليين أو أعلى عليين فأحبت الله بقدر ما علمت من عليم اليقين أو حق اليقين ن وتكون ذلك المحبة مما تفضل الله به على العبد من العناية والجذب والكشف الذى محا الحجب ، فيكون مقامه على قدره محبته ، ومحبته على قدر ما علمه الله وأشهده ، قال تعالى **"وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ"**[2].

وشتان بين المحب والحبوب ، وبرهان ذلك ما تفضل الله به على حبيبه الأكبر ومصطفاه الأعظم محمدε مما بينه القرآن من مقامه بالقياس إلى مقامات رسله الكرام صلوات الله عليهم ، فأنا لو نظرنا بعيون الإيمان إلى ما تفضل به على حبيبه ومصطفاه وإلى ما تفضل به على كل من أنبيائه يظهر لنا مقام محبوب من مقام محب ، وقد عرفت المحبة فيما سبق ن وبينت تفاضل أهلها وأقمت الحجة على أن الله يحب من شاء من عبيده وأن إنكار محبة الله للعبد دليل على جهل من أنكر بعد صريح قوله تعالى : "يحبهم ويحبونه" لأن من سلم أن الله رحمن رحيم كيف لا يسلم أن الله يحب لأن الرحمة عطف فى القلب يقتضي الميل إلى المرحوم وليس فوق مقام الحبة مقام ، وأهل المحبة هم أهل الذكر الأكبر وأهل الرضوان الأكبر ن ومتى أحب الله العبد لا يضره ذنب ، وفى قوله تعالى : "فسوف" دليل على أن هؤلاء القوم سيأتون بعد رفع رسول اللهε إلى الرفيق الأعلى ، وأن الله تعالى يتفضل على الأمة فيوالى أظهارهم فى كل زمان ومكان ليكونوا أنجم هدى للأمة ، وأن كان المفسرون تأولوا هؤلاء القوم أنهم أبو بكر "رضى الله عنه" ومن معه ، أو أنهم أهل اليمن ، وبعضهم يروا أنهم قريش الذين حاربوا رسول الله أولا ، ثم هداهم اله تعالى ، والذى يقول به من منحهم الله العلم أن الآية خبر من الله أنه لا يخلي الأرض من قائم له سبحانه وتعالى بحججه من بعد رفع رسول اللهε إلى أن تقوم الساعة.

قوله تعالى **"أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ"** أما كونهم إذلة على المؤمنين فلأنهم ينظرون إلى أهل الإيمان بعيون الإيمان فيشهدون فيهم جمال الله الذى جملهم به ، ولو لم تكن إلا أن قلوبهم عقدت على تصديق رسول اللهε والإقرار بوحدانية الله والسمع والطاعة لرسوله لكفى ذلك

([1]) سورة الحديد : 3.
([2]) سورة الصافات : 164.

للناظر إليهم موجبا للرفق والرحمة والمسارعة فى نصرتهم وتأييدهم ومساعدتهم ، ومعنى "الذل" هنا الرفق والعطف ، "وأعزة على الكافرين" لأن أهل الإيمان عندما ينظرون إلى وجوه الكافرين يرون ظلمات تكذيب رسول الله قد انبعثت عن أسارير وجوهم فنفرت قلوبهم وانفعلت أنفسهم ببغض تلك الظواهر فتحصل منهم الأنفة عليهم ويتمنى محوهم من على وجه الأرض ، فتعز نفوسهم عليهم أن يوالوهم أو يوادوهم أو يدانوهم . ومعنى "العزة" كرامة النفس من أن تميل إليهم بقلب أو بقالب مهما تألفوهم بالمال ، أو الجاه أو الوظائف فإن متاع الدنيا قليل ، ومن أحب من يكذب محمداع أو يجحد ربه أو يتخذ لله ولدا أو يعتقد أن الله ثالث ثلاثة فهو معهم ، بل هو منهم ، وكفى بتلك الآية تهديدا أو توبيخا وتشنيعا لقوم يجهلون روح الإسلام.

قوله تعالى **"يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ"** معلوم أن الجهاد فى سبيل الله كما بينت قبلا هو جهاد العدو الداخلي والعدو الخارجى ، ولا يقف المجاهد فى وجه العدو الخارجى إلا بعد أن يق فى وجه العدو الداخلي جهادا يقهره به حتى يكون أطوع لله ولرسوله مما سواهما بدليل قولهع "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس" هذا بعد أن أقام رسول اللهع بين ظهرانيهم يزكى نفوسهم ويثقف عقولهم ويهذب أخلاقهم ، ومع ذلك يقول الجهاد الأصغر الذى فيه أريقت دماؤهم ومزقت جلودهم ورملت نساؤهم ويتمت أبناؤهم ، وكل ذلك فى نظر الشريعة جهاد أصغر فكيف يكون الجهاد الأكبر الذى هو جهاد النفس، إذا منح العبد هذا الجهاد ، ثم قام منفردا أمام جيوش الكفر بعددهم وعدتهم نصره الله وأيده كما أيد الله رسوله فى وقعة أحد عندما أنهزم جيشه من حواليه فرمى جيش الأعداء بقبضة تراب فإذلهم الله وهزمهم ، والجهاد هو بذل ما فى الوسع نصرة لله ولرسولهع ، والجهاد قد يكون واجبا وقد يكون سنة، فيتعين على من عينه عليه الإمام العدل ، وعلى قوم حل محلتهم العدو فإنه يتعين عليهم جميعا ولو لم يعينه الإمام ، فيجب على الرجال والنساء ويتعين على كل جماعة أصلحت بين طائفتين فأبت منهم الصلح ، فيجب على جماعة المسلمين أن يقاتلوا الطائفة التى أبت الصلح حتى تفئ إلى أمر الله ، ويكون الجهاد سنة فى الدعوة إلى الله إذا قدر المسلمون على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ودفع البدع بأيديهم ، وقد قيد الله الجهاد بكونه فى سبيل الله ، والمعنى فى إعلاء كلمته وتجديد سنة نبيهع ودفع الظلم والتظالم عن المسلمين ، "ولا يخافون لومة لائم". أي لا يرهبون لوم اللائمين مهما كان مقتضى اللوم ولو اقتضه العواطف القبلية أو الوطنية أو غير ذلك ، فإن الحق فوق الخلق مهما كان شأنهم ، وما ترك المسلمون الجهاد إلا ابتلوا بالصغار والهوان ، وقد ذكر الله صفات من يحبهم ويحبونه فجعل أعظمها أنهم أذلاء عل المؤمنين أعزاء على الكافرين ، وأنهم يجاهدون فى سبيل الله بأنفسهم وأموالهم وأنهم فى جهادهم لا يخافون لومة لائم ، وتلك الصفات العالية هى الحجة القائمة عل أنهم يحبون الله تعالى ، وما من عبد يحب الله تعالى إلا وأقام الحجة على أن الله تعالى يحبه ن ومعلوم أن رحمة الله تعالى هى إرادته سبحانه الخير الدنيوي لعبده ، ومحبته هى إرادته الخير الروحاني لعبده ، والمحبة أعلى مقامات القرب من الله ، ومن أنس بنفسه حتى سارع إلى محاب الله ومراضية فى القيام بما أمره والبعد عما نهاه عنه كان محبا محبوبا ، وأما اللومة فهى فعلة من لامة واقلها العتاب وأعلاها التعنيف.

قول تعالى **"ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ"** الإشارة عائدة إلى خبر الله تعالى الذى أخبرنا به عن إتيانه بقوم يحبهم ويحبونه ، وإلى ما جملهم به من الصفات المحمودة ، وفضل الله أى إحسانه الذى لا يعلل بعلة عمل ولا نسب ولا علم بل ذلك بتقديره أزلا وإبرازه أبدا ، وهذا دليل قاطع على

أن الله تعالى هو الفاعل المختار وأن الإنسان ليس له حول ولا قوة ينال بهما محاب الله ومراضية ، ولا حول ولا قوة له بدفع بها معاصى الله تعالى ومغاضبة، وقد قدمنا أن الله تعالى إذا سبق فى علمه الرضا على عبد لا يغضب عليه ولو أمضى أكثر عمره فى الكفر ، وإذا قدر فى أزله الغضب على عبد لا يرضى عنه ولو أمضى أكثر عمره فى القربات إلى الله ، فالرب الذى تغضبه السيئات وترضيه الحسنات ليس ربا كاملا ، وفى قوله تعالى "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء" – برهان حق على جهل من قال أن الإنسان يخلق أعماله باختياره فإن يؤتيه برهان على أن حالة الإنسان لتى هو بها من صلاح أو فساد مقدرة أزلا ، ودليل ذلك تحول الأحوال ، فإنك ترى الإنسان مجذوبا إلى الله بعامل قوي لا يقاوم بعد مضى فترة تراه قد أنقلب على وجهه ، ولا حول له ولا قوة فى الأول ولا فى الثانية ، وإنما هى أسرار القدر ، نعوذ بالله تعالى من سوء السابقة والعاقبة ونسأله حسن الخاتمة.

"وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" الوسعة الإلهية أنحاؤها كثيرة ، ولما كان المقام مقام إسباغ النعمى لمعان جمل الله بها من أراد إسباغها عليه ، ناسب أن تكون تلك الوسعة من ناحية الجود والكرم ، وفى معنى الوسعة دليل على أن خزائنه جل جلاله لا تنفذ ولو أنه أعطي لكل إنسان مقدار ما فى الدنيا مشيئا ذلك لما نفذت خزائنه ، ولكن فى قوله "عليم". دليل على أن الله تعالى حكيم قادر يعطي العطايا على قدر مصالح الخالق ، فيمنح واسع الخيرات عباده بقدر لا يخرجهم عن مقتضيات العبودية لأنه جل جلاله أوقفهم عند الأسباب ليحفظهم من منافسة الربوبية – فأن الإنسان إذا منحه الله ما يشاؤه نسى الله ونسى اليوم الآخر ، ومع أن الإنسان تحيط به الأسباب من كل جانب فتراه يحتاج إلى الهواء لنفسه ، وإلى الماء لريه ، وإلى الغذاء ليستعيض ما فقد منه ، وإلى الشمس وإلى جميع الحقائق المحيطة به ، وهو فى كل يوم يرى نفسه محتاجا للأكل والنوم واللباس ومع ذلك فإنه ينسى اليوم الآخر ، وتغمره الدنيا جهلا بحقيقة نفسه وبما حوله ، مسكين هذا الإنسان إذا أغناه الله طغى ، وإذا عافاه الله بغى ، وإذا مكنه الله فى الأرض أفسد ، ولولا ما يعتوره من دواعي الضرورات لقال أنا ربكم الأعلى كما قالها فرعون أعاذنا الله وأخوتنا المؤمنين.

والوسعة الإلهية فى قوله "واسع عليم" أى أن عطاياه جل جلاله لا تنفد ما فى خزائنه ، وأنه مع عطاياه سبحانه يعلم مصالح خلقه ، وما لابد لهم منه ، فيقدر لهم ما به حفظ حياتهم إلى آجالهم من نسيم عليل بليل ، ومن غذاء ومن نور نستبين به الحقائق ،ومن عقول تخترع ما يحتاجون إليه من الملبس والمفرش والمسكن ، وإيجاد الآلات والأدوات التى بها الوصول إلى نيل الغايات ، وكل ذلك فضل من الله وإحسان ، فالعقول خلقها الله ، والجوارح المجترحه هو خالقها ، والمادة التى تنتفع بها تلك العقول وتلك الجوارح مخلوقة له جل جلاله ، وصدق الله العظيم حيث يقول : **"وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ"**[1].

قوله تعالى : **"إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ"**(55).

معلوم أن الولي هو الذى يتولى مواليه بالنصرة والتأييد وإسداء الخير إليهم بالمسارعة إلى نجدتهم ، والنصرة عبارة عن تأييد العبد بروح القدس حتى ينعقد قلبه على كمال التوحيد ، ويفقه عقله آيات الله المنبلجة فى الكائنات ، وينشط جسمه لعبادة الله المفروضة عليه ، والقيام بنوافل البر ، وهذا كله هو التأييد من الله تعالى فى الولاية . فالولي هو من يتولاك حسا وعقلا وروحا وجسما ، ولا يكون الوالي وليا حقا إلا إذا كان غنيا عن موالية الذين يتولاهم ، وإنما يتولاهم فضلا منه وكرما

([1]) سورة الصافات: 96.

، وهؤلاء هم المؤمنون الذين أوجدهم الله وأمدهم وخلق لهم كل شئ يحتاجون إليه من سموات وأرض وهواء وماء ونباتات وحيوانات وغير ذلك من الاحتياجات قوله تعالى **"إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا"** . فولاية الله تعالى أنه جل جلاله هو الذى أوجدنا وأمدنا وسخر لنا ملكه وملكوته ، وولاية الرسولε أنه هو الذى دلنا على الله وبين لنا سبيله بقوله وحالة وعمله ن وولاية الذين آمنوا أنهم رحماء كرماء يحبون عباد الله ويؤثرونهم بالخير ، وأما ولاية أهل الجهالة من اليهود والنصارى فإنهم أعاذنا الله من ولايتهم يوقعون من يواليهم فى الهلاك والخسران دنيا وآخرة.

"الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ" أي يقيمونها بحسن نواياهم وكمال شروطها من طهر باطني وطهارة ظاهرة من ثياب ومكان والعرب يقولون قامت السوق أى راجت ، فإقامة الصلاة رواجها حتى تكون مقبولة عند من يصلى له ، وعند أهل المعرفة لا تصح الصلاة إلا إذا علم المصلي ، لمن يصلى ، وبمن يصلى، وعلى منهج من يصلى ، حتى يكون عبدا موحدا متبعا للشريعة المطهرة.

"وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ" إيتاء كزكاة أخراجها من القلب ومن اليد معتقدا فضيلتها ، فرحا بأن الله أغناه وجعل يده عليا بالعطية للفقراء شاكرا الله على ذلك ، والزكاة نوعان زكاة المال وزكاة النفس:

النوع الأول زكاة المال وهى فى خمسة أنواع "العين ، والحرث، والماشية ن الركاز ، والثمار" . أما العين فهى الذهب والفضة والمسكوك منها ، والحرث هو الحبوب التى يتغذى منها الإنسان كالقمح والشعير الذرة والفول والأرز وغيرها مما يأكله الناس ، وأما مالا يؤكل فلا زكاة عليه كالقطن والقصب وما شابههما من وفواكه والخضراوات ، والماشية هى البقر والجاموس والماعز والغنم ، ولا زكاة فى الحيوانات الداجنة جميعها ، الركاز هى الكنوز التى يعثر عليها الإنسان ، فإن نالها بمجهود ففيها ربع العشر ، وأن نالها بسهولة ففيها الخمس ، والثمار هو التمر والزبيب والزيتون وما شابههم من الفواكه والخضراوات – **"وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ"** يراد بها زكاة المال بجميع وجوهه – أما زكاة النفس فدليلها قوله تعالى **"وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ"**[1] فهي تطهير النفس من مقتضيات عناصرها بحبسها بحصون الشريعة حتى لا تتعدي آدابها، وقد بينت تلك الأداب وشرحها بالتفصيل فى ما كتبت بكتب "النور المبين" و "معارج المقربين" و "تذكرة المرشدين والمسترشدين".

قوله تعالى **"وَهُمْ رَاكِعُونَ"** الواو هنا للحال ، أى أن من صفات المؤمنين الذين هم أحق بأن نتولاهم هى أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون أى خاشعون متواضعون ، وهذه الصفات التى بينها الله للمؤمنين الذين هم أولي بالولاية من غيرهم ، هى البرهان على كمال إيمانهم عند الله الذى يستحقون به ولاية المسلمين فيكونوا جميعا حزب الله تعالى.

قوله تعالى : **"وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ"**(56).

معنى هذه الآية : أن من يتبرأ من ولاية اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر ويفرد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالولاية عليه فهو الغالب فى الدنيا والآخرة بدليل قوله تعالى : **"فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ"** لأن الآية دلت على حذف ما هو معلوم ، والحزب فى اللغة هو الصاحب المعين المؤيد لرأيه ، والناصر له ، فحزب الله هم أنصاره من الرسل والأنبياء والأولياء والمؤمنين ، وهؤلاء هم الذين ينصرهم الله ويؤيدهم ،وهم حجة الله فى أرضه على خلقه ولا تخلو الأرض من قائم بها ، وفى قوله : "حزب الله" بوضع الاسم الظاهر مقام المضمر تشريفا وتعظيما لأنصار الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، حيث أضافهم إلى ذاته العلية.

([1]) سورة المؤمنون : 4.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"**(57).

ينهانا سبحانه وتعالى عن اتخاذ أهل الكتاب وغيرهما من الكفار أولياء بعد أن نافقوا وهزءوا بصلاتنا واتخذوها لعبا ، وسبب نزول هذه الآية أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث كانا قد أظهرا الإيمان ثم ارتدا ، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فانزل الله فيهم هذه الآية ، وقرئت بجر الراء من الكفار وبفتحها ، فبجرها تعطف على قوله من الذين أوتوا الكتاب ، وبنصبها تعطف على قوله لا تتخذوا الذين , وهما قراءتان صحيحتان و "أولياء" ، يعنى أولياء لكم تحبونهم وتطيعون أمرهم.

"وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" أى خافوا من الوقوع فى معاصى الله تعالى بولاية أهل الكتاب وغيرهم من الكفار فإن من تولى غير الله ورسوله والمؤمنين سجل على نفسه الكفر بالله تعالى.

قوله تعالى : **"وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ"**(58).

هذه الآية الشريفة دلت على أن الأذان كان مفروضا بخبر الله تعالى عنه ، وقد يكون بعد الرؤيا المنامية التى رآها أحد الصحابة ، وكان أول من أذن بمقتضاها بلال بن حمامة ، فبينت أن نفوس أهل الكفر بالله من أردئ الجواهر ، لأنها لم يخلق الله لها قابلا يقبل عنه سبحانه أسراره ، ولذلك فإن أنوار الرسل وأسرارهم العالية وآياتهم وبيناتهم المعجزة لم تؤثر عليهم ، بل كانوا لخبث طبعهم وسوء نفوسهم الأمارة بالسوء يرون أنبياء الله فيهزءون بهم، ويرون قيام المؤمنين بالصلاة طاعة لله فيلعبون بها مستهزئين حسب ما تملي عليهم شياطينهم وخبث نفوسهم ، ولو أن الله جعل لهم آذانا تسمع عن الله ، وأعينا تبصر آيات الله وقلوبا تعقل كلام الله تعالى لفازوا بالحسينين، ولكن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء.

"ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ" الإشارة هنا عائدة إلى ما وصف الله به الكفار من سوء فعلهم مع رسول اللهε ، ومن اتخاذهم الآذان والصلاة هزوا ولعبا ، أى أن ذلك العمل الذى يعملونه بالاستهذاء واللعب دليل على أنهم لم يتعقلوا آيات الله ولم يفهموا أسراره ، لأنهم لو كانوا يعقلون لسارعوا إلى الإيمان بالله وبالعمل بكتاب الله وسنة رسولهε لقيام الحجة ووضوح المحجة ،وأن أى عقل من العقول يسمع كلام الله أو يرى معجزات رسول اللهε لابد وأن يقبل بكليته على الله سميعا مطيعا ، فدل استهزاؤهم بالإسلام على فقد العقل منهم.

ومن طن أن الأفرنج والعرب والعجم غير المسلمين لهم عقل فقد جهل الحقائق حيث لم يقم دليل على ثبوت العقل لهم ، وأن الصناعات والمخترعات التى اخترعوها والسياسات التى وضعوها إنما هى ضرورية للإنسان حسب هيئته واستقامته ، فإن كل نوع من أنواع المخلوقات له سياسة خاصة ومجتمعات خاصة وتعاون على جلب المنافع ودفع المضار.

ولما كان الإنسان أكمل المخلوقات لزم له بحسب ما أودعه الله فيه ، وخلقه لأجله ، أن يتميز عن الأنواع الحيوانية بفكر على قدر نوعه ، وعمل على قدر جوارحه ، وإختراع على قدر فكره ، فإن أنواع الحيوانات لكل نوع منها خصوصية ، فمنها ما يبنين البيوت على أعالي الشجر كالطير وأشباهه ، ومنها ما يبنيها فى جوف الأرض كالنمل والجرذان "الفيران" ، ومنها ما يبنيها فى الجدران والسقف كالنحل والزنانير ، ومنها أنواع برية بحرية ، وهى الحيوانات التى تعيش في البحر والبر فتبنى لها خندقا بين البر والحبر من فروع الأشجار التى تقطعها بغضروفها كالمنشار ، ثم تبنيها كالنجار الذى يصنع الخندق ، فإذا جاءها الصياد من البحر خرجت إلى البر وإذا جاءها من البر خرجت إلى البحر ، وهذا العقل موهوب لها لسلامتها ، وهناك حيوانات تقف موقف الحرب مع

بعضها فتقاتل بعضها ، وهناك نوع ينظم مجتمعه وله ملك ووزراء وقواد وجيوش وشغالة كالنحل والنمل . وغير ذلك من عديد الأنواع.

وقبح الله الإنسان فأنه بما خلقه الله له بالنسبة لحالته لا يكفيه قوت اليوم بل ولا قوت السنة ، فهو يجمع المال معتقدا أنه مخلد إلى الأبد لا يقنعه قوت سنة لا ولا قوت ألف سنة جهلا منه بحقيقته ، أما ما عدا الإنسان من الحيوانات فإنها تكتفى بقوت الوقت إلا أنواعا سافلة جدا كالنمل والجرذان فإنها تخزن قوتها مدة الشتاء ، فالإنسان الذى لا يعقل عن الله أسرار آياته هو أضل من البهائم وأشر من الشيطان ، وقد أثبت بتصرفاته أنه لا عقل له يعقل عن الله تعالى فنفى سبحانه عنهم العقل الذى يعقل عنه جل جلاله وأن لم ينف عنهم العقل الذى يعقل عن الكون بعقول البهائم السائمة والوحوش الكاسرة والثعالب الخادعة ، ومن تأمل النمل فى تدبيره وحكمته ودقة صنعته وهندسته فى مساكنه وفى تعاونه على النفع العام ، علم أن النمل خير من الإنسان فى كل أدوار معيشته ، وأن الإنسان لم يمنح عقلا يكسبه رحمة ورفقا كما خلق الله النمل ، فإن النملة إذا رأت نملة أخرى فى شدة حملتها ، فإن لم تطق فرت إلى بيت النمل فأحضرت لها نملا يحملها ، وفى رعايتها لمصلحتها الصحية وبقاء وحفظ ذخائرها فشئ فوق العقول ، بل وفى احتياطها لحفظ مساكنها من الغرق بل ومن الهدم بسبب مرور الناس عليها فذلك عجب فى عجب ، وقد توسع فى بيان ذلك العلماء ، وأنظر إلى هندسة النحل وما أتقنه من الأشكال المسدسة حتى يعجز أكبر مهندس أن يرسمها ، وفيها خلقه الله فيها من المعمل الكيماوي الذى به تخرج فتلتقط رطب أريج أزهار النباتات ثم تعود به فتطبخه عسلا مصفي قائما بمادة شمعية فى بيت على شكل مسدس يحفظ لها ولبنيها ليغذيها بدل اللبن حتى يتم نموها ، فسبحان الحكيم القادر الذى أظهر عجائب قدرته وغرائب حكمته فى أنواع الحيوانات ، وفيما أعده لها للحفظ وللغذاء وللنمو ، وما أودعه فيها من العقل والسياسة والحكمة مما أعجز الإنسان.

وليست المخترعات ولا أنواع الصناعات ولا القوة فى تنفيذ السياسات بدليل على العقل الذى يعقل عن الله ، ولا يدل على العقل الذى يعقل عن الله إلا الإيمان بالله وبرسولهε والمسارعة إلى العمل بمحاب الله ومراضية، لأن الله نفى العقل الذى يعقل الحقيقة عن أهل الكفر به ، فمن قال أن أهل أوربا – الذين اخترعوا مهلكات الإنسان بالحديد والنار وطاروا فى الجو لاستعباد خلق الله وغاصوا فى البحار لسلب مرافق العباد – عقلاء ، فقد أثبت لنفسه الجهل بالله وبحقيقة الأمانة التى حملها الإنسان ظلما وجهلا.

قوله تعالى : **"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ"**(59).

يأمر الله تعالى رسوله محمدε أن يقول لليهود والنصارى ، هل تجدون ف صدوركم سببا للسخط علينا وكراهة لنا سوى إيماننا بالله وما أنزل إلينا من كتاب الله المنزل على خاتم رسلهε وإيماننا بما أنزل على الرسل صلوات الله عليهم من قبل القرآن ، فنحن والحمد لله آمنا بالله تعالى وبملائكته وكتبه ورسله جميعا ، ولو أنكم آمنتم بالله وبرسله وبما أنزل عليكم من الكتب لما وجدتم علينا ما به تنقمون منا بل لوجدتم ما به تسارعون إلى الأخذ بما نحن عليه مما هو الحق الذى أنزله الله على رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، ولوجدتم أن الكراهية والعتب والغضاضة سببها كفركم بالله وبرسله وبكتبه المنزلة عليكم لأنكم حرفتم كلام الله بالهوى والحظ والطمع ، وهل دعاكم إلى هذا الذى لا يعمله إلا أهل الكفر بالله مع من بعثهم الله بالحق وأيدهم بالمعجزات الباهرات إلا كفركم بالله

تعالى لما جبلتم عليه من خبث الطبع والمسارعة إلى هوى النفس الأمارة بالسوء النزاعة إلى العناد والإفساد.

قوله تعالى **"وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ"** والفاسق هو الكافر الذى خالف الدين وخرج عنه ، فإن الفسق هو خروج الحية من ثوبها ، كما أن الفقس هو إخراج الدجاجة فراخها من بيضها ، فالحية تسمى فاسقة ،وعلى هذا فالفاسق هو الذى خرج مما كان فيه من الحق ، ويكون معنى الآية أن أكثر أهل اليهودية وأهل النصرانية قوم بهت لا يقبلون إلا الباطل مع تظاهرهم بالحق ، وقبولهم الباطل إنما هو لحرصهم على الحياة الدنيا ومسارعتهم إلى الكفر بالله فى سبيل نيل المال غير هيابين من إنذار الله ولا خائفين من عقوبة الله، فدل ذلك على أن الههم المعبود لهم هو حطام الدار الفانية ،وهى خصلة موجودة نبتت فى قلوب اليهود من أيام الفراعنة فالعمالقة ونبتت فى قلوب النصارى من أيام فتنة المسيح بن مرين عليه السلام.

ولأن الإسلام وسع بسماحته وعطفه أهل اليهودية والنصرانية وحماهم بالعدالة والمساواة عملا بسماحة الإسلام لكانوا أذل من الزنوج السود فى بلاد الأمريكان ، ، وهاهم الآن بفضل الإسلام عليهم قد سادوا وشادوا وقاموا فى وجه المسلمين يناوئونهم بعد أن كانوا ف قل وذل ، ولولا سماحة الإسلام لما بقى من اليهود والنصارى إنسان يتنفس على وجه الأرض ، ومع هذا الفضل والإحسان والرحمة التى قام به المسلمون والنصارى عملا بشرائع الإسلام حتى أبقوهم إلى الآن فى رخاء وأمن وعافية ، ولكنهم قلبوا هذا الإحسان والفضل . سلاحا يضربون به الإسلام والمسلمين فى أكبادهم جزاء بالنقيض ، لأن أكثرهم فاسقون ، فانظر فى فلسطين وغيرها من بلدان المسلمين كيف استعانوا بدول الاستعباد والظلم على المسلمين بمجازاتهم بالسؤ على إحسانهم إليهم ، فصدق قول الله العظيم "وأن أكثركم فاسقون".

وهذه الآية الشريفة بيان فى سبب نقمة اليهود والنصار على المسلمين، فيكون التأويل هل لنقمتكم منا سبب إلا إيماننا بالله وبكتبه ورسله وإلا أن أكثركم فاسقون.

قوله تعالى : **"قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ"**(60).

قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى هل أنبئكم بغيب من الحوادث التى وقعت فى سلفكم مما لا يعلم علمه إلا الله ، ومن أعلمهم الله من الأحبار والرهبان مما انبأهم على السنة الرسل ، وقد علمتهم أنت فكان علمك به حجة قاصمة لظهور من أنكروا عليك رسالتك ، والمعنى : قال هل انبئكم بشر مما تنقمون فيه علينا ، والمثوبة أصلها مثووبة نقلت الحركة على حرف العلة فنقلت الحركة على حرف العلة فنقلت إلى الساكن قبلها فجعلت ضمة لتدل على ان المحذوف –واو- "والمثوبة" قد تكون للشر وللخير – وهي الجزاء – كما قال تعالى : "وبشرهم بعذاب أليم" فالبشرى هى فى الحقيقة الخبر بخير لم يكن يعلمه السامع فكذلك هنا ، ويصح أن تطلق "المثوبة" فى اللغة فتكون بشر أو بخير كما قررنا – أى هل أنبئكم بجزاء شر وقع على اليهود والنصارى فى الدنيا شرا مما كانوا ينقمون علينا فيه ،وتلك المثوبة التى هى شر – أن قلب الله حقائقهم قدرة وخنازير.

وقد بينت هذا الموضوع في تفسير قوله تعالى : "فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين" فى سورة البقرة.

قوله تعالى : **"مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ"** فاللعنة هى الطرد من الرحمة والحرمان من خير الدنيا الروحاني وخير الآخرة الجسمانى ذلك لأن أكمل خير فى الدنيا هو الإيمان بالله تعالى وبملائكته وكتبه ورسله ، ذلك الإيمان الذى تطمئن به القلوب وتنشرح به الصدور ،ومن لم يفز فى

تلك الدار الدنيا بهذا الإيمان فهو فى عذاب روحاني إلى أن يموت رغم كونه فى نعيم جسماني ، فإذا مات جمع الله عليه عذاب الجسم وعذاب الروح معا ،وهذه هى اللعنة أعاذنا الله تعالى منها ، أما الغضب فقد سبق لنا شرحه بالتفصيل.

قوله تعالى : **"وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ"** أما أن تكون فعلا ماضيا ن والتأويل وجعل منهم من عبد الطاغوت ، وأما أن يكون جمعا بعباد التى هى جمع عابد كما رويت عبد الطاغوت ، هو كل محبوب مطاع من دون الله تعالى.

قوله تعالى : **"أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا"** الإشارة عائدة إلى من شنع الله عليهم ممن نقموا علينا بسبب إيماننا بالله وملائكته ورسله ، "وشر مكانا" أى مكانهم شر الأماكن ، وشر الأماكن هو صقر والعياذ بالله ، ولك أن تقول أولئك أهل شر مكانا بتنوين الراء على حذف مضاف ، أو أنها كناية عن خلودهم فى نار سقر.

قوله تعالى : **"وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ"** أى وأبعد عن طريق الله الوسط الذى نهج عليه الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء وخيرة عباد الله الصالحون.

قوله تعالى : **"وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ"**(61).

الخطاب لرسول اللهε ولأصحابه رضى الله عنهم وتأويل هذه الآية : أن الذين كانوا يستهزئون بصلاة رسول اللهε وأصحابه وبديننا بعد أن وصفهم الله تعالى بتلك الصفات الذميمة ، بين سبحانه أنهم على خصلة من الشر ومن النفاق فوق ما وصفهم الله به ، وهى أنهم أخزاهم الله فى الدنيا والآخرة يجيئون إلى رسول اللهε فيقولون للمؤمنين آمنا بالله وبمحمدε وبما جاء به ، وهذا القول بألسنتهم مع عقد قلوبهم على الكفر بالله وبرسوله ، وهم شر المنافقين لأنهم أهل كتاب يعرفون أن محمداε رسول الله وخاتم الأنبياء ومن ولد إسماعيل الذي بشر به إبراهيم وموسى وعيسى بصريح التوراة فى أسفارهم عليهم السلام ، وهذا هو النفاق العلمي العنادى أعاذنا الله من شرهم ، لأن شرهم فوق شر أهل الجاهلية الذي لا علم لهم ، والله تعالى يكشف الستر عنهم.

"وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ" أي دخلوا وقلوبهم معقودة على الجحود وجلسوا مع رسول اللهε فلم ينتفعوا بما أفاضه الله على أهل الإيمان من العلم والحكمة والمعرفة ، لأن الله تعالى لم يقدر لهم سماع القبول ولا شهود تلك الأنوار التى تهش لها قلوب المؤمنين وتبش ، فخرجوا بالكفر ى خرجوا كما دخلوا كفارا وفى الآية تحقق كفرهم عند دخولهم "وهم قد خرجوا به" . إشارة إلى توكيد الكفر وتشديد فى التشنيع عليهم.

قوله تعالى : **"وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ"** والمعنى والله أعلم منهم بما كانوا يكتمون من الكفر وغيره من سوء النوايا وشر المقاصد ، وفى هذه الاية تهديد وبيان أنهم مع دراستهم التوراة كفروا بتكذيبهم وجهلهم بما يحيط به علم الله تعالى من السر وأخفى.

قوله تعالى : **"وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"**(62).

تأويل هذه الآية أن الله يقول لرسولهε ترى يا محمد كثيرا من اليهود والنصارى يعجلون إلى عمل ما يأثم عليه العامل من أعمال القلوب ، كالكفر بالله والنفاق وإفشاء السوء عن رسول اللهε

وعن أصحابه بقصد ردة المؤمنين عن الدين حسدا من عند أنفسهم ، وسعيا لإطفاء نور الله بأفواههم ، والعدوان هو تعدى حدود الله تعالى بعمل الجوارح والقلوب أيضا ، والمسارعة إلى الحظ والهوى والوقوع فى كبائر الجوارح.

قوله تعالى : **"لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"** أى والله لبيئس ما كانوا يعملونه من تلك الآثام والكبائر ، وما شنع الله على قوم بقوله "بئس" إلا وأوجب عليهم الخلود فى النار.

ولما كانت تلك الأعمال ممن لم يتظاهروا بأنهم لا أحبار ولا رهبان أتى بقوله "يعملون" ، لن عقوبة من يعلمون ويقيمون فى العدوان أشد وأنكى من ترك ما أمروا به من الأمر بالمعرف والنهى عن المنكر ومن الجهاد فى سبيل الله والدليل واضح فى الآية التالية.

قوله تعالى : **"لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ"**(63).

ولولا لا تفيد إمتناع لأمر موجود ، بمعنى هلا ، وهى حض العلماء أن يقوموا بما أمرهم الله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإذا تركوا المسارعة إلى هذا طمعا فى إرضاء الخلق لينالوا منهم متاع الدنيا القليل ، أو خوفا على شهرتهم وسمعتهم بين قومهم ، أو دفعا لما يتوهم أن ينالهم من السوء كان صنيعهم هذا بئس الصنيع.

قوله تعالى : **"لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ"** لأن يعملون ويصنعون وان كان معناهما واحدا ، إلا أن يصنعون أشد وأنكي من يعملون ، لأن ترك قيام العلماء بتذكير الناس بالله وبآياته وبأحكامه وبحكمة أحكامه ضياع للدين ، وخصوصا عند المسلمين الذين لا ينتظرون نبيا يرسل ولا رسولا يبعث بعد خاتم الرسلε ، وأن كان ترك الأحبار والرهبان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أنكى من وقوع العامة فى الأثم والعدوان ، إلا أنه بهذا القياس يكون ترك علماء المسلمين القيام بالأمر والنهي أشر من ترك علماء اليهود والنصارى قبل بعثة رسول الله وبعد بعثتهε ، لأن اليهود والنصارى قبل البعثة كانوا ينتظرون نبيا مبينا فى كتبهم ، أما نحن جماعة المسلمين فنعلم يقينا أنه لا نبي بعد محمد ، ومن أعتقد أنه سيبعث رسول بعد محمد فقد كفر ،وبهذا تعين وجوبا على العلماء أن يضحوا بدماءهم وأموالهم وأولادهم وشهرتهم فى سبيل تذكير عباد الله بأوامر الله ، ومن علم رسالته هان عليه بذل النفس والنفيس فى سبيلها لأن قوله تعالى : "الربانيون" يعنى الذين تجردوا من مقتضيات نفوسهم الأمارة بالسوء ، ومن لوازم طبعهم الخبيث وعناصرهم المتضادة حتى نسبوا إلى الرب وهم أهل المعرفة بالله الذين يعلمون الناس الحقائق بما علمهم الله "والأحبار" جمع حبار أو حبر بفتح الحاء أو كسرها ، وهم أهل العلم الظاهر الذين حصلوا أحكام دين الله وحفظوا ما ورد عنها فالرباني أعلى مقاما من الحبر لأنه يتكلم بلسانه عن قلبه عن ربه ، أما الحبر فيتكلم بلسانه عن ذاكرته عما استحفظ عليه من العلم ، لهذا كان مقام الربانية عزيزا إلا على من سهله الله عليهم ، قال سبحانه **"كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ"**[1].

قوله تعالى : **"وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"**(64).

([1]) سورة آل عمران آية : 79.

نمهد إلى تأويل هذه الآية بما هو معلوم من أن الله تعالى إذا أحب عبدا أقامه فيما يريه ويحبه بتوفيقه وعنايته ، ثم نسب إليه ما وفقه إليه من الأعمال غير مان عليه بما أحسن به إليه ، حتى لو أنه وقع فيما يكرهه الله من الكبائر أبدلها له حسنات ن وستر ذنوبه عن خلقه حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بها ، وإذا كره عبدا أقامه فى المعاصى ويسرها له ، وحتى لو قدر له طاعته وقربه ، سلب منه الرعاية والمراقبة ، فوقعت منه أعمال البر لأغراض وعلل ، تحجب الأعمال عن أن تصل إلى الله تعالى ثم من عليه بما أنعم به عليه وكشف خفايا قلبه وجوارحه للخلق فى الدنيا وفضحه يوم القيامة ، ودليل ذلك ما نرى الله تعالى أخبرنا به فى كتابه من مننه على بنى إسرائيل بالمن والسلوى ، وتفجير عيون الماء من الحجر ، وبنجاتهم من الغرق ، وبما ذكره سبحانه ، من أنه جل جلاله فضحهم فأخبرنا بسوء نواياهم وقبيح أفعالهم وذميم أقوالهم.

وهذه الآية برهان على ذلك ومعجزة لرسول اللهε ، لن الله أخبره بما لا يعلمه إلا فحول أحبارهم وربانيهم.

قوله تعالى : **"وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ"** وقد تأول اليد هنا بعض العلماء أنها القدرة ، وإثابنا الله وأياهم بقدر نواياهم ومقاصدهم ، ولكن أقول لهم أن القدرة وحدة ، وقد ثنى الله اليد وجمعها فقال **"مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ"**[1] وقال **"مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا"**[2] القدرة لا تثنى ولا تجمع ، والواجب علينا أن نسلم تسليما كما سلم سلفنا الصالح ، فنقول له "يد" ولكن ليست كأيدينا واليد معلومة والكيف مجهول.

وتأويل هذه الآية أن اليهود يحكومون على الله تعالى بالبخل "ويد الله مغلولة" كناية عن البخل ، فإن العرب تخبر عن الرجل الكريم بأن يده مبسوطة ، وعن البخيل بأن يده مغلولة أو ممسوكة ، وأن كان اليهود قاتلهم الله قد أنكروا هذه الفرية على الله فادعوا أنهم لم يقولوا أن يد الله مغلولة ، ولكنا نكذبهم ونصدق الله ورسوله ، وإذا جاريناهم فى هذا نقول أنهم قالوا أن الله بخيل ، ومعنى يد الله مغلولة عندهم أى تمنع العطايا نسيانا لنعم الله المحاطة بهم ، فإن الله سخر للإنسان ما حواه العرش من جميع الأنواع فى ملكه وملكوته بدليل قوله تعالى "وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه" وتلك الشرذمة الجاهلية بنعم الله لا ترى لله نعمة عليها إلا المال الوفير ، والمطعم الشهى ، واللباس البهي ، والفراش الوطي ، والمرأة الجميلة المطيعة ، وهذه من النعم التى تسعى إليها أنواع الحيوانات وتجاهد لنيلها ، أما الإنسان المؤمن فإنه بما منحه الله من العقل يدرك حقيقة نعم الله عليه فيزهد فى كل تكل الطيبات التى مآلها إلى زوال فلا يشغل قلبه بشئ من ذلك بعد أن عرف الله وصدق بما عنده من نعم روحانية خالدة لا تزول.

وقد صم الله ظهور اليهود بما أقامه من الحجة بقوله تعالى : **"غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا"** أي بعدوا عن رحمة الله وفضله ، وتلك اللعنة بسبب ما قالوا وهذا دليل على أن اليهود صيغت أنفسهم من طينة الخبال ، ولا نزال فى عصرنا هذا نطلع على خائنة منهم وعلى سوء فعال مجتمعهم ،وخبث نواياهم ،وهم مظهر الغضب واللعنة والقطيعة والحجاب ، وقد ظهرت آثار تلك المعاني فيهم واضحة لمن له عقل يعقل به عن الله وعين يبصر بها حكمة إيجاد الله لمخلوقاته وإقامته لعباده ، وقوله "غلت أيديهم" هو خبر من صورة دعاء عليهم ، وهى فى حكم ليكن كذا ، فأنا نرى أيديهم

([1]) سورة ص : 75.

(2) سورة يس : 71.

غلت عن فعل الخير وعن البذل فى البر والتقوى ، فلا تمد إلا للسوء والضرر ولا تبذل لا لمحاربة الله ورسوله والمؤمنين ، وهذا معنى أنها غلت.

قوله تعالى : **"بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ"** لما كان الملك والملكوت مخلوقان باليدين ، يد خلق بها الشهوات ويد خلق بها العقول ،وقد جمع اليدين ف خبر خلق آدم وأبناؤه ، فجمع للإنسان قوة الشهوة وقوة العقل ، وخلق العالم الأعلى بيد العقل ، وخلق العالم الأدنى هو دون الإنسان بيد الشهوة ، وكل العالم الأعلى عقل وكل العالم أدني شهوة ، والإنسان جمع الله فيه الشهوة والعقل ، فإذ أمده الله ومنحه المزيد من فضله رفعه إلى الأعلى فوق عالين وعليين ، لما أودع فيه من قوة الشهوة فجهادها فوق جهاد الحديد والنار ، فيداه سبحانه مبسوطتان ، يمد أهل محبته بما يجعلهم يسارعون به إلى محابه ومراضية ، وأبعد أهل البعد عنه بما يجعلهم يخلدون إلى الأرض ويستعينون بنعم الله على معاصيه ، فيعطيهم الله العافية فيقتلون بها ويسرقون ، ويعطيهم اللسان الطلق فيفسدون به عقائد من يستمع إليهم ، ويعطيهم المال فينفقونه فى مغاضبه سبحانه وتعالى ، وتلك النعم نفسها مع أحباب الله يستعينون بها على مراضية ومحابه ، قالε فى دعائه "اللهم ما أعطيتني مما أحب ، أجعله معينا لى على ما تحب ، وما زويت عنى مما أحب، أجعله فراغا لقلبي فيما تحب".

قوله تعالى : **"وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا"** اللام هنا للقسم ، والتأويل بمعنى ليزيدن اليهود والنصارى ما انزله الله إليك من النور والهدي وبيان أسرار الكتب المنزلة من عنده سبحانه على رسله مما لا يفهمه إلا الأحبار والرهبان والربانيون ، وأنت يا محمد بين جاهلية عمياء صماء ليس منها من يكتب ولا يقرأ ، فأنزال تلك الأسرار عليك مع أميتك الظاهرة لدليل على أنك رسول مرسل من قبل الله تعالى . وفى قوله : "كثيرا منهم" دليل على أن القليل جدا من اليهود والنصارى هم الذين أهلهم الله لأن يعلموا ما أنزل إليك من النور والهدى والإيمان ، وفى قوله : "من ربك" إشارة إلى أن المنزل من الرب جل جلاله هو الحكام والمعاملات وأخبار الأنبياء والملوك ، وهذا القدر يزيد أكثر اليهود والنصارى طغيانا وكفرا – فكيف لو أنهε كاشفهم بما أنزل إليه من الله تعالى من غيب توحيده وسر أيامه وحكمة أحكامه لصمت أذانهم وعميت أعينهم ،والطغيان هنا هو تعدى حدود الله تعالى بما يحرفونه من كلامه سبحانه من الخبر عن بعثة نبيه محمدε ومن الأحكام فى الجنايات التى كانوا يغيرونها إذا وقعت من غنى ثرى وينفذونها إذا وقعت الجناية من فقير ضعيف اتباعا للهوى ، وهذا هو الطغيان الذى هو كفر فى الحقيقة ، وفى قوله تعالى : "وكفروا" دليل على أنهم بإنكارهم بعثة محمدε ثبت كفرهم عند الله تعالى.

قوله تعالى : **"وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"** هذه الآية الشريفة تدل على أن اليهود والنصارى يعبدون أهواءهم وحظوظهم ، فهم يتعصبون لأطماعهم لا للحق ، لأن أهل الحق لا يختلفون وعلام يختلفون وكلهم يطلبون الله تعالى بلا مطمع لهم فى مال ولا جاه ولا منزلة ، ولا يحبون نفوذ الكلمة ولا ينتظرون من أحد شيئا من الخير ، وأما اليهود والنصارى قاتلهم الله فإنهم على باطل يسعى أحبارهم ورهبانهم إلى الفوز بالسيادة المطلقة ولا يهمهم الحق كما تهمهم أنفسهم ، فترى كل واحد منهم يسعى لينقص غير ويسئ إليه وينفر منه الناس ليختص وحدة بالسؤدد ، ولهذا فالله يقول : "وألقينا بينهم العداوة والبغضاء" أى وضعنا فى قلوبهم عمى يدعوهم إلى الانقياد لجمع متاع الدنيا الفانى والعمل للرئاسة والكبرياء على الناس ، فيكره الأحبار الرهبان والرهبان يكرهون الأحبار ، بل تجد كل من النصارى واليهود قد اختلفوا إلى مذاهب شتى ، وكل مذهب يحارب الآخر

نسأل الله تعالى أن يجمع بين المسلمين ويحفظهم من التفرق حتى لا نكون مثلهم ، أما "العداة" فمعناها العدوان على بعضهم البعض بالتجريح وقوارص الكلام أو بالنار والحديد ، وأما "البغضاء" فنفور القلب وضيق الصدر والسعي لإيقاع بعضهم بعضا فى المضار الهائلة أعاذنا الله من أن نكون مثلهم.

قوله تعالى : **"إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"** أي أن أهل الباطل لا تصفوا قلوبهم من السخائم ولا من المسارعة إلى عمل السوء إلى يوم القيامة ، ولا تصفو القلوب إلا إذا اجتمعت على علام الغيوب ، والهاء والميم فى قوله بينهم فيه بيان عن اليهود والنصارى الذين تقدم ذكرهم فى قوله "لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء" حتى يعود الضمير إلى مرجعه وأن كان بعيدا ، ولا تكلف فى ذلك لغويا.

قوله تعالى : **"كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ"** وهذه بشرى لنا جماعة المؤمنين من الله تعالى وبين لما كان عليه أعداء الله من اليهود مضافا إلى ما بينه سبحانه عنهم من سوء أعمالهم وفساد نواياهم ن كما أنها خبر بأنهم أعداء رسول الله وحرب عليهε ، وكم خموا بقتله فأمكن الله منهم ، وكم نشروا بين المسلمين ما به ينفرونهم من الإسلام فى عصرهε ، ولكن الله خزاهم وأذلهم ،ومعنى هذه الآية أنه كلما قامت ريحهم وجمعوا كلمتهم وهموا بحرب المسلمين أو بحرب غيرهم من الاشوريين والكلدانيين والبابليين أو من الروم الذين احتلوا بلاد الشام وفلسطين أو أهل الجاهلية الأولى الذين أذلوا بنى النضير وقيقناع ، شتت الله جمعهم وفرق كلمتهم ومكن منهم عدوهم ،وهذا خبر من الله تعالى يدل صراحة على أنه حكم لازم عليهم ، وهانحن نرى ما هو ماثل بين أعيننا فإنهم قاتلهم الله استعانوا بالإنجليز وبذلوا الأموال لينالوا منهم التأييد لهم فى أن تكون فلسطين وطنا قوميا لهم ، وقد استفتاني بعض علماء فلسطين من بضع سنين عن حكم من يسارع فى اليهود من المسلمين أو يبيع لهم دارا أو أرضا زراعية ، فأفتيت بما حكم الله به عليهم فى قوله تعالى **"لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ"**[1] .

وكانت نزل فى اليهود وأفتيت بمعاهدة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه التى حكم فيها بإجلاء اليهود عن فلسطين ، وقد طبعت ونشرت فى حينها[2].

وفي هذه الآية الشريفة خبر أن اليهود كلما اجتمعوا لإثارة الحرب على عدو لهم فرق الله بين قلوبهم ، وخالف بين ألسنتهم وفرق جمعهم وأطفأ نار حميتهم وعصبيتهم.

قوله تعالى : **"وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"** وفى هذه الآية بيانا لنوع من أنواع شرورهم ، لأن معنى يسعون فى الأرض فسادا أى يعصون الله ويخالفون وصايا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، ويفتحون أبواب الفتن العمياء والصماء حتى يوقعوا الناس فى حروب تحجب القلوب عن علام الغيوب وتنسى الناس يوم القيامة فتسلب منهم الرحمة والآداب الشرعية "والله لا يحب المفسدين" أي والله لا يحب العصاة المخالفين لشريعته الغافلين عن طاعته المتبعين لأهوائهم وحظوظهم.

قوله تعالى : **"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ"**(65).

([1]) سورة المجادلة : 22.

([2]) أصدر السيد الإمام – رضى الله عنه – فتوى عقب صدور وعد "بلفور" من التوصية بإقامة وطن لليهود بفلسطين – أن من يبيع من الفلسطينيين أرضه لليهود فهو خارج عن حدود الإسلام.

تقول هذه الآية ولو أن اليهود والنصارى آمنوا أي صدقوا الله ، ورسوله "واتقوا" تقدم معنى التقوى وذكر التقوى هنا ليخرج المنافقون الذين أظهروا الإيمان ، لأن الإيمان أصل وعد الله عليه بخيرى الدنيا والآخرة ، مع علمه جل جلاله أن أهل النفاق يظهرون الإيمان وقلوبهم منعقدة على الكفر ، فأتي بلفظ واتقوا لأن التقوى هى الخوف من الله تعالى خوفا يجعل المؤمن يراقب الله تعالى ويخشاه خشية يكمل بها إيمانه.

قوله تعالى **"لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ"** اللام هنا للقسم "وكفرنا" يمعنى غفرنا أى سترنا عنهم وعن غيرهم خطاياهم ومعاصيهم حتى يلقى الواحد منهم الله وليس عليه شاهد بذنب ، لن كفر بمعنى ستر وغطى ، وقوله "و لأدخلناهم جنات النعيم" أي يدخلهم الله تعالى يوم القيامة بساتين النعيم المقيم فى مسرة وحبور لأنه رب عظيم لا تضره معاصى العاصين ولا تنفعه طاعة الطائعين.

قوله تعالى : **"وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ"**(66).

تأويل هذه الآية أن الله تعالى يخبرنا أن اليهود قوم مخادعون يجنحون إلى الباطل ميالون إلى الشر لا يهمهم إلا سلب أموال الناس بالباطل حرصا على البقاء فى تلك الدار الدنيا ، وخوفا على أنفسهم أن يهلكوا من الفقر بدليل هذه الآية الشريفة ، الدالة على ترك اليهود العمل بالتوراة وترك النصارى العمل بالإنجيل لأن العمل بالكتابين يعطى لكل ذى حق حقه.

قوله تعالى **"وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ"** . أي عمل اليهود بما فى التوراة ، وعمل النصارى بما فى الإنجيل **"وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ"**وهو القرآن العظيم الذى أنزل الله على رسوله الكريمε **"لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ"** أي من الأمطار التى ينزلها الله عليهم من السماء لتحيى الأرض بعد موتها بالنباتات التى يرزقهم الله منها بالتجارة فيها ومنها يأكلون ويشربون **"وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ"** مما تنبته الأرض من البقول والحبوب ومراعى الأنعام وما تخزنه لهم الأرض من الركاز والمعادن.

وفي هذه الآية إشارة إلى غذاء العقول والأرواح والنفوس ، أما من فوق الرءوس فالواردات الإلهية والإلهامات الربانية والخواطر النورانية التى يتفضل الله بها على من اجتباهم من عباده الصالحين وأما من تحت أرجلهم فبالبحث والتدبير فى ملك الأرض وما جملها الله به من البحار والجبال والنهار والنباتات والحيوانات مما إذا نظر فيه أهل البصيرة يشهدون من أسرار الملكوت ما تنجذب به الأشباح إلى حظرة الفتاح.

قوله تعالى : **"مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ"** الامة المقتصدة وهم الذين اسملوا من أهل الكتاب ، لأن الإسلام هو الوسط الذى يتوسط بين الأفراط والتفريط ، أما الافراط والغلو فقول اليهود عزير بن الله ، وقول النصارى المسيح بن الله ، وأما تفريط اليهود فقولهم أن المسيح ابن زنا ويد الله مغلولة ، وتفريط النصارى قولهم أن الله ثالث ثلاثة ، وتفريطهما معا هو الكفر بمحمدε ، وأهل الإفراط والتفريط هم الكثيرون منهم الذين يعنيهم الله تعالى بقوله سبحانه "وكثير منهم ساء ما يعملون" صدق الله العظيم.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ"**(67).

أنزل الله تعالى على رسولهε بيان ما كان عليه اليهود والنصارى وأهل الجاهلية من الضلال والإضلال والزور والبهتان وتحريف كلام الله وتغيير أحكامه سبحانه ، وما فعلوه من القبيح مع

رسل الله وأنبيائه ، وما ابتلاهم الله به ن النقم ، وما عجل لهم من العذاب فى الدنيا قبل الآخرة لما أنكروه من كلام الله وحرفوه من أحكامه . وأخبرهم به رسول الله محمد بن عبد الله مما لا يعلم علمه إلا الربانيون والأحبار ، ويقينهم من ظهور رسول اللهε بين أمة أمية فى الجاهلية العمياء والضلالة الصماء ، فكان ما أتى به رسول اللهε أشد على اليهود والنصارى وأهل الجاهلية من عذاب النار ، فأحرق قلوبهم وغم نفوسهم لما جللهم به من الخزى والعار ، كما تأججت فى صدورهم نار الغيرة منه والحسد له لما جمله الله به من الرحمة الواسعة حتى جعلهε رحمة للعالمين ، فكان من شدة رحمته بالناس يجب أن ينزل الله ما يؤلفهم به ، ومن جهة إنه رسول اللهε يحب ان يسارع إلى تنفيذ أوامر الله ، وهذان العاملان لا يقوى عليهما إلا معصوم بعصمة الله تعالى ، وقد آذاه أهل الجاهليةε حتى بلغ من أذيتهم له أن ينتظروا حتى يسجد ويطاون عنقه الشريف بنعالهم ، ومنهم من كانوا يسلطون عليه السفهاء والأرقاء فيرمونه بالحجار حتى يسيل الدم من رجليه صلوات الله وسلامه عليه ، فتدعوه الرحمة التى فطره الله عليها أن يقول "رب أهد قومي فإنهم لا يعلمون" وهذه الكلمة الشريفة دالة على أن عظمتهε لا تدانيها عظمة.

قوله تعالى " يا أيها الرسول" نداء تشريف وتعظيم لمقامهε "بلغ ما أنزل إليك من ربك" أمر من الله تعالى الذى جمله بالرحمة ، أن يبلغ كل ما أنزله الله إليه من الأحكام ومن الأخبار عن أهل الكتاب وعن مجوس العرب والعجم ، التى أظهرها الله فيها وكان فيها ما يخزى ويذل فاعليها مما يثير الضغائن فى الصدور ويدفع إلى الانتقام.

قوله تعالى : **"وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ"** أي وأن تركت أن تبلغ بعض ما أنزل إليك رعاية للرحمة التى جملناك بها ورغبة منك فى نجاة العالم **"فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ"** أي فأنك تعاقب على ما تترك بلاغه للناس مهما كان قليلا ، كما تعاقب على ترك إبلاغ الناس كل ما أنزل إليك ، ولما كان هذا الإجراء يقتضي إكرام الله لرسولهε بما يطمئن به قلبه ، فأخبره سبحانه بحمايته من الناس . .

قوله تعالى : **"وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ"** أي منعك من الناس أن يضروك فى نفسك بشئ ، والعصمة مأخوذه من العصام وهي رباط القربة الذى تحزم به ، كذلك الله يعصمهε أى يحفظه ويقيه من جميع شرور الكفار ، وكان الصحابة قبل أن ينزل الله تلك الآية يقومون بحراستهε فلما نزلت أمرهم بترك حراسته لأن الله تعالى تولى حفظه بنفسه.

وقد بينت ذلك أن الله جمل حبيبه محمداε بأن جعله رءوفا رحيما أبر من أن يكون فى النار إنسان ، ولكن القادر الحكيم قدر أن يعمر النار بالإناس ، فكانε يحزن جدا إذا رأى معاندا وتكاد نفسه تذهب حسرات مما جمله الله به من معانى الرءوف الرحيم ، وهذا هو سبب نزول تلك الآية الشريفة ليكون رسول الله رءوفا رحيما ومأمورا بتبليغ كل ما أوحى إليه مهما كانت مقتضياته ، وتأثيره على الخلق من معاصريه وغير معاصريه.

ولما أراد الله أن يكمل دينه لعباده ويتم نعمته عليهم عصمه من الناس ليبلغ ما أنزله الله إليه بحسب الأحداث التى تقتضيها الأحكام ، فوقفε فى وجوه ألد أعداء الله من أهل المجوسية وأهل الكتاب لا يخاف فى الله لومة لائم حتى أظهر الله دينه وعصمه من الناس حتى توفاه الله إليه محفوظا من كل ما ألم بغيره من الأنبياء السابقين.

قولـه تعـالى "**إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**" نفـى الله الهدايـة عن من غطـى علـيهم حقـائق الإيمان بحسب جواهر النفوس ، فإن جوهر النفس الإمارة بالسوء يقتضي وجوده مع خبث الطبع ، فلم يقدر الله تعالى لهم الهداية التى بها تبين لهم حقيقتك وما تفضل بـه عليك من نـور البيـان وآيات العلم بالله ، فهم لا تنكشف لهم حقيقتك فيتبعونك ويعزرونك وينصرونك ، ولا تقبل هممهم إلا عند طلب أذتيك والسعى فى إطفاء نور الله الذى أرسلك به ، ولكن الله مع ما فطرهم عليه من خبث النية وسوء السريرة والمسارعة إلى نصرة الباطل يعصمك منهم بعنايته التى حفظ بها السموات أن تقع على الأرض ، وبولايته التى حفظ بها الذكر الحكيم أن يتغير "وآل" هنا فى "الناس" لاستغارق كل من سبقت لهم السوئى من الله ، ولم يفز بهذا المقام العلى أحد من رسل الله صلى الله عليهم وسلم ، ومن يحفظه الله من الناس بهذا القدر لابد وأن يكون محبوبا لله تعالى مصوغا من نور الله تعالى ،وفى هذه الآية دليل على أن الله إذا قدر فى الإزل كفر قوم لا يهديهم هداية الإحسان ، وأن هداهم هداية البيان لتقوم الحجة عليهم.

قوله تعالى : "**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**"(68).

هذه الاية الشريفة بينت أن الإنسان لا ينفعه نسبه ولا علمه ولا عمله مادام يجعل العلم وسيلة لجمع حطام الدنيا ، وما دام عمله مخالفا لعلمه لغلبة الحظ والهوى عليه وحبه للعاجلة.

وقول الله تعالى : "**لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ** " يعنى أن الحق الذى تدعونه من أنكم أهل التوراة المؤمنون بها بعد أن قلتم للمؤمنين أن التوراة كتاب الله وهو حق مؤمنون به ولا نؤمن بغيره ، فكذبهم الله تعالى لأنهم ليسوا على شئ من الخلق فلا هم مؤمنون بالتوراة بدليل مخالفتهم لصريحها وتغييرهم لاحكامها وتحريفهم لاخبارها خصوصا عن رسول الله محمدε ، بل وليسوا مؤمنين بمن أنزلت عليه التوراة عليه السلام بدليل ما أخبرنا الله عنهم من عنادهم لموسى عليه السلام ومن كفرهم بالله تعالى بعبادتهم العجل وبكفرهم بخاتم الرسلε الذى أخبر الله عنه فى التوراة وبشر به عيسى فى الإنجيل ، ولكل تلك الحقائق أخبرنا الله عنهم أنهم ليسوا على شئ مما يحبه ويرضاه وإن كانوا علىشئ من ضد ذلك من الخدع والكيد والكفر والافتراء على الله وإنكار الحق والسعى فى الأرض فسادا ، والمراد بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى.

قوله تعالى : "**حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ**" تقدم تفسيرها وهذه الآية كالتوكيد لما قبلها.

قوله تعالى : "**وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا**" هذا خطاب من الله تعالى يخاطب به حبيبه محمداε تسرية له صلوات الله وسلامه عليه ، وبيانا من الله تعالى له أن اليهود والنصارى الذين بين لهε ما كانوا عليه مع الرسل والأنبياء والسابقين وأنهم عناديون يتعصبون لموسى وعيسى عليهما السلام وليسوا منهما فى شئ وإنما دعاهم إلى ذلك نفوسهم العناية وحسدهم الذي أحرق قلوبهم ، فلا تحزن مما يقابلونك به لن الذي أنزلته عليك مازادهم إلا كفرا ونفورا ، وقد تقدم بيان الطغيان والكفر ، وفى هذه الآية إشارة إلى أن كثيرا من اليهود والنصارى سجل عليهم القضاء أن يكونوا عنادين على رسل الله وأنبيائه وعلى ورثتهم الدعاة إلى الله حتى يذوقوا العذاب الأليم فى الدنيا بالجزية ، والذل والخزى فى الآخرة بالخلود فى نار جهنم أن شاء الله تعالى.

قوله تعالى : **"فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"** أي فلا تأسف لما يصيبك منهم من إنكار وعناد وافتراء ، وجائز أن تكون تأس أى تتأسف عليهم لما أصابهم الله به من سوء القضاء عليهم بالكفر والجحود ومحاربة رسله وأوليائه ، وهذه الآيات طمأنت قلوب الدعاة إلى الله ، فإن كان آية نزلت فى اليهود والنصارى جرت بذيلها منكرى أدعياء الإسلام الذين هم اعداء أنفسهم ولا يخلو منهم زمن ، فترى بعضهم ينكر كرامات أولياء الله ، وبعضهم ينكر أسرار ما علم من الدين بالضرورة ، وبعضهم بنشر الفاحشة عن أولياء الله فيشيع عليهم ما ينفر منهم قلوب المسلمين ، وما هم بضاريهم من شئ فإن اليهود والنصارى أناس لهم نفوس عنادية ، وكل مسلم ظهرت فيه صفاتهم كانت نفسه من أردأ الجواهر النفسانية مثلهم ، والقوم الكافرين هم الذين سترت عنهم الحقائق لأن الهوى أعمى عيون البصائر قال على عليه السلام "الهوى أخو العمى" وكما أن العمى فقد البصر فإن الحظ والهوى يفقده البصيرة.

قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"**(69).

هذه الآية الشريفة دلت على أن الإنسان من حيث هو إنسان مجبول على الشر وعلى المسارعة إلى الباطل ، وأن كل إنسان مهما كانت متدنسا بقاذورات الأباطيل والأضاليل فإنه إذا آمن وتاب طهره الله من كل ذنوبه وأدرانه السابقة ، فالإيمان طهره كبرى ، والتوبة طهرة صغرى ، والفرق بينهما أن الإيمان يطهر من الكفر والتوبة لا تكون إلا من مؤمن ، فهى تطهر الذنوب سوى لكفر ، لأن الكفر أكبر الكبائر ، والذنوب بالنسبة له ليست كبائر قال تعالى **"إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ"**[1] والمفهوم أن الذين صدقوا الله ورسوله محمدع من الذين هادوا وهم اليهود ، والنصارى وهم أصحاب عيسى عليه السلام ، والصابئون وهم المجوس ، وقد جاءت مرفوعة بعد "أن" وهى معطوفة على اسمها ، لأن "أن" إذا جاء بعدها اسم غير معرب جازلك أن تعطف عليه بالرفع ، واسم "أن" هنا اسم موصول ، وأما أن يكون ذلك الرفع لتعظيم شر "الصابئين" فإنهم أشر من اليهود والنصارى ، وكان سياق الكلام هنا يقتضى أن يكون "بل والصابئون" فجاز رفعها ، وقد روى بالنصب.

قوله تعالى : **"مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"** أي بالله وبمحمدع وباليوم الآخر وهنا ذكر الإيمان بالله وباليوم الآخر لأن الفرق بين أهل الكفر الغافلين وأهل الإيمان الذاكرين هو الإيمان باليوم الآخر ، من آمن بأن هناك يوما يبعث الله فيه عباده فيجازى أهل الإحسان بالإحسان وزيادة ، فمنهم من يواجههم بوجهه الجميل ، ومنهم من يجلسهم على منابر من النور قدام عرشه ، ومنهم من يمنحهم رضوانه الأكبر الذى لا سخط بعده ، ومنهم من ينزلهم مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ومنهم من يكونوا فى الفردوس الأعلى ، ومنهم بحسب مقاماتهم التى أخبرنا الله عنها فى الآية القرآنية **"وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ"**[2] وهذا هو الذى اقتضي أن يذكر الإيمان بالله واليوم الآخر.

فالإيمان باليوم الآخر برهان على كمال الإيمان وصحة المراقبة ، ويعيشك إذا علم الإنسان أنه ميت لا محالة ، وأن له بعد الموت يوما يقال له يوم البرزخ وأنه بعد ذلك اليوم يبعث حيا سميعا بصيرا ن تبصر عيناه الحقائق كلها بصر يقين ، وقد أخبرنا الله تعالى عن قولهم يومئذ " **رَبَّنَا**

([1]) سورة النساء : 48.
([2]) سورة الصافات : 164.

أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ"[1] وهذا المقام لم يبلغه فى الدنيا إلا كمل الرسل مثل الخليل إبراهيم عليه السلام ، أما نحن فآمنا بالغيب وصدقنا الله ورسوله ومنا من يمنحه الله الشهود فى الدنيا ، ولا فرق بين من شهد ومن لم يشهد إذا كمل اليقين بما علمه ، قال على كرم الله وجه "لو كشف الحجب ما ازددت يقينا".

وهذا لأن المؤمن الذى سمع من رسول الله الخبر عن الله فصدقه لا يحتاج بعد إلى دليل ولا برهان حتى لو كشف الحجاب لراي صورة ما علم ولا يحتاج فى الدنيا لكشف حجاب ، وعند أهل اليقين الإيمان بالغيب مساويا للإيمان بالشهادة بل وأكثر لن عيون بصرهم التى يشهدون بها تكذب عليهم فى كثير من الشئون المحسوسة ، فإنها ترينا الشمس كالرغيف وهى قدر الدنيا وما فيها بأكثر من تسعمائة ألف مرة ،وتريك الجبل الشامخ كأنه تحت قدميك وبينك وبينه الفراسخ الطوال ، وتريك العصا فى الماء معوجة وهى معتدلة ، فآله الشهود تكذب علينا فيما هو محل أدراكها ، فكيف تصدق فيما ليس بمحل إدراكها والحس كله يكذب علينا ، فإن المريض إذا ذاق السكر تذوقه مرا علقما وإذا طعم الملح تلذذ به ، وكذلك فإن الانف المزكوم لا يشم الطيب ، والأذن قد تسمع الحسن فتحكم عليه بالقبح وكذلك الذهن فإنه يتخيل خفايا تخالف الحقائق ، فقد يرتب الإنسان الموضوع الذى يريده ثم يتبين له بعد زمن فساد ما رتب.

إذن فخبر الله عن اليوم الآخر فوق شهود أبصارنا وبصائرنا ، وقد سمعى باليوم الآخر لأن الدار الدنيا هى اليوم الأول ، وأيام الله كثيرة ، ومن جهل أيام الله نسى الدار الاخرة قال تعالى " **وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ"**[2] ، وفى هذه الآية التى جمع الله فيها بين المؤمنين وغيرهم من أهل الملل والنحل ، ثم أخبر من آمن منهم بالله واليوم الآخر الآخر وعمل صالحا فهم سواء فى الجزاء ، برهان على أن الحجة قامت والمحجة ظهرت – ولا فرق عند الله بعد الإيمان بالله وباليوم الآخر وبعد العمل الصالح – بين من سبق إيمانه ومن لحق المؤمنين.

وقوله تعالى : **"وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا "** شرط لتحقيق المساواة فى الثواب ، وعمل الصالحات لا يكون إلا لمن آمن بمحمدε ومن قبله من الرسل وباليوم الآخر وعم صالحا ، كل هؤلاء لهم أجرهم عن ربهم لأن الله تعالى يتفضل عليهم بفضله الذى قدره أزلا ، كما قدر توفيقه ومعرفته لهم وإقامتهم فى محابه ومراضية ، فهو المتفضل بالتوفيق والعون ، كما أنه المتفضل بنسبه العمل الذى أعان عليه للعبد ، فهو المتفضل بإحسانه إليهم على ما أقامهم فيه من البداية إلى النهاية فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى : **"فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"** والخوف نوعين خوف من متوقع وخوف على فائت ، وهذه الآية الشريفة عند الموت وبعده ، فإن المؤمن عند موته يخاف العقوبة ويحزن على ما فات من ذنوبه ، فيرسل الله له ملكا يقول له : "ما يخفيك يا عبد الله" فيقول " أخاف من وقوع العقوبة على يوم القيامة" . فيقول له "أبشر فإن الله قد غفر لك" فينزل خوف العبد مما كان يتوقعه ثم يقول الملك "ما يحزنك يا عبد الله" فيقول "أمران عظيمان الأول الذنوب التى ارتكبتها والثانى خوفى على أهلى وأولادي" فيقول له الملك "أبشر يا عبد الله أن الله أقام نفسه وكيلا عنك بعد موتك على أولادك وقد بدل سيئاتك حسنات" فيزول حزنه وخوفه فى الثلاث مواطن الموجبة للخوف والحزن ، الأول القبر ، والثاني البعث ، والثالث الورود على الحساب.

---

(1) سورة السجدة : 12.

(2) سورة إبراهيم : 5.

وجائز أن يكون معنى الآية أنهم كمل يقينهم بمشاهد التوحيد حتى اطمأنت أن الله لا يقدر على عبده المؤمن إلا ما هو خير له ، ولذلك فالناس فى الدنيا وفى الآخرة وعند الموت يخافون ويحزنون – وحق لهم أن يخافوا ويحزنوا – إلا من اجتباهم الله فإن الله سبحانه بشرهم بقوله تعالى "فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" وصدق الله فيما وعد.

قوله تعالى : **"لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ"**(70).

تقد ذكر الميثاق فى أول هذه السورة فى قوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود" وقد تقدم أن مواثيق الله تعالى أخذت على الناس وهم فى البدء حيث كانوا فى التجريد ، وكان العهد لانبلاج الحقائق للأرواح الممثلة لها فى الأشباح ، وأخذه سبحانه للأرواح فى الأشباح بما أقامه من الدلائل المتكلمة بلسان الحال والمبينة لغوامض الأسرار التى هى أوضح من الشمس فى رائعة النهار مما خلقه فى الافاق وفى أنفسنا تتلمسه العقول السليمة من الهوى والحظ ، وتدركه النفوس المطهرة من الطمع والنزوع إلى الشهوات ، وببعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين أقاموا الحجة ووضحوا المحجة ، أولا بالمعجزات الباهرات ، وثانيا البيان الجلى الذى يخضع فحول العقلاء ، وثالثا بما كانوا عيه من الحال العلية والاستقامة الجلية طول حياتهم ، حتى أتاهم داعى الحق بعد الصبر والجلد والكرم والشجاعة والرحمة والحنانة والشفقه قياما لله بالشكر ، فعلموا الناس بعلمهم وأخلاقهم ما تتعشقه العقول الصحيحة والأبدان السليمة والأرواح الطاهرة ، وبعد أخذ الله الميثاق على بنى إسرائيل فى كل أطوارهم لم يزدادوا إلا عتوا وإنكارا كما هى عادتهم مع الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم.

ففى قوله سبحانه **"لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ "** بالدلائل المتقدمة وقوله **"وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا"** تتمة لكمال المواثيق المأخوذة عليهم ، ومعنى الآية أى أرسلنا رسولا مكررا بعد رسول بدليل قوله "كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا" وهذه جملة شرطية أى كلما جاءهم رسول موصوف بالبيان الذى لا تهواه أنفسهم أبوا القبول منه ومن كل الرسل الذين تعاقبوا عليهم ، وفصل الله تعالى امتناعهم قبوله بقوله – "فريقا كذبوا وفريقا يقتلون" أى ففريقا من الرسل كذبوه وأنكروا عليه وأبوا القبول منه لأن الله تعالى لم يشأ أن يهديهم هداية الإحسان والقبول فأقام عليهم الحجة بهداية البيان على لسان الرسولε وفريقا يقتلون كزكريا ويحي وجرجس وغيرهم.

وهذه الآيات بينت ما عليه اليهود من خبث الطبع وجرأة على الله ورسله صلوات الله عليهم بيانا يذيب قلوب أهل الإيمان خوف من سوء العاقبة ، لأن أهل الإيمان إذا سمعوا خبر الله تعالى عن أمه من الأمم أن شنع عليها وتوعدها بالعذاب وهى من أهل الكتاب ذابت قلوبهم خوفا من سوء القدر ، وقد بين الله لنا فى الآيات السابقة عن اليهود بيانا جللهم فيه بالخزي فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى : **"وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ"**(71).

أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل كما تقدم على أن يسمعوا من رسله ويطيعهوم فأبوا إلا العناد ، حتى بلغت بهم الحالة أن كذبوا بعض الرسل وقتلوا البعض الآخر وهم يظنون أن الله لا يبتليهم فى تلك الدار الدنيا بعقوبة معاصيهم بمصائب لا قبل لهم بها ، وبينما هم فى هذا الظن الدال على عنادهم ابتلاهم الله بالبلايا الفادحة وسلط عليهم بختنصر فهدم المسجد الحرام وفرق جموعهم فأيقظهم بتلك الحادثة وتابوا فأقبل الله عليهم ، فلما أن شبعت بطونهم وسترت جسومهم وصحت أبدانهم وآمنوا فى

أوطانهم وتيسر لهم القوت رجعوا إلى ما كانوا عليه ، فسلط عليهم الرومان ففرقوهم أيدى سبا فرجعوا إلى الله تعالى تدعوهم الضرورة الفادحة والمصائب المؤلمة ، ولم يكن الداعى لهم بذلك الخشية من علام الغيوب ، بل كانت نفوسهم خبيثة تذل للشدة وتعرض وتتناءى عند الرخاء ، ولما أقبل لعليم بما يحبون منه نزعوا إلى عوائدهم وشيمهم ، فسلط الله عليهم المجوس فساموهم الخسف والهوان ، حتى أظهر الله الإسلام وأشرقت أنوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا يستظهرون على الجاهلية بتبعيتهم لهε ، ويقولون سيظهر رسول آخر الزمان فنعينه على قتالكم فنحصدكم بالسيوف حصدا ، فلما بعثه الله تعالى بالحق بشيرا كانوا أول من جحد به وأنكروا أخباره فى التوراة وأغروا أهل الجاهلية على الإنكار عليه وقتاله ، وهى سنة الله فيهم ولن تجد لسنة الله تبديلا ، قوله تعالى "وحسبوا إلا تكون فتنة" أى أنهم ظنوا أن لا تكون فتنة ولا يكون ابتلاء من الله ولا خفى مكر منه جل جلاله بهم ، حتى دهمتهم المصائب فكانوا كلما أصابتهم مصيبة لا يعتبرون لظنهم أن لا تكون فتنة ولا يتذكرون لغفلتهم عن الله تعالى ونظرهم إلى الأسباب القائمة من غير نظر إلى المسبب جل جلاله.

"فَعَمُوا وَصَمُّوا" أى عميت عيون البصائر التى تنظر إلى الحقائق نظر العبرة والفكرة وصموا اى صمت آذان لطائف قلوبهم التى تعقل عن الله لما أصمها من الهوى والطمع فيما لا ينفع من حطام الدنيا.

قوله تعالى : **"ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ"** بسبب دواعي الضرورة التى جعلتهم لا تشعر قلوبهم بسر الحكمة فى انتقام الله منهم ولكنهم **"عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ"** بعد أن تابوا وأقبلوا على النظر بعين البصيرة وعلى سماع الحكمة من الرسل عليهم الصلاة والسلام حتى دعاهم الخوف على سلب الرئاسة منهم إلى تكذيب بعض الرسل وقتل بعضهم الآخر وفى قوله تعالى "كثير منهم" دليل على أن أكثرهم كانوا قوما بورا ، وكان القليل منهم أهل عبرة ، وهم الذين أسعدهم الله بالإسلام.

قوله تعالى : **"وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ"** أى يبصر أعمالهم خفيها وظاهرها ولكنه حليم على من سبقت لهم الحسنى من الله عسى أن يتوبوا فيوفقهم للخير ، ويصبر على أهل الكفر منهم والمعاصي استدراجا منه لهم أعاذنا الله وإخواننا المسلمين.

قوله تعالى : **"لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ"**(72).

قد بينت فيما سبق ما فعله إبليس بحواري عيس الأربعة عندما نجوا بأنفسهم من وجوه اليهود والرومان بعد رفعه عليه السلام إلى السماء ، وشرحت أن الذين قالوا أن المسيح هو الله هم اليعقوبين ن والذين قالوا هو ابن الله هو النسطورية ، وهذه الآية دلت على أن الاجتهاد والرأى والمذهب مهما كانت دواعى الاجتهاد أو المذهب أو الرأى قريبة من المعنى ، لا تنفع عند الله بشئ ما لم تكن العقيدة مطابقة لما أنزله الله تعالى وبقدر ما تقبله العقول ، فإنا لا نكلف كل المسلمين أن يعقدوا قلوبهم على ما عقد قلب أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقد وسع الله ذلك وسعة شملت الكل قوله تعالى "الذين يؤمنون بالغيب" ولم يقل الذين يؤمنون بالشهادة أو البرهان القاطع أو الحجة ، ومن لم يسلم للصادق الأمين الذى أقام الحجة بالمعجزات الباهرات فهو كافر ، وبعد أن أثنى الله على أهل الإيمان بالغيب الذين تلقوا العقيدة من القرآن مجملة ، أمرنا سبحانه بالبحث والنظر والاعتبار فقال **"إِنَّ فِي ذَلِكَ**

لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ"[1] ثم ربط سبحانه بين العالم والإيمان بقوله تعالى **"وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ"**[2] فجعل العلم والإيمان نوعين ومدح أهل الإيمان بالغيب بقوله : **"أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"**[3] ثم رفع العلماء درجات عن المؤمنين فقال تعالى : **" يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ"**[4] .

ففي هذه الآية بعد أن شرح الله لنا أحوال اليهود وما كانوا عليه من بذاءة أمرهم إلى الآن وبعد الآن ، أخذ يبين لنا ما عليه النصارى فقال **"لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ "** وهم النصارى ، لأنهم يقولون أن الله حل فى بطن مرين فأولدها المسيح ، وهذه العقيدة نهاية فى العمي ، لن الذى خلق السموات وما فوقهن وما فيهن ومن فيهن لا يتصور أدنى جاهل أنه يحل فى محل القاذورات والفضلات لا كما ولا كيفا.

"وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ " أى أن المسيح عليه السلام دعا إلى عبادة الله الذى هو ربه ورب العالم أجمع ، وقد ورد هذا الكلام بمعناه فى الإنجيل فى قوله لبنى إسرائيل "أعبدوا أبي وأباكم الذى فى السماء" وقوله للذى قال له "أيها المعلم الصالح" فالتفت وقال له مغضبا "أنا لست المعلم الصالح المعلم الصالح هو الله" فإنسان يتبرأ من أن ينسب إليه أن معلم صالح ، كيف يرضى لنفسه أن يوصف بالألوهية ، ولكنه ضلال الاتباع وهواهم ، أن الهوى أخو العما ، قال سبحانه **" وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا"**[5].

قوله تعالى : **"إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ "** هذه الآية من قول المسيح يقيم بها الحجة على أن الشرك بالله موجب للخلود فى النار بتحريم الجنة عليه ، وإذا كان المسيح يرى أن الجنة حرام على من يشرك بالله تعالى فبالتالي تكون النار جزاء كل من جحد الله واتخذ له إلهيا غير الله ، كما أن فىهذه الآية دليل على أن أهل الكبائر لا يخلدون فى النار ، لأن الجنة حرمت فقط على من يشرك بالله ، وعلى هذا فيظهر أن قوله تعالى : "والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق" إلى أن قال سبحانه "ويخلد فيه مهانا" (6) ، أن الخلود أما أبدى لمن يدعو من الله إلها آخر ، وأما خلود زمنى وهو طول الإقامة فى جنهم ثم الخروج منها.

قوله تعالى : **"وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ"** مأواه الذى يأوى إليه فى النار ، والمأوى هو المنزل والمسكن ودار الإقامة "وما للظالمين من أنصار" أى وليس لمن ظلم نفسه بالشرك أولياء ينصرونه لأن أهل القرب من الله والمصطفين الأخيار والمجتبين الأبرار إذا انكشفت الحقائق لبصئرهم يوم القيامة كرهوا ما كره الله وأحبوا ما أحب الله فلا تراهم يرحمون ظالما ظالم نفسه بالفكر ولا يشفعون له عند الله أو ينصرونه ، وفى هذه الآية دليل على أن الشفاعة لا تكون إلا لم فمات على الإسلام ، لأن منكر الشفاعة يحرم منها ، أعاذنا الله من إنكار ما ورد صريحا فى الشريعة بنص القرآن.

([1]) سورة الزمر آية : 21.
(2) سورة الروم آية : 56.
(3) سورة البقرة : 5.
(4) سورة المجادلة : 11.
(5) سورة الكهف آية : 17.
([6]) سورة الفرقان : 68 – 69.

وقوله تعالى : **"لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"**(73).

اللام هنا للقسم ، وقد للتحقيق ن والكفر هو جحد الحق وغمط النعمة والذين قالوا أن الله ثلث ثلاثة هم فرقة من اليعقوبية ، روى ابن جرير – رضى الله عنه – أنهم من بني إسرائيل الذين قالوا : أن الله ثالث ثلاثة ، يعنى أنه ذات ليست مولودة وله مولود وزوجة مولدة وشبهوه بالشمس قرص وشعاع وحرارة "وهى واحدة" وقيل أنهم فرقة من النصارى م الملكانية أو النسطورية بدليل قوله تعالى : **"وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ"**[1] فيكون عيسى وأمه والله الثلاثة ألها واحدا عند الكافرين ، وكذبوا لأن الله تعالى ذات منزهة عن الحلول وعن الصاحبة والولد ، وقد قامت الحجة بالآيات المنبلجة فى الكائنات من السموات والأرض وما فيهن من الآثار العجيبة والأنواع الغريبة مما لا يمكن أن يبدعه ويخلقه إلا الله تعالى المنزه العلى العظيم ، والنصارى واليعقوبية أخزاهم الله كفروا كفرا لا تقبله البهائم السائمة فضلا عن الإنسان ، لأن تلك العقيدة كان يعتقدها جهلاء القرون القديمة كالفراعنة ومجوس الهند وغيرهم، حتى لقد ظهر فى الآثار جسم من الحجر له ثلاثة رءوس مكتوب عليه باللغة السنسكريتية "الثالوث المقدس" ، وكذلك وجد فى مصر آثار قديمة جدا تدل على أن الآلهة علمهم الزراعة ، وقد تقدم الكلام عليها كما هى فى كتب التاريخ فلعن الله اليهود والنصارى لما كذبوا على الله تعالى وعلى رسله ولهم فى كفرهم عبارات ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا تتفق مع العقل وليس لها دليل ، فيقولون بالاقانيم الثلاثة وهى أقنوم الذات وأقنوم لابن وأقنوم الروح ، أو أقنوم الذات وأقنوم العلم ويعبرون عنه بالحكمة وأقنوم الحياة ومالهم بذلك إثارة من علم أن يتبعون إلا الضلال والخزي.

قوله تعالى : **"وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ "** هذه الآية حجة قاصمة لظهور اليهود والنصارى الذين قال بعضهم عزير بن الله ، وقال البعض للآخر أن الله هو المسيح بن مريم ، وقال غيرهما أن الله ثالث ثلاثة ، فأكبتهم الله جميعا بالحجة الدامغة فقال "وما من إله إلا إله واحد" وما هنا نافية ومن استغراق النفى و "إله" نكرة فى سياق النفى ، ويعنى انتفى جنس الآلهة وثبت الإله الواحد بالعقل والنقل ، وهذه الجملة فيها قصر الصفة على الموصوف فانحصرت الألوهية فى ذات الله تعالى لا تتعداه إلى غيره ، وأن كان الله يتعدى الألوهية إلي غيرها من اسمائه وصفاته التى ذكرها فى القرآن وبينها رسول اللهε ، وكل من اتخذ إلها غير الله تعالى بعد أن قامت الحجة بالنقل والعقل والشواهد القائمة فيما أحاط بنا من الكائنات دل ذلك على أنه أضل من الأنعام.

قوله تعالى : **"وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"** يهدد الله اليهود والنصارى بأنهم أن لم ينتهوا عن كفرهم بالله وبرسوله محمدε بقولهم عزير بن الله وقولهم فى المسيح ما قالوه كفروا ، ليمسن الذين كفروا منهم بعد هذا البيان عذابا أليم فى الدنيا من أهل الحق القائمين لله عملا بكتابه وبسنة نبيهε ، وعذابا أليما بالجزية وذلهم لذمة المسلمين وباتخاذهم أرقاء إذا خرجوا على المسلمين ، وفى الآخرة بالخلود فى نار جهنم ، ولا يرد علينا ما عليه النصارى واليهود الآن من العلو فى الأرض بالباطل ، لأن سبب ذلك ترك المسلمين العلم بكتاب الله وبسنة رسول الله ،

([1]) سورة المائدة آية : 116.

لأن الله تعالى قال : " **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ**"([1]) ، وقال " **إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ**"([2]) والمسلمون الآن شغلهم الحظ والهوى والطمع عن نصرة الله ورسوله فمكن الله منهم عدوهم ، ولو أننا رجعنا إلى ما كان عليه سلفنا الصالح لأعاد الله لنا مجده ومكن لنا فى الأرض وأذل لنا عدونا وعدوه قال تعالى : " **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**"([3]) وصدق الله العظيم فيما أورده من الشرط فى هذه الآية فإن قوله تعالى : "ليمسن الذين كفروا" فيما اللام للقسم بمعنى والله "ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم" وخبر الله من غير قسم صدق فما بالك بما سبقه قسم ؟ ! نعوذ بالله من الكفر بالله تعالى.

قوله تعالى : "**أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**"(74).

أي أفلا يتوب اليهود والنصارى عما يفترونه من الكذب على الله ورسله عليهم السلام ، والتوبة هى الرجوع إلى الحق من الباطل الذى هم عليه ، والحق هو ما جاءت به الرسل وبينته كتبهم ، أذ ليس للعقل هنا قوة يتلقى بها ما يحبه الله من عباده ، ولو كان له ذلك لكانت بعثة الرسل عبثا ، فإن العقل الإنساني خلقه الله تعالى ليسخر ما حوله من الحقائق لنفع نفسه ، وقوله "ويستغفرون" أى يطلبون منه المغفرة ، وهى ستر الذنوب عن الجوارح والمعالم بل وعن الملائكة ، فإن الذنوب لا تمحى ، وكيف يمحى ما هو ثابت فى علم الله تعالى ، ولكنها تستر بمغفرة الله تعالى "والله غفور رحيم" أو واسع المغفرة لأن لكمة غفور رحيم صيغة مبالغة لغافر رحيم . أى يمنح جزيل النعم الأخروية الروحانية المناسبة لاسمية الغفور الرحيم.

قوله تعالى : "**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**"(75).

نفى الله تعالى عن المسيح بن مريم فى هذه الآية معانى الربوبية ، وقصرة على الرسالة بكل لوازمها من العبودية ومن كونه بشرا يجرى عليه ما يجرى على الناس بقوله تعالى : "إلا رسول" والرسول هو الإنسان العاقل البالغ المتحقق بكمال العبودية سمعا لله وطاعة له ، وقياما بالتبليغ عنه "قد خلت من قلبه الرسل" أى أرسل الله قبله رسلا كثيرين ، فبعثة الرسل سنة الله الماضية ، والمسيح رجل منهم ، فادعاء النصارى أنه ابن الله أو أنه هو الله أو أنه ثالث ثلاثة كذب على الله وبرهان على انحطاط المدعين إلى اسفل من الجمادات "وأمه صديقة" اى والدته التى ولدته كما تلد النساء أبناءهن وقوله "صديقة" أى مصدقة مؤمنة بالله وبرسله ولم تخرج عن كونها امرأة عادية ، غاية ما فى الأمر أن الله تعالى قدر أن تحمل من غير أن يمسها بشر ، وليس ذلك بعجيب لأن الله خلق آدم من غير أم ولا أب ، وخلق حواء من غير أم ولا أب ، فخلق آدم أولا من الطين ، وخلق حواء من ضلع آدم كما بينت ذلك الكتب السماوية ، وأوضحه التاريخ بالتواتر ، فمن راى فى حمل امرأة شابة بالغة صحيحة البدن من غير رجل عجبا يدعوه إلى أن ينسب المولد إلى الله فقد أفترى على الله كذبا ، لأن فى إيجاد آدم العجب كل العجب.

قوله تعالى : "**كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ**" فيه حجة ثانية من أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام كما يأكل الناس ن ويتغوطان وينامان ويخافان ويفرحان ، أى تتغير عليهما الشئون ، ومن تغيرت عليهما الشئون فهما عبدان ذليلان لله ، وأن الله هو القوى العظيم القادر الحكيم ، أزلي لا يتغير ،

([1]) سورة الحج : 40.

(2) سورة محمد : 7.

([3]) سورة الرعد : 11.

أبدى لا يحتاج إلى غيره ، وليس كمثله شئ وهو العزيز الحكيم ، والمسيح قهره اليهود والرومان وجروه على وجهه وضربوه حتى تألم وتأوه وأعدوه للصلب فأنجاه الله منهم ورفعه إليه وهذا دليل على أنه عبد ذليل وحادث ضعيف تعتوره الشئون الكونية وتغيره الحوادث الزمنية وليس بابن الله ولا هو الله ولا هو شطر من الله تنزه سبحانه عما يقولون.

قوله تعالى : **"انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ"** أي فانظر يا محمد أنت وأمتك كيف نبين لهم الآيات بالحجج القائمة والدلائل والواضحة وأجب من هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى **"ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ"** أي إلى أي ناحية من نواحي الباطل والكفر يميلون وإلى أي حد يكذبون ، لأن الأفك هو الكذب ، وهذه الآية توبيخ شديد لليهود والنصارى على أفكهم الباطل وأنصرافهم عن الحق بعد قيام الحجة أعاذنا الله وأخوتنا من سوء القضاء.

قوله تعالى : **"قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"**(76).

تأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يأمر محمدε أن يقول لمن زعم أن عزيرا بن الله من بنى إسرائيل ، ومن أدعى من النصارى أن المسيح إله أو أبن الله أو أنه ثالث ثلاثة كما تقدم ، والهمزة فى **"أَتَعْبُدُونَ "** للاستفهام الإنكاري ،وينكر الله عليهم كل الإنكار عبادتهم لغير الله تعالى لأن **"مِنْ دُونِ اللَّهِ "** أى من غيره الله تعالى.

قوله تعالى : **"مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا"** لن كل من سوى الله مخلوق لا يملك لنفسه الضر او النفع فضلا عن أن يملك لكم ذلك ، بدليل ما شاهدتم بأعينكم أو بفكركم أو ما بلغكم بالتواتر ما عذب اليهود به المسيح عليه السلام إلى أن أعدوه للصلب الذى هو نهاية فى العذاب ، لكن الله تعالى انجاه منهم فرفعه إليه ، فصلبوا شبيهه وخائنه الاسخريوطى الذى دلهم عليه ، وبعد ما أظهره المسيح من الحجج بأقواله وأحواله التى أثبتت عبوديته لله ، وبعد ما أقام الله تعالى من الحجج على تفرده بالألوهية دون غيره مما تقدم وضوحه فى الآيات تعبدون مخلوقا مثلكم تعتوره الأحوال البشرية من صحة وسقم ، ومن شباب وهرم ، ومن فقر وغنى ، ومن عز وذل مما لا يقوم إلا بالمخلوق المقهور المربوب ، وهذا كله عناد منكم وتقليد لآبائكم الذى أعمى الله بصائرهم وأضلهم.

وقوله تعالى : **"وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"** الذى يعلم سرهم وجهرهم ويسمع خواطر نفوسهم ، بل ويسمع دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، ويعلم ما يسرون وما يعلنون وما هو أخفى من ذلك من وسوسة قلوبهم وهواجس نفوسهم وسوء نواياهم ، وفى هذه الآية حجج تقصم ظهورهم وتوبيخ شديد لهم ، ولكن من يهد الله فهو المهتد .

قوله تعالى : **"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ"**(77).

هذه الآية الشريفة حجة متسقة فى سلك الحجج السالفة تجلل النصارى بالخزى إذ يأمر الله سبحانه وتعالى محمدε بأن ينادى أهل الكتاب بقوله "يا أهل الكتاب" أى يا أهل الإنجيل "لا تغلو" أى لا تبالغوا مبالغة تبلغ الإغراق غلوا "فى دينكم" أى فى دين المسيح الذين تزعمون أنه جاءكم "غير الحق" أي لا تتجاوزوا الحق الذى أنزل الله على عيسى إلى الباطل غلوا وإفراطا فى تأييد الباطل الذى ما أنزل الله به من سلطان.

قوله تعالى : **"وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ "** الواو هنا للعطف والجملة معطوفة على الجملة التى قبلها أى ولا تقتدوا بأهواء اليهود الذين تعدوا الأدب مع الله ورسوله فرموا المسيح

بأنه ابن زنا وقذفوا أمه بغضا للحق وحسدا لعيسى عليه السلام فتكونون سواء فى لعنة الله تعالى وغضبه ، لأن النصارى غالوا فى الحكم على المسيح بما لا ينبغي فجعلوه إلها أو ابن الله أو ثالث ثلاثة ، واليهود غالوا فى الحكم على المسيح بما لا يليق به فجعلوه ابن زنا ، وكلا الحكمين موجب لغضب الله تعالى ومقته ومخرج عن الإيمان بالله.

قوله تعالى : **"وَأَضَلُّوا كَثِيرًا "** أى أضلوا بظلالهم وتعصبهم لما عزموا عليه من تنفيذ حسدهم لعيسى عليه السلام فى صورة تخرجهم عن الإيمان وتخلدهم فى نار جهنم و "كثيرا" هنا تشمل كل ذراريهم ومن اقتدى بهم ، من أهل الجاهلية الذين أقاموا بين ظهرانيهم فى قريظة وقينقاع والنضير وخيبر ، فإن كثيرا من أهل الجاهلية اقتدوا باليهود أو بالنصارى فتنصر بعض العرب فى الجاهلية وتهود بعضهم ،وكل ذلك بإضلال اليهود والنصارى.

قوله تعالى : **"وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ"** أي ومالوا عن سواء السبيل وجاروا فى قصدهم ، وسواء السبيل المحجة البيضاء التى هى الصراط المستقيم ،والسبيل هو الطريق ، وسمي التمسك بالدين طريقا وصرطا ومنهجا ومنهاجا وكلها ألفاظ مرادفة ، والمعنى ما يوصل إلى الله تعالى ، لن ما يوصل الإنسان من نقطة إلى أخرى يسمى طريقا ، وسمى السالك إلى الله ابن طريق مجازا ، وإلا فالمسافة التى بيننا وبين ربنا لا تقاس ولا تحد ، لأنها مسافة معنوية العقبة فيها النفس الأمارة بالسوء ، والوهم الضعيف ، والخيال المستضعف ، وكل ما يدعو إليهما من شهوتي البطن والفرج والأمل والطمع ، وعلى السالك أن يجاهد تلك النفس ويجتهد أن يعالج تلك القوى حتى تتوسط فى مطالبها، ولديها يسلك المنهاج القويم على صراط الله المستقيم.

قوله تعالى : **"لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ"**(78).

بعد أن بين الله لنا ما قاله اليهود فى المسيح من السب والمتجاوز حدوده ، لدرجة تكذيبهم له وكفر بما جاء به ،وما قاله النصارى فيه من الغلو البالغ مبلغ الاغراق فى الكفر ، بين الله لنا ما كان عليه اليهود من بنى إسرائيل الذين خالفوا أمر الله تعالى واعتدوا على رسله وأنبيائه فكذبوا البعض وقتلوا البعض الآخر حتى استحقوا أن يمسخهم الله تعالى قردة وخنازير وهو معنى اللعنة.

وتفصيل ذلك فى قوله تعالى : **"لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ "** أى من اليهود "على لسان داود" لأنهم خالفوه مخالفة عنادية حتى بلغ منهم أنه سألهم يوما عن المقيمين فى بيت معين فقالوا هم قردة فغضب منهم وسأل ربه أن يجعلهم قدرة وأن يلعهم قوله "وعيسى بن مريم" لعنهم أيضا لما بدر منهم فحق أمه ومحاربتهم له ، ثم خالفوه واعتدوا عليه فلعنهم وسأل الله ا، يجعلهم قدرة وخنازير ، وقد استحقوا استمرار هذه اللعنات عليهم بسبب كفرهم بالنبى محمدع وبما كانوا يفعلون من قطع طريق الله تعالى ، وصد الناس عن الإسلام ، وتغييرهم كلام الله تعالى فى التوراة ، وكان هذا للعن من داوود وعيسى يقتضي التعجيل بعذابهم فى الدنيا ، ولكن الله أجل عذابهم الشديد إلى يوم القيامة بعد أن مسخهم قدرة وخنازير ، فاليهود كأنهم خلقوا من طينة الخيانة ،وما خلا يهوديان بمسلم إلا وهما بقتله ، ولا نزال نرى منهم حتى الآن ما يثبت أنهم ليسوا من بنى الإنسان لأن الله سلب الرحمة من قلوبهم فيسلبون أموال الناس بالباطل ، وهذا سر لعنة الله لهم.

قوله تعالى : **"ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ"** الإشارة عائدة إلى ما أخبرنا الله به من مسخهم ، يعنى أن الله مسخهم بما اقترفوه من المعاصى والكبائر تعجيلا بعقوبتهم فى الدنيا ، وما أجله لهم من عذاب يوم القيامة أشد وأنكى وقوله "بما عصوا" الباء دخلت على المصدر فصيرته "ما" أى

بعصيانهم "وكانوا يعتدون" أى أن عقوبتهم بالمسخ بسبب معصيتهم ، وهى مخالفة أحكام الله وأوامر رسله ، واعتدائهم على أنبيائهم ورسلهم وكل من يأمر بالقسط فيهم.

قوله تعالى : **"كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ"**(79).

أي لا ينهى بعضهم عن المنكر الذى يقع فيه الآخرين ، وكانوا فى البداية إذا وقع المنكر بينهم نهى أحبارهم المرتكبين للمعاصي بأيديهم فعلا ، حتى شغلتهم الدنيا وتداخلوا فى بعضهم بالتجارات والمعاملات فتركوا النهي عن المنكر والمر بالمعروف ، حتى عمتهم المصائب وغضب الله عليهم.

وفى هذه الآية أشد تخويف للمسلمين ، لأن الله مسخ قوما يفعلون المنكر فلم يتناهوا عن فعله أى لم ينه بعضهم بعضا عن المنكر فعجل لهم العقوبة ومسخهم قدرة وخنازير ، وكان الرجل إذا فعل المنكر ونهاه غيره نفر منه وهم باذيته والحاضرون لا يحركون ساكنا فمتهم البلية ، وهكذا إذا فعل المنكر بيننا فاعل فلم ينهه عنه العلماء أو الحكماء أو الأتقياء ، وألف الناس فعل المعاصي ولم يبق بين المجتمعات من يحذر الناس من غضب الله تعالى ولا من يخوفهم من بطشة جل جلاله ، عمت المصائب وسلط الله علينا أعداءنا الذين كانوا أذلاء لنا فسامونا لخسف وأذلونا لنرجع إلى الله ، فإن لم نرجع إلى الله حصل لنا ماحصل لبنى إسرائيل ، لولا أن الله إكراما لنبيه محمدε حفظنا من المسخ والخسف بقوله تعالى : ""وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون"([1]) نسأل الله تعالى أن لا يحرمنا من معيتهε وأن يعيننا على الاستغفار العلمي إذ الواجب على جماعة المسلمين إذا أحبوا ان ينصرهم الله أن يقهروا مرتكبى الكبائر حتى يرجعوهم إلى الحق ، أو يقاطعونهم فلا يدخلوا معهم فى معاملات ولا فى جواز ولا فى نسب ولا في تجارة حفظا على النفوس من عاجل غضب الله تعالى ، وقد قال رسول اللهε "لتأمرون بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله أشراركم على خياركم صدق رسول اللهε .

إذا تقرر هذا فما ألم بالمجتمع الإسلامى هذا البلاء الفادح من تسليط من كانوا ارقاء تحت أيدينا ،ومن ذلنا فى أوطاننا إلا من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقيام من لا يحسن الأمر بالنهى بيننا فينفرون الناس من الدين واهله.

قوله تعالى : "لبئس ما كانوا يفعلون" اللام هنا للقسم أى والله لبئس ما كانوا يفعلون من قبيح الأفعال ، لأنه انتج مسخهم ولعنهم ، وكذا تكون احالة فى المسلمين إذا ساروا على دربهم لن كل عقوبة عجلها الله لمن سبقنا بسبب عمل من الأعمال فأنها تجر بذيلها من فعلها منا – نسأل الله ان يعصمنا من الفتن المضلة والأهواء المذلة أنه ولى المؤمنين.

قوله تعالى : **"تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ"**(80).

خطاب لرسول اللهε ، والمعنى ترى يا محمد من اليهود معاصريك يتولون الذين كفروا ككعب ابن الاشرف وغيره من أغنياء اليهود الذين كانوا يترددون إلى قريش ليعينوهم على حرب رسول اللهε ، بعد أن كانوا قاتلهم الله يتمنون ظهروهε ليقاتلوا معه أهل الجاهلية ، صاروا بعد ظهروه يستعينوا عليه بالمجوس عبدة الأصنام.

([1]) سورة الانفال : 33.

قوله تعالى : **"لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ "** اللام هنا للقسم ايضا وبئس ما قدمت أنفسهم من أنواع الكفر بالله ومن الجرأة عى موالاة أعداء الله والمسارعة فى تكذيب رسل الله صلوات الله عليهم وصد الناس عن طريق الله "أن سخط الله عليهم" أى وقوع سخط الله عليهم فى الدنيا وبالمسخ والذل ودفع الجزية "وفى العذاب هم خالدون" يوم القيامة.

قوله تعالى : **"وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ"**(81).

معنى هذه الآية الشريفة : لو كان اليهود يؤمنون بالله تعالى وبالنبي موسى عليه السلام وما أنزل إلى موسى من كتاب الله الذى هو التوراة ما اتخذوا المشركين أولياء ، لأن الإيمان عصام القلوب من الشيطان وحصن الأمن من الشك والريب ، فكيف يعتور قلب المؤمن شك أو ريب فى رحمانية الله وتفريده بالعبادة دون غيره بعد أن باشر الإيمان سويداء القلوب، والمؤمن قد يعصى الله بجوارحه ثم يتوب ولكن من المحال أن يتخذ لله ولدا أو ينكر اسما من أسمائه أو صفة من صفاته ، وكل معصية دون الكفر قد تقع من المؤمن ، ومع ذلك فإن المؤمن يطمع أن يغفر الله له معاصيه إيمانا منه بقوله تعالى **"إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ"**([1]) فإن الإيمان لا يعصم المؤمن من المعصية وأن عصمه من الكفر أعاذنا الله منه.

وجائز أن يكون تأويل هذه الآية ولو كان المشركون يؤمنون بالله وبرسولهε وبما أنزل إليه من كتاب الله القرآن ما أتخذهم اليهود أولياء ، بل ولا اتخذوهم هم أولياء ، لأن الأيمان حصن الأمن من الوقوع فى ولاية أهل الكفر بالله وبمحمدε ، ومهما دعا المسلم الاحتياج إلى موالاة الكافرين فإن ذلك يكون بظاهر الجسم لا بالقلب ونواياه الباطنة ، وأنك فترى المؤمن يوالى الكافر بخدمة ومساعدة ، ولكنه يلعنه ويتمنى له أن يسلم أو يهلك ،وهذا التأويل لا يمنعه فى الآية مانع.

قوله تعالى : **"وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ"** هذا حكم من الله تعالى على اليهود الذين زعموا أنهم آمنوا بالله وبموسى وبالتوراة ثم كفروا بسبب ولايتهم لمشركى العرب ، أو حكم منه سبحانه بأن مشركى العرب لو أنهم آمنوا برسول اللهε وبالقرآن ما اتخذوا اليهود أولياء لن الإيمان برهان على سلامة العقل ورجاحة حكمة وإنكار الإيمان حجة على فقد العقل الذى يعقل عن الله تعالى ، وبهذا الحكم يجوز لنا أن نحكم على المؤمنين الذين يوالون غير المسلمين من غير ضرورة إلى ذلك أنهم لا عقل لهم يعقل عن الله ، وبذلك يكون إيمانهم ضعيفا جدا ، وقوله تعالى "ولكن كثيرا منهم فاسقون" دليل في التأويل الأول أن أكثر اليهود فارقوا دين موسى ، وفى التأويل الثاني أن مشركي العرب الذين حصلت منهم ولاية اليهود حرمهم الله من القابل للإيمان ، فإن سعادة الدنيا التى تنيل الإنسان السعادة في الآخرة أن يتفضل الله على العبد بالقابل وبالفيض ، فإن منحه القابل وحرمه الفيض كان من أهل الفترة ، وأن أظهر الفيض وحرمه القابل كان من أهل الكفر بالله تعالى ، والقابل هو العقل الذي يعقل عن الله والفيض هو الفضل الذي يبعث الله به أنبياءه.

* * *

تم بمحمد الله وحسن توفيقه

– الجزء السادس ويليه بأذن الله –

الجزء السابع

([1]) سورة النساء : 48.